

رواية
العرين
دعاء الجدعاني
DAR PAGES

العرين

دعاء عبدالرحمن الجدعاني، 1444هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجدعاني، دعاء عبدالرحمن

العرين. / دعاء عبدالرحمن الجدعاني – ط1..- جدة، 1444هـ

1444/540 1- القصص العربية - السعودية أ.العنوان

ديوي 813,03953

قم الإيداع:1444/540

دمك:6-1891-04-03-6-978

العرين

ظلال

الطبعة الأولى

2022م - 1444 هـ

اقْــرَأ بعيـنِ الخيال

واتْــرُكْ الـواقـعَ جـانبـًا

فكـاتـبةُ هـذهِ الـرِّوايـة

تـعـيشُ بينَ الـخـيـال

تتساقط أوراق الخريف لتُلامس جسدي الطريح، وكأنَّها تخبره بأنَّها هنا بجانبي وتستمع لكلِّ ما يدور في ذهني.

بينما أنا لم أكن هنا، بل كان ناظري بعيدًا جدًّا، حيثُ النُّجوم الواقعة في السَّماء أتأمَّلها بكلِّ هدوء وتروٍّ.

ألم يقل لنا الشَّيخ (سالم) قبلًا:

(التأُّمل بِ مخلوقات الله مِن أسمى العبادات الَّتي يجهلها النَّاس).

فها أنا أُمارس ما يقوله لي بكلِّ شغف..

غرقت في بحر التّفكُّر رويدًا رويدًا حتّى بدأتُ لا أشعر بما يدور حولي.

في هذه الدُّنيا العديد من الأشياء الَّتي يتوقَّف أمامها العقل فكيف بالسَّماء وتوابعها من نجوم وكواكب وثقوب سوداء.

قَطَعَ عليَّ تفكيري صديقي (يوسف) بقوله:

«الشَّيخ (سالم) يريدنا في مجلسه، يبدو أنهُ سيقول لنا قصَّة بهذا اليوم.»

غمرتني السَّعادة وركضتُ أسابق الرِّيح شغفًا إلى منزله ف قصص الشَّيخ (سالم) وإن كانت خيإليَّة إلا أنها تُبثُّ في داخلنا السَّعادة والفضول كلِّ ليلة.

عند وصولي أنا و(يوسف) وجدنا العديد من أطفال المدينة يجلسون حوله وبأيديهم قلم وحزمه من الأوراق لكتابة ما يقوله، فكلماته تعد فخرًا للجميع لشدِّة عمقها ورزانة قائلها.

بدأ جلسته بذكر الله تعالى وقال:

«جميعنا في هذا الكون سواء كنا ذوي أرواح متحكمة بجسدها أو أرواح ساكنة لنا قصَّة وحياة مختلفة تمامًا عن حياة الآخر».

قال (يوسف):

«أتقصد أنَّ للأشجار حياةً وقصصًا مختلفة عن بعضها البعض؟»

ابتسمَ وصمتَ لدقائق معدودة وكأنهُ يناقش نفسه ثُمَّ قا قال:

«الأرواح الساكنة لا تعني الشجر فقط يا (يوسف)، كلِّ شيء في هذا العالم من صنع الخالق يمتلك روحًا خاصَّة به. السَّماء، الأرض، الرِّياح الكواكب الفضاء والبحر.. حتّى الأحجار يا (يوسف) لدى كلِّ واحدة روح تختلف عن أرواحنا ولكنِّها تظل روحًا. الروح كلمة لا نستطيع شرحها بطريقة يستوعبها العقل، ولكن جميع مخلوقات الله تمتلك أرواحًا في أعماقها ولكل روح قصَّة وحياة تختلف عن الأخرى وإن تشابهت.»

كنتُ منهمكًا في كتابة نقاشه مع (يوسف) فوجَّه كلامه إليَّ بقوله:

«ماذا تكتب يا (أحمد)؟!»

قلتُ بعد انتهاء كتابة آخر جملة قالها:

«أكتب كلامك يا شيخي فأنا أريد أن أصبح مثلك في المستقبل».

قال موجِّهًا الكلام للجميع:

«من يستطيع أن يخبرنا عما كنا نتحدث قبل قليل؟»

قال الذي أمامي ويدعى (هزيم):

«أن لكلِّ روح قصَّة وطريق خاص بها.»

عندها قال وتلك الابتسامة لا تفارق وجهه:

«لسنا جميعًا ملائكة، فنحن بشر في نهاية المطاف... قد نقع أثناء المضي بِمساراتنا وقد نقف لسنوات طوال. هذا كله ليس عيبًا ولكن أن نتبع خطوات الآخرين ونُلصق أقدامنا بآثار أقدامهم يُعد عيبًا لا يُغتفر بحقِّ أنفسنا.»

سألته بفضول:

«وهل عيبٌ أن أتبع قدوتي إن كان صالحًا يُقتدى به؟!»

قال لي:

«أن تكون مختلفًا رغم بساطتك خير من تناسخات الأرواح بينك وبين الملايين من البشر فتلك النقطة السوداء في صفوف من بياض تُثير الانتباه رغم مساوئها وطهارة الماكثين حولها.»

قلتُ له:

«لم أفهم يا شيخي ما تعنيه من قولك.»

فقال ويديه تعبثُ بإحدى الكتب القديمة الَّتي كتبها بخطِّ يده:

«ستفهم مع الأيام يا (أحمد)، كلٍّ شيء سيتضح عندما تكبر»

بدأ بسرد قصَّة هذه الليلة والَّتي كانت بعنوان...

الهاربون من الجحيم

لم يكن الأمر هيِّنًا على سكان مدينة (باقار) العظيمة، فالعيش مع الخوف يُعدُّ موتًا وإن كان مُتشبثًا بالحياة.

تلك المدينة الَّتي تحتوي على جميع ملذَّات الحياة ونعيمها رغم انعزالها عن باقي المدن فمن خلفها صحراء القرن المائي ومن أمامها العديد من القرى التابعة لها.

كانت منطقتها مميزة جدًّا فهي موجودة عند النقطة الوحيدة الَّتي تواجه القمر وجهًا لوجه عند اكتماله فيكتسي السَّماء بأكملها ويُخيل للناظر أنهُ يعانق مدينة (باقار) وسكانها.

لم يشكروا الرَّبَّ على هذه النعمة العظيمة ونحن جميعًا نعلم أن النعم تدوم بالشكر، أليس كذلك؟!

قال (يوسف):

«نحنُ جميعًا بأمان لسبب واحد أنَّ الله هو الذي يحمينا»

قال الشَّيخ بابتسامته المعتادة:

«أحسنت يا (يوسف) فمن حق الله علينا طاعته؛ لتدوم نعمته علينا ولكن لم يحدث هذا الأمر مع مدينة (باقار) وساكنيها.

أخذهم اللهو بملذّات الله حتّى نسوه..

مرّت سنوات وسنوات وهم في نعمهم وملذّاتهم حتّى أتى ذلك اليوم الشنيع. رجل من القرية المجاورة قادم إليهم وجسده مأكول من جميع الجهات والدّم يصب من جسده صبًّا.

قال:

«أرجوكم نحتاج إلى مساعدتكم، وحوش غريبة آكلة للحوم البشر دخلت إلى قريتنا».

عندما أرسلوا شخصًا للتّأكّد من كلام الرجل وصحّته لم يعد ذلك الرَّجل فانتابهم الخوف وقرَّروا إغلاق أبواب المدينة حتّى يعلموا ماذا يحدث.

صرخ الرجل رغم جروحه رافضًا لما يحدث من أنانية وعدم مساعدة للغير فقذفوه خارج البوابة قائلين:

«إن كنتَ رجلًا بحقٍّ لما أتيتَ إلينا تاركًا أهلك وقبيلتك يواجهون مصيرهم.»

مرت ساعات وساعات و هم ينتظرون من أعلى منزل في مدينتهم أولئك الوحوش كما يزعم الرجل. بعد وقت ليس بالقليل شاهدوا جموعًا قادمة من بعيد، وزاد صراخ الرجل ودقِّه على البوابة طالبًا منهم بل يرجوهم فتحها ولكن.. لم تُفتح فاستسلم لمصيره وركع لربه لعل وفاته تكون بعد ركعة بين يدي الله.

تلك الركعات الَّتي هجرت منذُ سنوات طوال، جعلت جميع سكان المدينة ينظرون إلى الرّجل وعلى أعينهم شيء من الحسرة.

ولكن ما هي إلا دقائق معدودة حتّى تناوب جميعهم على قضم الرجل كالحيوانات المفترسة عند عثورها على غنيمة صغيرة بالمقارنة لعددهم.

بدأ الرعب يتسلّل في أرجاء مدينة (باقار) والجميع يردد:

«يا ربِّ ابعد عنَّا هذا البلاء، يا ربِّ أنت أدرى بمخلوقاتك منا. لترحمنا، لتنقذنا.. لتأخذ أرواحنا ونحن على الصلاح».

أتعلمون يا طلابي أن للمنافقين خصلة مشتركة، فهم لا يذكرون الله إلا عند كربهم ومصائبهم، ولكن عند الرّخاء فذكر الله بعيد عن ألسنتهم.

قال محمَّد الطَّالب في المقدمة:

«أليسوا مسلمِين يا شيخ مثلنا؟!»

قال:

«مسلمون ولكن ليس جميع المسلمينَ مسلمين، فهنالك المنافقون وهنالك من يتعبّد الله أمام نظر النَّاس؛ ليصنع من أمرًا في حياته الدُّنيا.. بل هنالك من يورث الإسلام من والديه فلا يعلم عن ديانته شيئًا، بل أنهُ لم يركع لله ركعة».

تعوذت من الشيطان في نفسي وقلتُ:

«أشكر الله على ما أعطاني إياه من قلبٍ ينبض له ولسانٍ ذاكر بفضله».

ابتسم وقال:

«وهل هذا الّذي تقوله فخر أم كِبر يا (أحمد)؟»

قلتُ بغرور:

«ألم تقل قبلًا أننا يجب أن نشكر الله على نعمه الَّتي أنعمنا بها؟»

قال ونظراته للجميع:

«الشكر يأتي بالعبادة والتقرب إلى الله بالصدقات وغيرها من الأمور أما الافتخار بِما تملكه بين النَّاس فهذا أمر يعد من الكبر ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذره من كبر يا (أحمد)».

قال (يوسف):

«إذًا فالكبر يكون كالنِّفاق والرِّياء وعدم ذكر الله، أليس كذلك؟!»

قال الشَّيخ:

«صحيح، نحن في مسارنا نحو بوّابة النهاية، نهاية الاختبار الدنيوي والذي يقودنا إما إلى الجنة أو إلى النار.. ونحن يا طلبتي لا نود الجنة فقط بل نود الفردوس الأعلى أليس كذلك.»

هزَّ الجميع رؤوسهم دلالة على موافقته فقال:

«عندما يمشي النَّاس على الصراط المستقيم هُنالك من تنطفئ أنوار أعمالهم فيسقطون، أتعلمون من هم؟»

قلنا بذهول:

«مَن؟!»

فقال:

المنافقون وأصحاب الرِّياء، من يعملون الخير لأجل غايات في أنفسهم. لا يريد الله عملا لم يُفعل لأجله ولا يلزمه من الأساس».

قلتُ بعد تفكير:

«أتعني بأنّ أصحاب مدينة (باقار) عندما ذكروا الله أخيرًا لم تُقبل منهم بسبب أنها لم تكن خالصة له بل لأجل ما يمرون به».

هزَّ رأسه وقال:

«صحيح يا (أحمد)، إن ذكرت الله فلتذكره بالسراء قبل وإلا لا نفع لذكرك في شيء».

نظر مجددًا إلى ذلك الكتاب الكبير في يده وأكمل:

«بدأ جميع أهل المدينة بذكر الله ومناجاته ولكن لم يُفِدهم ما فعلوه شيئًا فقد كُسر الباب على مصراعيه ودخل الوحوش وكأنهم قد خرجوا من أقفاص مسورة لسنوات طويلة عليهم.

التهموا الكثير وعلت صرخات أهل المدينة حتّى ظنَّ البعض منهم أنها وصلت إلى أعالي السَّماء. لقد كان يومًا دمويًا على هذه المدينة والقرى المحيطة بها. ما أشد من عذاب النفس عند قتل أحب النَّاس لها أمام ناظرها!

وكأن هؤلاء القوم قد سُلطوا على هذه المدينة وما يُجاورها بأمر من الله.

قال (يوسف):

«وهل هذا يعني بأن قوم مدينة (باقار) قد قُتلوا جميعًا بسبب أكل أولئك القوم لهم!»

قال الشَّيخ:

«بنو القوقاع، أولئك القوم يدعون بنو القوقاع.. هنالك العديد من الأقاويل والمسميات عنهم بزمننا هذا ولكن أكثر ما يشاع لا يُعد شيئًا من حقيقة هؤلاء القوم.»

ابتسم (هزيم) وقال:

«شيء غريب يا شيخ أن يكون للوحوش مسميات مثلنا أمر يدهشني.»

قال له:

«ليسوا وحوشًا كما يترجمه لك عقلك يا (هزيم)».

قلتُ له:

«ومن هم بنو القوقاع شيخ؟»

قال:

«بنو القوقاع، مجموعة من البشر البدائيين جدًّا، يأكلون اللحوم بدمها ولحوم البشر هي المفضلة لهم. تميزهم علامة في أعينهم وكأن شقًّا كثيرًا مأخوذ من سطح القمر قد تمركز في داخلها. أسنانهم منحوتة لتكون كالسكاكين بحدتها فيقطعون أقسى الأشياء بواسطتها.. وأطول شخص فيهم لا يتعدى المتر».

لم يأكلوا كلِّ أهل المدينة لسبب غير معلوم للضحايا. فقاموا بكتابة عهدة من أكبر شخص بمدينة (باقار).

(كل ليلة عند اكتمال القمر وقربه من الأرض يأتون طامعين بلحوم سكان مدينة (باقار) وخاصَّة الأطفال منهم).

فوافق أهل المدينة هلعًا وخوفًا، ومرت السنوات هكذا كلِّ ليلة عند اكتمال القمر والقمر في هذه المدينة يأتي شهرًا كاملًا كلِّ سنة فأي طفل يولد بهذا الشهر يكون ملكا لبنو القوقاع.

مضت الأمور هكذا حتّى ولد طفل امرأة تدعى (ميليساء).

قال (يوسف):

«من هي (ميليساء) يا شيخ؟»

ابتسم وقال:

«هي الَّتي لم ترضَ أن تكون ثمرة حبها من ذلك الذي عشقت دهرًا طعامًا لوحوش البشر.»

طلبت من زوجها قبل ولادتها مرارًا الهرب من المكان عن طريق صحراء القرن المائي ولكنه رفض خوفًا من دخول تلك الصحراء الَّتي ظهر عنها العديد من القصص المرعبة. من ضمن القصص الَّتي قيلت عنها أنها بوابة بين عالمنا وعالم الشياطين والجن، وهنالك من يقول بأن أقوام مرعبون يسكنون تلك الصحراء، وهنالك أيضًا أشخاص يدَّعون أنَّ داخلها يتغير الزمن إلى زمن آخر.

قال لها:

«لا نستطيع الهرب من مصيبة لندخل في مصيبة أشد منها يا (ميليساء)».

قالت وقد اغرورقت عينيها بالدّموع:

«أتترك طفلنا، الذي تمنيناه سنينًا طويلة يكون طعاما لهؤلاء القوم يا (رياحين)؟».

ضمها بكلِّ قوته وقال:

«أقْتَلُ قبل أن يحدث هذا الأمر».

عندها قالت:

«إذًا لنرحل عن هذه المدينة ونواجه مصيرنا، المصير الغائب عن أعيُننا خير من المكشوف الذي نراه الآن».

قال بحزن:

«وأترك عائلتي بأكملها وأرحل معك! لستُ جبانًا يا (ميليساء)».

بكت من شدِّة الحزن والأسى وقالت:

«ما فائدة الشجاعة وأنتم تسلمون أطفالكم طواعية لهم؟ جميعكم تقولون ما لا تفعلون ولكن أنا، لن أسلم طفلي وإن قُتلت مئات المرات لأجل ذلك أتسمعني يا (رياحين)».

نظر إليها بغضب ثُمَّ رحل بدون أي كلمة فأمسكت بطفلها وانهمرت في البكاء.

قال (يوسف):

«وما فائدة الشجاعة إن لم يحكم عقله وينقذ طفله؟!»

قال (هزيم) مؤيدًا كلامه:

«هنالك فرق بين الشجاعة والحماقة، أليس كذلك يا شيخ؟».

قال الشَّيخ بعد تروٍّ:

«الشجاعة أن تفعل المستحيل لأجل أحب الخلق إليك وإن تخليت لأجلهم عن الشجاعة ذاتها.»

قلتُ بجرأة وتسرع:

«ولكن من صفات الرجل ألا يترك جماعته ويرحل هاربًا لأي سبب كان.»

قال الشَّيخ:

«وهل من الشجاعة أن يُلقي بطفله إلى التهلكة يا (أحمد)؟»

صمت فأنا لم أستطع الرد على ما قاله عندها أكمل القصَّة:

«القد رحلت (ميليساء) في الفجر وقبل ظهور بنو القوقاع ببضع دقائق عن المكان حاملة طفلها في يدها ونظراتها تعود كلَّ لحظة إلى

الوراء وكأنَّها تُلقي لتلك المدينة ومن فيها نظرة الوداع.. فهي تعلم بأن دخول هذه الصحراء لارجعة منها وأن الوداع سيكون أبديًّا».

أيكون الرَّحيل مؤلمًا هكذا

فيقتلنا ببطء حتّى لا نعد نشعر

لتتحوَّل لأجساد خاوية

وقلوبنا الّتي قد نبضت يومًا

تُلقي على أسماعنا سيمفونية الوداع

قال الشَّيخ وقد أغلق كتابه:

«سنتوقف ونكمل غدًا».

قال (هزيم) بشوق:

«ولكني أريد أن أعلم ما الذي حدث لها ولطفلها؟ ولا أستطيع الانتظار للغد».

قال الشَّيخ:

«لتكن صبورًا فهذه الحياة لا تمشِ بهذه السرعة الَّتي تتوقعها يا (هزيم)، ثُمَّ إني رجل خرف، قد توالت عليَّ الأمراض فلا أستطيع تسوية عقلي ومواكبته ليُجاري عقولكم.»

قلتُ له بعد رحيل الجميع:

«يا شيخ، أريد سؤالك شيئًا، هل هذه القصص الَّتي تقصُّها علينا حقيقية أم أنها نسج خيالك؟!»

فقال لي وقد نهض من مكانه:

لستُ من عشّاق القصص الحقيقية يا (أحمد)، ولكن لتحكم عقلك.»

فرحلت وأنا أفكر بكلامه..

أحقًا يستطيع الشّخص الذهاب في مخيلته إلى قصص قد لا يكون لها وجود من الأساس، هل الولوج في باطن العقل يجعلنا نتخطى المستحيل بتخيلاتنا!

أمور كثيره تُحيرني بالشَّيخ (سالم) فأنا رغم حضوري كلِّ دروسه وقصصه منذُ أتى إلى هذه المدينة قبل سنتين إلا أنني لم أستطع استيعاب حجم العقل الذي يحتويه.

ذو فكر غريب عن أهل المدينة بأكملهم وكلماته لها حجمها في مجلسنا.

دائمًا ما أُردد هذه الجملة في عقلي.

(من هو الشَّيخ (سالم)؟!)

على حسب قول جدِّي والقدماء في مدينتنا أنهُ قد اختفى في شبابه نتيجة حدث لم يذكروه لي، وعاد بعد أربعين سنة وقد شاب شعره وانحنى ظهره. لم يذكر لهم ما حدث ولكنه قال:

«كلُّ شيء في هذا العالم بمشيئة الخالق».

شاهدت (هزيم) و(يوسف) قادمون باتجاهي فقلتُ لهم عما أفكر به عندها قال (هزيم):

«لنسأل إحدى الكبار عن قصَّة الشَّيخ (سالم) ونُلح عليهم في القول حتّى يُجيبنا شخص منهم.»

وافقنا أنا و(يوسف) فكرة (هزيم) وذهبنا مسرعين إلى منزل جدِّي فهو على حدّ قوله كان صديقًا للشيخ (سالم) في شبابه.

جدِّي يعيش في منزل مصنوع من الطين في آخر المدينة ويعيش مع عمتي الأرملة وابنتيها (سُميَّة) و (رماح)، في عمرنا تقريبًا أي في الثالثة عشرة.

طرقتُ الباب عدة طرقات حتّى فتحت لنا (رماح) وقالت:

«أهلًا يا (أحمد)، هل أتيت لزيارة جدِّي؟»

قلتُ وعيناي على الأرض خجلًا:

«هذا صحيح، هل أستطيع الدخول ؟»

أزاحت لنا الطريق لنشاهد جدِّي ينظر إلى الفراغ لوقت طويل وكأن عقله في مكان آخر بعيد كلِّ البعد عن تلك النقطة الَّتي ينظر باتجاهها.

فحضنتهُ بكلِّ قوتي وقلتُ:

«جدِّي لقد اشتقتُ إليك.»

لم يجب وظلّ ينظر لنفس المكان فهززته وقلتُ:

«هل أنت بخير يا جدِّي؟»

نظر إليَّ بعد وقت طويل وقال:

«أهلًا يا (أحمد)، وأخيرًا افتكرتْ جدك حسين.»

قلتُ:

«الأمر ليس كذلك ولكني كنت مشغولًا جدًّا بموسم الحصاد مع والدي وأيضًا.»

صمت ولم أكمل فقال:

«وأيضًا ماذا!»

قلتُ بتوتر:

«أنا وأصدقائي نذهب كلِّ ليلة إلى منزل الشَّيخ (سالم) لنتزوَّد بالعلم والدين في آنٍ واحد.»

ابتسم وقال:

«قد تجد العلم عند (سالم) فالعلم كالبحر لا حدود لقطراته ولكن الدين أمر مستبعد يا (أحمد)».

ثُمَّ نظر إليَّ وعاد النظر إلى أصدقائي بتركيز وقال:

«ألم يمنعك والدك بالذهاب إليه ؟!»

قلتُ:

«ولكنه لم يعطني إجابة كافية لعدم حضور مجلس الشَّيخ يا جدي، فهو لا يعلمنا سوى القصص ذات العبر لتُفتح عقولنا وتأخذنا إلى عالم آخر، ألم تقل لي قبلًا وقد قلتُ نفس الكلام لوالدي العلم شيء لا بُدَّ منه وإن كان في آخر الأرض؟»

قال ويديه تمسك بيدي بالقوة القصوى الَّتي يستطيع شخص في آخر عمره الوصول إليها:

«العلم المفيد يا (أحمد) هو الذي أدعمك للوصول إليه ولكن العلم الذي يقوله لكم (سالم) لا يفيد أبدًا بل إن مضارَّه أكبر من منافعه».

قال (يوسف):

«سمعتُ من (أحمد) أنكم كنتم أصدقاء فيما مضى، هل تستطيع إخبارنا ما تعرفه عن الشَّيخ؟»

قال الجد وكأنهُ يتذكّر ما حصل منذُ سنوات طوال فالذاكرة تبدأ بخذلاننا في هذا العمر وقد تختفي ولا تعود لنا إلا ببضع خيوط لا أكثر:

«الحياة في أرضنا بسيطة جدًّا فنحن جميعًا نشقى نهارًا ونذهب إلى منازلنا ليلًا لنُريح أجسادنا من عناء ما حصدناه، ولكن (سالم) لم يرضَ بهذه الحياة فالحياة بالنسبة له يجب أن تكون بالتفكر ومعرفة العلوم بأكملها.. لقد كان مهووسًا بالعلوم والمعرفة وهذا الأمر لم يكن موجودًا في مدينتنا فنحن أشخاص أمِّيُون لا نعرف من الكتب

سوى كتاب الله تعالى وقراءتنا له تكون نابعة عن الحفظ والترديد فيما بيننا».

قال (هزيم):

«لا أحد يستطيع القراءة والكتابة في زمنكم أليس كذلك كذلك؟»

قال:

«صحيح، هنالك القلّة ولكنهم أيضًا لا يمتلكون من العلوم ما تشبع فضول شخص ك (سالم)، قال لنا ذات ليلة، دعونا نرحل ونطلب العلم أينما كان فحياتنا هنا تضييع لها لا أكثر».

ولكن جميعنا ما عداه لم تكن لنا النية بالرحيل معه؛ نظرًا إلى اقتناعتنا بالبقاء ومواكبة حياتنا البسيطة.

قال (عُمير) جد (يوسف):

«الرحيل من مدينتنا ليس بالأمر الهين يا (سالم)، فهنالك عائلاتنا وأقرباؤنا وحياتنا بأكملها محفورة على أرض هذه المدينة فكيف نتركها ونرحل تحت سراب رحلة لا نعلم متى نعود منها».

قال (سالم) وعيناه تنظر للسماء بكلِّ فخر وشموخ بنفسه:

«لن أعيش مثلما عاش الجميع هنا فأنا لدي طموح أكثر بكثير من كلِّ شخص هنا، وهل يُعاب الشَّخص في طموحه؟!»

قلتُ له وأنا أربت على كتفه:

«ليس عيبا بل أنهُ فخر ولكن فكر، لتفكر بعائلتك ووالديك الذين لا يملكان غيرك سندا لهم وفكر برحلتك الَّتي قد تطول لسنوات وقد لا يكون لها نهاية من الأساس.»

نظر إليَّ لثوانٍ وكأنهُ يتأمَّلني ثُمَّ قال:

«كنت أعلم، كنت أعلم جيِّدًا أنك لا تريد لي الخير يا (حسين) أنت بالذات حقود حسود ذو قلب مليء بالسواد بسبب فشلك».

نظرتُ إليه وعيناي مفتوحة على مصراعيها وقلتُ بعد ضحكة صفراء أطلقتها لعل ما قاله يكون من نسج خيالي:

«أعنيت ما قلتُه توًا أم أنها مزحة لتُغيظني؟!»

جلس على الرمل وأمسك بيده حفنة منه بكلِّتا يديه ثُمَّ قال:

«أنت لم تعتبرني يومًا صديقًا لك، تفتخر بسعادة الجميع وفخرهم بك بسبب قوَّتك الجسدية ولكن أنا ! لا أحد يُعيرني أي اهتماد بسبب ضعف بدني ولكن عقلي يستطيع التغلب عليكم جميعًا. أنتم لستم سوى جهلة كالحيوانات تمامًا لا تملكون من العقل سوى القدر الضئيل جدًّا أو بمعنى أوضح أنتم لا تستخدمون عقولكم سوى بذلك القدر الذي يجعلكم تستمرون بهذه الحياة البدائية.»

قال (عُزي) وحروف كلماته تخرج متكررة بسبب مرض يعانيه لا نعلمه:

«ساااااللمم لا لا تقل ههكذا».

ضحك سالم بسخرية وقال:

«أنا من الأساس لا أعلم كيف صادقتكم فأنتم لا تستحقون واحدًا مثلي. شخصًا ذا أحرف متكرّرة والآخر لا يعترف بعقله ويفتخر بجسده فقط».

أردت ضربه ولكن (عُمير) أمسك بي وقال:

«يبدو أن (سالم) ليس بوعيه لندعه الآن ونتحدث معه لاحقًا».

فقال سالم:

«انظروا إلى حفنة التراب هذه الَّتي بيدي»

فتح مجالا صغيرًا لتخرج من يده فخرجت ببطء تباعا حتّى فاضت يداه فقال:

«صداقتي معكم كهذا الرمل الراحل، لقد انتهى كلّ شيء بيننا... نحن الأربعة لن يكون لنا لقاء.»

أبعدت (عُمير) عني وركضت إلى (سالم) فلكمته بكلِّ قوتي صرخت:

«كيف تجرؤ أن تُنهي صداقتنا لأجل أمر تافه، أنت لا تملك من العقل ذرة.»

توقف عن الحديث ومسح يديه المليئة بالتجاعيد ببطء تلك الدموع الدموع المنسابة من عينيه بدون شعور. نظرت إلى جدِّي (حسين) بتوتر فهذه المرة الأولى الَّتي أراه يبكي.

لم أستطع التحدث معه كلِّ ما فعلته هو تمسكي بيده الأخرى وضغطي عليها ببعض الشدَّة لأدخل في قلبه الشعور أني معه وبجانبه.

همس لي (يوسف):

«ما الذي فعلناه ؟ هل قصَّته مع الشَّيخ (سالم) تؤلمه هكذا؟»

فطلبتُ منه السكوت وأشرتُ له ول (هزيم) أن يخرجوا ففعلوا، عندها قلتُ لجدِّي:

«إن لم تستطع التحدث في هذا الأمر يا جدِّي لتنسى الأمر فأنا لا أستطيع رؤيتك بهذه الحال».

ولكن وفي لحظة واحدة وكأن ذاكرته قد هربت من عقله مجددًا فنظر إليَّ بشيء من الريبة وقال بسذاجة:

«مَن أنت؟!»

قلتُ بهدوء لأداري غرابة الموقف:

«(أحمد) يا جدِّي ابن ابنك (سالم).»

نظر إليَّ وكأنهُ في نزاع مع ذاكرته ليعود خائبًا بقوله:

«وهل لديَّ ابن؟»

قلتُ باستسلام:

«لا يهم، سنكمل حديثنا لاحقًا.. إلى اللقاء»

رحلت بخيبة أمل كبيرة جدًّا وبدأت بتهدئة نفسي بقولي:

(قد يكون فقدان ذاكرته مجددًا أمرًا جيِّدًا له فأنا لم أتخيل يومًا أن أشاهد جدِّي يبكي.)

قَاطَعَتْ تفكيري (رماح) وهي تبعد الحب الفاسد عشاء عن اليوم قبل طبخه بقولها:

«أتيت لغاية يا (أحمد) ويبدو أنك لم تحصُل عليها.»

ابتسمتُ بخجل وقلتُ:

«لا أُحب الوصول إلى غاياتي بهذه السهولة يا (رماح) فأنا أهوى الأشياء المستحيلة والَّتي لا نصل إليها بكلِّ يسر.»

قالت ونظراتها نحو الصحن في يدها:

«الأمور الصعبة بهذه الحياة قد تهوي بنا إلى الجحيم، فالقناعة كنز من عند الخالق إن لم نحصل عليها يُصيبنا الكِبَر حتّى نتحطم».

لم أفهم ما تعنيه ولكني عوضًا عن سؤالها استأذنت بالخروج لأخرج مسرعا قبل السماح لي.

خرجت من منزل جدِّي وأنا أفكر بكلِّ ما قاله لي أيعقل أن الشَّيخ (سالم) قد كان فظا هكذا مع أقرب أصدقائه.. على حسب رواية جدِّي أنهُ مليء بالكبر ولكنه شخص متواضع طيب القلب في الواقع.

مَنْ أُصَدِّقُ؟ لقد أتيت لجدِّي لأخرج الشكوك من داخلي فخرجتُ منه وأنا ممتلئ حد التخمة بالشكوك والمتناقضات.

«(أحمد) هل أنت بخير؟ وهل تعرف عليك جدِّي؟»

كنتُ أنظر وقتها للأرض بالتحديد إلى تحركات قدمي ولكن وعند سماع الصوت فتحت عيني بكلِّ ما تستطيع ونظرت إلى مصدر الصوت الذي أعرفه تمامًا وقد تملكني الذهول بالكامل.

لقد كانت (رماح) تمشي مع (سميَّة) أختها وبأيديهم الكثير من الأكياس فقلتُ لها برعب ممَّا أراه:

«(رماح)! ألم تكوني في منزل جدِّي عندما أتينا؟»

ضحكت بخجل وقالت:

«صحيح ولكني فور إدخالي لكم خرجتُ للبحث عن أختي فكما تعلم اليوم يوم السوق الكبير والجميع هناك وأردتُ مساعدة أختي في حمل الأكياس».

صمت ونظرت إليها برعب شديد فقالت (سمية) لي:

«ما بك تنظر إلى أختي هكذا؟!»

ولكني تجاهلتها وركضتُ بكلِّ سرعتي ناحية بيت جدِّي غير آبه بمناداتهم لي.

عند وصولي أردت فتح الباب ولكن قلبي بدأ بالدق المتواصل رعبا. والكثير من الأسئلة تدور في عقلي، مَنْ هذه؟! وكيف تشبَّهتْ ب (رماح) هكذا!

افتح الباب يا (أحمد)، لا تخف.

لا تكن جبانًا.

ففتحتُ الباب رغم مناجاة قلبي لي ألا أفتح ولكني.. لم أجد شيئًا سوى صحن الحب مرميًّا على الأرض والحبوب منثورة هنا وهناك.

وصوت جدِّي يُنادي

«هل أتيت يا (رماح) ؟!»

تركتُ الباب ونظري موجه نحو تلك النقطة حيثُ كانت تقعد (رماح).

شاهدت (سمية) و (رماح) وهم يركضون باتجاهي وعلى وجوههم الفزع، دخلت (سمية) إلى غرفة جدِّي لظنها أن شيئًا سيئًا قد حصل له والأخرى قالت لي:

«ما الذي يحصل يا (أحمد) هنا؟»

ثُمَّ نظرت إلى الصحن والحبوب المسكوبة وقالت تتجه لتلملمهم بيديها:

«وما الذي أسقط حبوب العشاء أيضًا؟»

قلتُ معتذرًا:

«قد تكون سقطت بسبب عدم رؤيتي لها، أرجوكِ اعذريني وإلى اللقاء.»

أرادت التحدث ولكني تركتها وركضتُ ناحية منزلي ومئات الأفكار تدور ر في رأسي.

عند دخولي للمنزل شاهدت والدي ووالدتي وإخوتي الصغار يتسامرون فقالت لي والدتي بخوف:

«أين كنت منذُ الصباح يا (أحمد)، لقد قلقنا عليك»

قال والدي وكأنهُ لا يكترث لي:

«اتركيه يا (عُريب) فشخص لا يهتم بمساعدة والده في مزرعته لا يستحق السؤال عنه».

قلتُ معتذرًا:

«أنا أسف ولكني سأحاول التعويض غدًا».

ذهبت إلى غرفتي وأرادت والدتي منعي بقولها:

«اجلس معنا قليلًا».

فقلتُ:

«متعب أريد النَّوم فقط وسأكون بحال أفضل.»

وكأنني أخاطب نفسي بدلا من والدتي، قد يكون النَّوم أفضل شيء أفعله بهذه اللحظة لأزيل تشوشات عقلي ومتاعبه.

عند وضع رأسي على وسادتي نطقتُ بأغرب جملة لم أتوقع يوما بأني سأقولها لنفسي:

(ما الذي يحصل لي؟ أيعقل أنني جننت؟)

هززتُ رأسي لأمنع هذه الأفكار الغريبة من الدخول في عقلي وقلتُ:

(غدًا سوف يتغير كلِّ شيء وأعود كما كنتُ تمامًا.)

ذهبتُ بعدها في سبات عميق...

نهضت من نومي وأنا مليء بالنشاط وكأن عقلي قد استعاد اتزأنهُ عندها قلتُ:

(النَّوم سلطان حقًا فهو العلاج لكلِّ شيء في حياتنا)

تلفّتُّ في جميع الاتجاهات لأشاهد إخوتي نيامًا فقلتُ:

(هل يعقل بأن الشمس لم تشرق علينا حتّى هذه اللحظة ؟!)

نظرتُ إلى النافذة بعد فتحي لها لأشاهد الظلام يخيم على جميع أرجاء المدينة.

ظننتُ أنني قد نمتُ لساعات معدودة لا أكثر فقلتُ في داخلي، سأنتظر حتّى الشروق لأذهب إلى (يوسف) و(هزيم) فأنا لم أشاهدهما بعد خروجهم من منزل جدِّي.

عند شروق الشمس نهضت والدتي لتشاهدني ولكن رغم مشاهدتها لي تجاهلتني وكأنَّها لم ترني!

فقلتُ لها:

«كيف حالك يا أم (أحمد)؟»

قالت بعصبيّة تعجبتُ منها فوالدتي ليست من النّوع الذي يغضب على أي شيء:

«لا تتحدث معي يا (أحمد)، أنت الشخص الوحيد الذي لم أتوقع أن يُخيب ظني به يومًا».

قلتُ باندهاش ممَّا تقوله:

«أخبريني ماذا فعلتُ لتقولي هذا الكلام الجارح لي، ألأنني لم أتسامر معكم بالأمس؟ أكُلُّ ما تقولينه اليوم بسبب عدم الجلوس معكم؟!»

تجاهلتني فغضبتُ من تجاهلها وخرجتُ وأنا ألعن نفسي مئات المرات إن كنت قد فعلت أمرًا خاطئًا لوالدتي بدون قصد مني.

جلستُ في مكاني المعتاد تحت أظلال هذه الشجرة والَّتي قد فاق عمرها مئات السنوات، هذا ما يقولونه الجميع عنها.

وبدأت بالتفكر والتأمل في حالي، أيعقل أن ينقلب حالي في ليلة واحدة لهذا القدر من السوء.

هل يُعاقبني الرب بسبب زيارتي لجدِّي الَّتي لم تكن بريئة للغاية بل كانت فضولا وحبًا لمعرفة ماضي الشَّيخ (سالم) وقصته.

لا أعلم ولكن...

تذكرتُ عندها قول الشَّيخ (سالم) في إحدى المرات:

(البحث وراء أسرار وخفايا الأمور الظاهرة لنا لا يجلب سوى السوء، فالفضول أحيانًا يُعد نقمة على صاحبه).

وكأنهُ يتحدث عنِّي، فأنا قد ملئت شغفًا لمعرفة خفايا الشَّيخ (سالم)، ذلك الرجل الوقور والمليء بالقصص والعلوم الغريبة.

كنت أعلم في داخلي بأن لكلِّ شخص نقطة سوء وجب أن تكون ظاهرة للجميع ليكون طبيعيا ولكن الشَّيخ (سالم) كان مثاليًا إلى أقصى درجات الكمال.. والكمال لله وحده لله وحده فقط.

انتظرت لساعات وساعات في تلك البقعة (يوسف) و (هزيم)؛ ليأتوا إليَّ فهذه البقعة هى نقطة الالتقاء ببعضنا البعض، ولكنهم لم يأتوا.

عندها نهضت من موضعي ونفضتُ التراب عن ثوبي وركضت إلى منزل (يوسف) ثُمَّ (هزيم) لأستفسر عما منعهما من المجيء. ولكني صدمت ممَّا رأيت ف(يوسف) و(هزيم) يتحدثان سويًا بالقرب من منزل (يوسف) وعند رؤيتهم لي قاما بتجاهلي، كما فعلت والدتي بي!

قلتُ بغضب:

«لماذا لم تأتيا كالعادة إلى تلك الشجرة؟!»

لم يتحدثا معي بل ظلا مشغولين ببعضهما البعض وكأنهما لا يرانانى، لدرجة أني ظننتُ بأني أصبحت غير مرئيًا لهما.

وقفتُ لبُرهه أنظر إليهما بنظرات خاوية لا تحمل في طياتها شيئًا سوى الاندهاش ممَّا يحصل.

ولكني لم أتحمل الموقف طويلًا فلكمتُ (يوسف) والذي كان واقفًا بكلِّ قوتي.

صرخ (يوسف):

«كيف تجرؤ أيها الوضيع المتكبر.»

وبدأ في تسديد اللكمات لي لكمة تلو أخرى، لم يتدخل (هزيم) بإبعاد (يوسف) عني بل ظل ينظر لي بكلِّ احتقار وسخرية.

وبعد العديد من اللكمات الَّتي جعلتني لا أعلم ما الذي حدث فذهبت في عالم آخر عند إغلاق عيني من شدَّة الألم.

عالم غريب كغرابة واقعنا تمامًا...

حيثُ المدينة ك مدينتنا بالتمام (مدينة السلاطين) ولكن سكانها لم يكونوا كالذين أعرفهم بل كانوا غريبين جدًّا فمنهم القبيح إلى حد الخوف منه ومنهم الجميل جمالا لم أرَ له وجودًا في عالمنا وهنالك الذين بينهم. كنت أعرف كلَّ الأشخاص رغم اختلاف أشكالهم في المكان وهنالك همسات في داخلي، همسات امرأة تقول:

«أريتك داخلهم لتعلم جيِّدًا بأن هنالك الأفاعي السامة مظهرها الجميل وهنالك الملائكي رغم دناءة خارجه، أريتك يا (أحمد) لتُردد.. ليس الجميع ك (ملائك)».

نهضت من نومي فزعا فجاءت والدتي مسرعة إليَّ وقالت:

«الحمد لله أنك نهضت يا (أحمد)، أرجوك أخبرني هل أنت بخير.»

أردتُ الحديث ولكني تنبهت لدخول والدي و(يوسف) و (هزيم) فقلتُ بغضب:

«ليخرج هؤلاء الأوغاد من هنا»

صرخ والدي في وجهي:

«انتبه لكلامك يا (أحمد)، لا يجب أن تبيع صداقتك بسبب نزاع يحدث دوما بين الأصدقاء».

أردتُ التبرير له وإخباره عما فعلوه لي ولكن ألم وجهي جعلني أصمت وأضغط بأسناني على يدي بكلِّ قوة؛ لأمنع نفسي من الصراخ والبكاء كالأطفال.

قالت لي والدتي:

«وضعت لك عُصارة التين في وجهك وسوف تُنهي والانتفاخ في حدود يومين ولكن وجب أن تتحمل يا ولدي».

وضعت وجهي ناحية وسادتي متجاهلًا النظر إليهم كرسالة محترمة أن يخرجا. قال والدي (سالم):

«انظري إلى دلالك له يا (عُريب)، يتجاهلنا ولا يحتر منا بتاتًا».

قالت له برجاء:

«أرجوك دعنا نخرج من هنا ونتناقش خارجًا.»

خرج الجميع وبقيت وحدي بهذه الغرفة، ولكنَّ شعورًا في داخلي يخبرني بأنني لستُ وحدي، شيء ما بجانبي.. ما هو؟!

لا أعلم.

بقيتُ منسدحًا على وسادتي وأنظر لسقف الغرفة وأنا أدعو الله أن يزول الألم سريعًا، ولكني سمعت طرقًا على نافذة غرفتي. أردتُ النهوض لفتحها ولكني لم أستطع التحرك، ليس الألم الذي في وجهي السبب بعدم قدرتي على التحرك بل وكأن شيئًا كالسلاسل غير المرئية تكبل جسدي بأكمله!

فبقيت أنظر للنافذة بعيني فقط وكأنني مشلول لا أقوى تحريك شيء غير عيني.

فُتحت النافذة المقفلة من الداخل بمفردها ليظهر طفل غريب يرتدي عمامة سوداء وعيناه لا يوجد بها حواف، دائرية بالكامل، وفمه كبير بعض الشيء ولكن رغم كلِّ ذلك كان يبدو بشريًا.. بشريًا بعيوب لم أرها من قبل في حياتي بأكملها.

صعد من فوق النافذة ليدخل غرفتي بهدوء وعيناه تنظر إلى عيني وفمه لا يزال مفتوحًا بأكمله مظهرا ابتسامة تنم عن مكر صاحبها.

أردت التحرك، الصراخ.. في الواقع أردتُ فعل أي شيء ليبتعد هذا المخلوق أو ليعلموا عائلتي بشأن وجوده ولكن لم أستطع سوى النظر، النظر فقط.

أسوأ شيء في حياتنا عندما لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا، فكل القوة الَّتي نملكها تصبح هباءً منثورًا في تلك اللحظة لننظر إلى سيرنا القادم لا محالة باستسلام.

جلس بجانب وجهي وهمسفي أذني:

«(أحمد)، هنالك قصَّة هذه الليلة.. أتريد الحضور؟»

سمعت صوت والدتي وهي تقول لوالدي:

«سأتفقده وأسمع منه ولكن أرجوك اصبر عليه فهو بالكاد أتم الثالثة عشرة يا (سالم)»

عيناي لم تتحرك عن هذا المخلوق وكذلك عيناه ظلَّتْ تنظر إليَّ بنفس الطريقة..

فتح الباب فعادت إليَّ قدرتي على التحكم بجسدي عندها صرخت بكلِّ قوتي. ركضت والدتي إليَّ وقالت برعب:

«(أحمد) ما الذي حصل لك؟ هل أنت بخير؟ أرجوك أخبرني؟»

لم أتكلم.. بل ظللت أبحث بعيني عن ذلك المخلوق والذي لم يعد له أي وجود فنظرت لوالدتي وعيني مفتوحة على مصراعيها ونفسي يتسارع وكأنني كنتُ في صراع مع الموت نفسه.

قلتُ لها وكلماتي متخربطة لا أعلم ما الذي أقوله من الأساس.

«انظري لقد لقد كان هنا، لقد كان هنا بجانبي، أمي لقد كان بجانبي هنا وهمس لي همس...»

حضنتني بكلِّ قوتها وطلبت منِّي الهدوء فهمستُ وأنا بين أحضانها

«ما الذي يحدث لي؟!»

قلتُ لوالدتي لأبعد الخوف عنها:

«يبدو أنني قد حلمت بكابوس مرعب»

بدأت بتحصيني وذكر بعض الآيات لي وقالت:

«يجب أن تنام بعد أن تحصن نفسك بالكامل، فالتحصين يا ولدي يحميك من كلِّ شيء حتّى تقوم من نومك»

هززتُ رأسي مؤيدًا لكلامها وقلتُ:

«سأستمع لنصيحتك»

ابتسمت لي وقالت:

«عزيزي يجب أن تتحدث مع والدك فقد أغضبته بالأمس»

قلتُ لها متعجبًا:

«هل غضب لأني كنت متعبا وأريد النَّوم؟ يا أمي أهذا الأمر يستدعي غضبه ؟! لا أعلم ما بكم جميعًا تغضبون منِّي بسبب شيء أراه عاديًّا جدًّا»

قالت بعد أن جلست في الأرض بجانبي:

«هل نسيت؟! لقد تلفظت عليه وقلتُ بأنهُ لا يملك مقدار ذرة من عقل وأنهُ شخص بدائي لا يهتم سوى بمزرعته مثل والده، جدك (حسين)»

نظرت إليها متعجبا ممَّا قالته و همست ببطء:

«متى قلتُ كلِّ هذا؟!»

«بالأمس يا (أحمد) هل نسيت؟!»

أمسكتُ برأسي بكلِّ قوة وقلتُ:

«ولكني لم ألتقِ بأبي سوى بالليل وذهبت مسرعًا للنوم بسب ألم رأسي»

قالت بتعجب:

«ما بك يا (أحمد)؟ هذا الذي تقول عنه حصل قبل الأمس.»

بدأت يدي ترجف من شدِّة الرعب وهمست:

«لا أتذكر».

عندها ابتسمت وقالت:

«أعلم بأن ضميرك يؤنبك فأنت لا يمكن أن تقول ذلك، لذا أرجوك اعتذر لوالدك عما قلتُه وسوف يسامحك».

أمسكت بيد والدتي بهدوء وقلتُ:

«لا تتركيني أرجوك»

حضنتني وقالت:

«أيعقل أن تترك أم طفلها؟ سأبقي معك حتّى أعود إلى خالقي يا (أحمد)، لا تخف لن يضربك والدك سوف يتفهم ما ستقوله»

يبدو أنها لا تعلم ما الذي عنيته، لم أطلب منها عدم التخلي منها بسبب خوفي من والدي بل.. من نفسي!

ذهبت إلى والدي وبدأتُ في الاعتذار وطلب السماح لشيء لا أعلمه من الأساس ولكن رغبتي في رؤيته سعيدا جعلني أفعل كلِّ ذلك.

أيُصدقاني لو قلتُ لهما أنني من الأساس لا علم لي عما فعلته بالأمس مطلقًا وقد رحل ذلك اليوم من عقلي كرحيل طير من سربه!

لن يُصدقني أحد أو ربما يصدقاني وأكون في أعينهم مريضًا مثيرًا للشفقة.

رؤية النَّاس لي بمنظر المتكبر المغرور خير مئة مرة من نظرات الشفقة الَّتي سيلقونها في وجهي.. فأنا رغم صغر سني إلا أنني أعلم جيِّدًا أن الشفقة تكسر قلوب الرجال وتجعلهم يودون الموت ومواجهة الرب بجميع ذنوبهم على أن يكونوا موضع شفقة لشخص ما مهما يكن، وإن كان أقرب الخلق لهم.

بعد سماحه لي وقوله:

«ولكن يا (أحمد) أرجو ألَّا تُعيد ما فعلته مجددًا فأنا والدك سوف أسامحك وإن كررت أغلاطك في وجهي ألف مرة وكذلك والدتك ستفعل مثلما أفعل ولكن النَّاس يا ولدي لن يعطوك هذه الفرص كلها، إما أن يتمسكون بك لعلوِّ أخلاقك أو سيتركونك وحيدًا يا بني».

قلتُ بكبرياء:

«لا أهتم بأحد سوى عائلتي.»

ابتسم وربت في كتفي قائلًا:

«العائلة ستفترق يومًا يا (أحمد)، إما بسبب الموت الذي يأتي بدون موعد مسبق وإما بسبب الحياة نفسها.»

قلتُ بعدها:

«إن رحلت العائلة لا أبالي بالعيش وحيدًا»

قال وقد وقف ليمارس عمله في المزرعة:

« صدقني الوحدة ليست كما تتخيَّل»

وودعني ورحل بعد أن ابتسم قائلًا:

«سامحتك يا بني فلا تهتم بما حصل، سنبدأ صفحة بيضاء أخرى»

ابتسمت وحضنته بكلِّ قوتي ثُمَّ رحل كلٌّ منا في وجهته. في الواقع، وجهة والدي واضحة ولكن وجهتي أنا وكأن لا وجهة لها من الأساس.

متخبط هنا وهناك ولا أعلم أين أرحل، مشيتُ في السوق الكبير وعيناي تلمح كلَّ الموجود رغم أن عقلي في مكان آخر.

أيعقل أنني قد فعلت شيئًا خاطئًا بالأمس ل (هزيم) و(يوسف) مثلما فعلتُ بوالدي؟!

عندها ضربتُ رأسي كعلامة على عتاب نفسي وقلتُ:

(ما هذا الذي يُصيبك يا (أحمد)؟ أعقابٌ هذا أم ماذا؟)

بدأت أفكر ب ذلك الفتى الذي ظهر من النافذة وأمر القصَّة، عندها تذكرت قصَّة الشَّيخ (سالم) فركضتُ مسرعًا حتّى لا أفوت قصته لهذه الليلة.

وصلت عند باب منزله وأنزلتُ حذائي من قدمي على عجل ثُمَّ دخلتُ بعد طرق الباب عدة طرقات حتّى أذن لي.

قلتُ له:

«اعذرني يا شيخ ولكني نسيت أمر موعدنا لهذا اليوم»

ابتسم وقال:

«خذ مقعدًا يا (أحمد) ولا تبالِ فنحن في نهاية المطاف بشر لا يمكن أن نصل إلى درجة الكمال في كلِّ شيء ثُمَّ إننا لم نبدأ حتّى الآن يا بني»

تلفتُ يمينًا ويسارًا للبحث عن (يوسف) و(هزيم) وعند رؤيتي لهما يرمقونني بنظراتهم حتّى أخذت أُقرِّبُ مقعدًا إليهم و همست:

«لنتفاهم بعد نهاية الدرس»

ابتسم (يوسف) وهزَّ رأسه وقال:

«أعتذر عما فعلته لك»

فربتُ على ظهره وقلتُ بنفس نبرة الصوت:

«لا تهتم»

قال الشَّيخ (سالم):

«لتشاركوننا ما تتحدثون أنتم الاثنان بشأنه»

قلتُ للشيخ:

« لا شيء ولكن فقط نُلقي على بعضنا التحية لا أكثر»

قال بعد النظر في وجهي مطولًا:

«وما الذي في وجهك يا (أحمد)، هل تعرضت لنزاع قبل المجيء؟»

قلتُ ويداي تُحاول تغطية وجهي نظرا إلى التفات الجميع لي:

«لقد تعثرت قدمي وسقطتُ على وجهي لا أكثر»

قال:

«سلاما عليك يا بني، فلتنتبه مجددًا»

هززتُ رأسي موافقا على كلامه..

صمت قليلًا وكأنهُ يراجع أفكاره ثُمَّ قال:

«ما رأيكم بمن يخون صديقه عند الحاجة ؟!»

قلتُ بكلِّ اندفاع:

«لا شرف له»

قال بهدوئه المعتاد:

«الشرف لا يعني الحماقة يا (أحمد)، هنالك العديد من الأشياء الَّتي تجعلنا نتخلى عن مبادئنا وقيمنا بل وأحيانا كثيرة ننسلخ من كلِّ ما نؤمن به عند حاجاتنا».

قال (يوسف) بعد تفكّر:

«وهل يُعد هذا الأمر حسنًا أم سيئًا؟!»

رد عليه (أسامة):

«بالتأكيد سيئ، يجب علينا ألا نتخلى عن أي شيء نؤمن به وإن كان مثقال ذره لأجل حاجاتنا، فهذا الشيء يُنافي طبيعة العرب ورجولتهم الَّتي علا صيتها في الأرض أجمع ليهابنا كلِّ من في قلبه شر وحقد دفين.»

قال الشَّيخ موجهًا كلامه ل (يوسف):

«أحسنت يا (يوسف) بسؤالك، وأنت يا (أسامة) لا تلحق باندفاعك (أحمد)».

صمت قليلًا ليشاهد وقع كلامه على نفوسنا ثُمَّ قال:

«في قصتنا السابقة تحدثنا عن (ميليساء) وطلبها من (رياحين) زوجها الهرب معها وترك أسرت أسرتهم ومملكتهم بأسرها لبنو القوقاع ولكنه رفض. فهو برفضه هذا يُمثل كلامكم قبل قليل ألا نتخلى عن قيمنا عند حاجاتنا ولكنه عوضًا عن ذلك تخلى عن زوجته وطفله!»

قلتُ:

«ولكني أرى أن ما فعله (رياحين) هو الصحيح وخصوصًا أن تلك الصحراء حولها العديد من الأقاويل أي أنهم في جميع الأحوال أموات، ليُقتلوا فخورين بأنفسهم ورؤوسهم في السَّماء خيرًا من أن يُقتلوا هاربين من الموت لأجل الموت نفسه.»

أيدني الجميع وصفقا لي فخرًا فصمتُ حتّى توقف الجميع عن التصفيق وقال جملة واحدة:

«لا أعتقد بأنك شجاع إن فعلت ما فعله (رياحين) لأسرته»

قلتُ له:

«لماذا ؟!»

فابتسم وقال:

«إن كان (رياحين) شجاعًا كما تدعي لقُتل في أول يوم من دخول بني القوقاع لمدينة باقار».

بدأتُ بالتفكر وعلمتُ أن ما يقوله الشَّيخ صحيحًا، فالشجاع يُحارب حتّى يفوز أو يموت، لا يبقى هذه السنوات كلها على قيد الحياة رغم قتل سكان مدينته واحدًا تلو الآخر.

صمت لحظات ثُمَّ قلتُ:

«معك حق»

قال بانتصار:

«إذًا فلنقل إن (رياحين) شخص جبان رفض الذهاب مع (ميليساء) خوفًا من تلك الصحراء، وبرّر فعلته بأنهُ لن يترك عائلته و مدينته، أتوافقوني الرأي؟»

وافقناه جميعًا فالصورة اتضحت لنا بالكامل...

عندها قال لنُكمل:

(الشجاعة

فخرٌ

ممزوج

بالسُّمِّ

القاتل)

صحراء القرن المائي

خرجت (ميليساء) من مدينة (باقار) وبيديها طفلها دون أن تأخذ أي طعام أو شراب لهما لعلمها بأن أي تضييع للوقت قد يجعل طفلها طعامًا لأولئك الوحوش.

عند أول خطوة خطتها ناحية الصحراء وتلامست قدمها تربته شعرت بشيء غريب، وكأن حياتها قد سُلبت منها وأصبحت بين يدي هذه الصحراء الغريبة.

ولكن رغم كلِّ ما تشعر به من خوف إلا أنها استمرت بالدخول خطوة تلو الخطوة حتّى اختفت بين أهداب صحراء القرن المائي.

تلك الصحراء الَّتي يهابها الرجال تدخلها امرأة حاملة أَحَبَّ الخلق لها بين يديها. هذا ما نقول عنه شجاعة يا طلابي (ميليساء) مثال على التضحية وتحدي الخوف لأجل من تحب.

في تلك الصحراء المليئة بالرمال البيضاء فتبدو وكأنَّها ثلوج تغطي المكان. كانت تمشي بخطوات ثابتة نحو الأمام، أين وجهتها لا تدري وكيف ستصل أيضًا لا تدري، ولكن هدف واحد أمامها هو الحفاظ على حياة طفلها.

أشار (يوسف) بيده لقول شيء ولكن الشَّيخ قال:

«دعونا ننهي القصَّة بكلِّ ما فيها لهذه الليلة وبعدها فلنتناقش»

مشت ليومين كاملين بدون طعام ولا شراب ولكن رغم ذلك لم تكن تشعر بالعطش ولا بالجوع أيضًا! بل كان حليبها يُدر بكميات هائلة فيأخذ منه طفلها ما يُشبعه ويتبقى المزيد.

الأمر غريب، غريب جدًّا ولكنِّها ظلَّتْ تمشي لعل الله يُضيء لها طريقًا يُخرجها ممَّا هي فيه.

في إحدى الليالي وعند بحثها عن بقعة للنوم بها سمعت أصوات طبول ومعازف قادمة نحوهم، فأمسكت بطفلها بكلِّ قوتها خوفا عليه، وظلَّتْ تنظر يمنة ويُسرى لتحديد اتجاه الصوت.

الغريب في الأمر أن الصوت يأتي مرة من يمينها ومرة من شمالها وهذا الأمر جعلها تتيقن أن ما تسمعه ليس ناتجًا عن احتفالات البشر أبدًا.

قالت بصوت خافت في أذن طفلها والذي لا يتوقَّف عن البكاء:

«أعيذك من شرور سُكان هذه الأرض، ليحميك الله منهم، استودعتك الله الذي لا تضيع ودائع العباد عنده.»

اتضح من بعيد هيئه أشخاص، لم يكونوا واضحين بالكامل لعيني (ميليساء). وكأن الظلال قد تحررت من قيود أصحابها لتصنع لنفسها هيكلتها الخاصَّة.

كلما يقتربون كلما تعلو همسات (ميليساء) في أذن طفلها.

«أعوذ بلله من الشيطان الرجيم، احفظ ولدي واحمه كما حميت هاجر وابنها (إسماعيل)».

علت أصواتهم الماجنة مع صوت (ميليساء) الطاهر، فهل يمتزج السَّيِّئ والجيّد! الخير والشر؟!

بل هل يمتزج نسل الشياطين مع نسل العابدين؟!

وكأن تصادمًا قويًا قد حصل في تلك اللحظة، أن يكون ذكر الله في وكر الشياطين أمر جعلهم هم أنفسهم ينظرون لها بصدمة وخوف في آنٍ واحدٍ.

ولكن، (ميليساء) نسيت لأجل من تحب نفسها. فظلَّتْ تدعو الله وتستودع ابنها عنده ونسيت استوداع نفسها فقتلت في تلك اللحظة بواسطة أفعى الخُليجياء.

توقف قليلًا ونظر إلينا وقال:

«أعلم بأن لديكم العديد من الأسئلة فلتسألوا الآن»

قلتُ بتعجل:

«لم أسمع في حياتي كلها بأفعى (الخليجياء)، رغم أن مدينتنا وما حولها تعج بالأفاعي بشتى أنواعها».

قال:

«أفعى (الخُليجياء) كما يقول التاريخ المُندثر، هي أفعي سوداء اللون تميل عينها للسواد الكامل حينًا وللاحمرار حينًا أُخرى، من فرط السُّم في أنيابها يقطر من فمها، وما إن تفرغه حينًا حتّى يعود للامتلاء فتبحث عن فريسة أخرى لتبثه داخلها.

يُقال: «إنها تخرج عند خروج الشياطين، ويُقال أيضًا: إنها من نسل الأفعى الملعونة مع الشيطان الأكبر».

قال (يوسف):

«يُحزنني جدًّا ما حصل ل (ميليساء)، لقد هربت من الموت لأجل الموت نفسه.»

ابتسم الشَّيخ وقال:

«من ذا الذي قال لك ذلك؟ لقد هربت لأجل طفلها والموت لأجل من تحب يُعد حياة في نظر الكثيرين».

قال (هزيم) متسائلًا:

«ولكنِّها خسرت كلِّ شيء، طفلها وحيد في الصحراء وحوله الشياطين والأفاعي فكيف ينجو، متأكد جدا بأنهُ قد لحقها في ذات اللحظة.»

صمت الشَّيخ لدقائق ثُمَّ أكمل متجاهلا كلام (هزيم)...

سقطت (ميليساء) أرضًا ولقت حتفها في نفس اللحظة فسُم (الخُليجياء) يقتل حالما يدخل جلد الضحية فتتجمد دماؤه وعيناه تُصبح كعيني الأفعى تمامًا.

سقطت وسقط الطفل وهو يبكي بكلِّ قوته، وكأنهُ يُرثي ببكائه والدته. وتلك الأفعى التفت على جسد الطفل استعدادًا للهجوم عليه ولكنَّ يدًا مجهولة المصدر التقطته فابتعدت الأفعى عنه بكلِّ هدوء.

«ما رأيك به؟ أنتركه ليلقى مصير أمه أم نأخذه معنا؟»

«إن أردتِ أخذه من باب التسلية فخذيه سيكون طعامًا جيِّدًا للغيلان أما إن أردته من باب الشفقة وإنقاذ حياته فالأفضل أن تتركيه هنا.. الموت بالنسبة له أرحم ممَّا سوف يُلاقيه».

نظرت إليه وهي تفكر هل تتركه ليلقى مصيره، أفعى (الخُليجياء) تنتظر تركها له لتهجم عليه ولكن وعند محاولتها تركه شاهدت ضحكة طفولية على وجهه جعلتها ترفعه إليها من جديد وقالت:

«(ملائك) انظري إليه، أنهُ يضحك».

نظرت (ملائك) إليها بدهشه وقالت بدون النظر إلى الطفل:

«لا أحب البشر ونسلهم أرجوك دعينا نرحل».

ثُمَّ نظرت تلك الَّتي تحمله إلى جثة (ميليساء) وقالت:

«تركت عائلتها لتحميه وها هي الآن تتركه وحيدًا بين أيدينا، وكأنَّها تثق بنا لحمايته».

(ملائك) والَّتي تقذف بالرمل على أفعى (الخُليجياء) والهمس لها بهدوء لتبتعد.

«نحن لا نستطيع حماية بشري، فعداوتنا معهم تمتد لقرون طويله يا (غزل)، ثُمَّ إن والدنا الأكبر لن يرضى بما تُريدين فعله».

نظرت (غزل) إليها ثُمَّ سرعان ما بدأت في البكاء:

«لا يهمني من يكون فهو طفل في نهاية المطاف، سأربيه سرًا وعندما يشتد ساعده ويقوى على الاعتناء بنفسه سأعيده لعالمهم».

قالت (ملائك) باستسلام:

«أيعقل يا أختي أن تكوني من نسلنا، أخشى أن والدتي قد أخذتك من مكان ما.. ولكني معك مهما تريدين سأكون بجانبك».

حضنتها بكلِّ قوة ثُمَّ عادت النظر إلى (مليسياء) وقالت:

«أول شيء أريده هو دفن هذه المرأة إكراما لطفلها».

نظرت (ملائك) إلى المرأة طويلا ثُمَّ همست بكلِّمات فارتفعت حبيبات الرمل بكميات هائلة عن بقعة معينة؛ ليكون حفرة بحجم الجثة.

قالت (غزل):

«ليُعاد الرّمل للرّمل»

فتحركت الجثة بدون أن يحركها أحد إلى تلك الحفرة وغطى الرمل المكان مجددًا.

عندها نفضت (ملائك) يديها وقالت:

«انتهينا، دعينا نلحق بجماعتنا يا (غزل)»

اختفوا عن المكان في لمح البصر ليبقى خاليا فيما عدا تلك الأفعى.

قلتُ بعد صمته:

«أيعقل أن يحمل الشياطين قلبًا طيبًا ك (غزل) !»

أجاب:

«الطيبة لا تقتصر على البشر والمسلمون منهم فقط فنحن لسنا في قصَّة يحبُكها الكاتب لإبراز مساوئ الشر وتمجيد الأخيار.

سأقول لكم شيئًا ولكن لتتفكروا، الكثير ممن فعلوا ذنوبًا لا تغتفر قد ذكرها التاريخ من شدِّة شناعتها قد فعلوا الكثير من الأمور الجيدة، وبالمقابل الكثير من الأبطال فعلوا أيضًا أمورًا شنيعة. أن تنظر لأمر يلتمس نقطة محددة ب قلبك فتريد بشدِّة فعل شيء جيد له لا يُعد رمزًا لنبلك وطيبة قلبك.. والعكس أيضًا صحيح.»

قال (يوسف):

«ما استنتجته من كلامك أنَّ (غزل) قد تكره البشر كأسلافها ولكنِّها لقيت في الطفل شيئًا جعلها تحنُّ وتعطف عليه».

قال:

«كلامك صحيح ولكن لتعلم أمرا، ليس جميع الشياطين يكرهون البشر.»

سألت بعد تفكر:

«ما هو الفرق بين الجن والشياطين، فهذا السؤال دائما ما يراودني.»

قال الشَّيخ ويديه تعبثُ بسبحته المصنوعة من حجر العقيق السليماني:

«ولماذا خصصت مُسمى الشياطين ل ذوي الحرفين؟! الشيطان يا (أحمد) مجرَّد لقب لمن طغى في هذه الدُّنيا، الطغي هنا لا يعنؤ الدين فقط بل إن كثيرًا من المؤمنين لربهم يفعلون ذنوبًا تجعلهم في أعيننا شياطين.. لأُعطيكم مثالًا عن شياطين البشر. بنو القوقاع يُعدون من البشر أليس كذلك ولكنهم فعلوا الكثير من الأمور المحرمة كأكل لحوم بني جنسهم فهم بهذا الأمر أصبحوا شياطين».

هززتُ رأسي وقلتُ:

«الآن فهمتُ الفرق بين الاثنين، أشكرك على علومك الَّتي تنير عقولنا وتجعلنا ننظر إلى العالم من زوايا أكثر وضوحًا وعقلانية.»

قال (يوسف):

«كلما أستمع لك يا شيخ أغوص في بحر الأماني وأتمنى، أتمنى أن أكون بقدر علمك يوما من الأيام».

غضب الشَّيخ وقال بانفعال:

«قلتُ لكم قبلًا، لا تتمنوا أن تصبحوا مثل شخص ما وإن كان أنا، بل تمنوا أن تكونوا أنفسكم فقط وأن تغوصوا في بحر نفوسكم لتخرجوا متميزين بعيدين عن تناسخات الأرواح. في الواقع يجب عليكم أن تتيقنوا بأن وراء كلِّ شخص أسرار لو علمتم عنها لما تمنيتم أن تكونوا مثله في شيء وإن كان مثقال حفنة من التراب».

ثُمَّ قال ويداه مشغولة بأحجار العقيق في يده:

«لترحلوا الآن وسنكمل في يوم آخر»

تفرق الجميع في وجهته وأنا لا زلت أنظر إلى الشَّيخ وهو يتمتم ويعد الأحجار بعد كلِّ جملة يقولها، قلتُ له:

«لماذا تفعل هذا يا شيخ ؟»

فقال:

«أذكر الله وأسبحه وهل في ذلك شيء غريب يا (أحمد)؟»

نظرتُ إلى ما في يده وقلتُ:

«ولكن الذي نعرفه ونستحسنه أن التسبيح وتعداد ذكر الله يكو باليد أفضل وأجره أعلى.»

ترك ما يفعله ونظر إليَّ وكأنهُ يتأمَّلني ثُمَّ قال:

«أجمع الاثنين فأحيانًا أسبح بيدي وأحيانًا أخرى بهذه الأحجار المترابطة.»

ابتسمت بسخرية وقلتُ:

«لتنتبه يا شيخ، فأحجار العقيق السُليماني من أحب الأحجار للجن والشياطين.»

نظر إليَّ نظرة لا أعلم معناها ولكن وكأنَّها اخترقتني ليدُق قلبي وترجف يدي بسرعة جنونية فرحلت بلا أي كلمة.

خرجت من منزله لأشاهد (هزيم) و(يوسف) بانتظاري فذهبت إليهم وقلتُ:

«أشكركم على الانتظار رغم تأخر الوقت»

وضع (يوسف) يده خلف رقبتي وقربني إليه ثُمَّ قال:

«لا تنس أننا أصدقاء فكيف لنا ألا ننتظرك والظلام قد حلَّ في أرجاء المدينة».

قلتُ سريعًا:

«اخبراني إذًا، مالذي حدث بيننا في تلك الليلة جعلكم تحقدون عليَّ لتلك الدرجة»

نظر الاثنين لبعضهم بتعجب شديد ثُمَّ سرعان مانطق (هزيم):

«الا تذكر شيئا ممَّا حصل!»

قلتُ بإبتسامة صفراء:

«تلك الليلة بأكملها قد محيت من عقلي وكأنَّها لم تكن.»

قال (يوسف) بإنزعاج واضح ويديه تعبثُ بإحدى الاحجار المرمية بالطريق:

«لقد اهنتنا بطريقة لم نتخيلها يوما.. قلتُ اننا اغبياء نتصنع الذكاء لمجرد قبولنا من قبل الشَّيخ سالم رغم أنهُ لم يقبلنا لنأخذ دروسنا عنده سوا من باب الشفقة لا اكثر.»

نظرت بإتساع عيني نحوهم وقلتُ:

«لا يمكن أن أقول شيئًا كهذا هل تمازحني يا يوسف»

أيده هزيم واكمل عنه:

«في الواقع لقد كنت متعجرفا في تلك الليلة لدرجة شعوري أنك لا يمكن أن تكون نفس الشخص بتاتًا»

بدأت بالاعتذار مثلما فعلت مع والدي فأصبحت اعتذر مرارًا وتكرارًا على أشياء لا اتذكر منها شيئًا حتّى تم قبول اعتذاري لنعود كما كنا من قبل. الأمر في واقع الأمر مرعبًا جدًّا ففي جهة تنمحي من ذاكرتك ليلة كاملة وفي جهة أخرى لا أحد يفهمك من المقربين منك فبدلًا من التحدث عن رعبك تهم في الاعتذار لتبرير شيئ لم تفعله فقط لترضيهم.

بدأنا بالمشي مبتعدين عن منزل الشَّيخ ومبتعدين عن منازلنا أيضًا، متجاهلين تأخر الوقت وسكون المكان.

قلتُ لهم:

«لم أعد أنظر للشيخ (سالم) كنظرتي له قبلًا»

سألني (هزيم):

«ماذا تقصد؟!»

فقلتُ ونحن نسابق خطوات بعضنا بعضًا بلا أي وجهة:

«أشعر وكأنهُ يحمل في داخله سرا، وأشعر أيضًا بأنهُ ليس شيخًا من الأساس.»

توقفا الاثنان ونظرا إليَّ بتعجب وكاد (يوسف) أن يقول شيئًا ولكن صوت امرأة جعلنا نلتفت إلى مصدر الصوت:

«أتعرفون شخصًا قد تاه منا؟!»

لم أفهم ما تعنيه، ولم أكترث من الأساس لجملتها بل ما جعلني أقف مُتصنمًا بلا أي حركة هو مظهرها، فمظهرها غريب ويبعث الخوف في أنفسنا بآن واحد.

(ترتدي عباءة سوداء رثّة وشعرها الأسود المليء بالشعيرات البيضاء يتطاير في الهواء بلا أي ريح تُحرّكه، وفي يدها حجرات العقيق السُليماني كتلك الَّتي يحملها دومًا الشَّيخ (سالم)).

قال لها (يوسف):

«من أنتِ؟ لم أركِ يومًا في هذه المدينة!»

ضحكت ونظراتها لا تفارق عيني ثُمَّ كررت:

«أتعرفون شخصًا قد تاه منا».

أراد (هزيم) أن ينطق اسم الله بقوله:

«بسم الله ال...»

فاقتربت منه بسرعة البرق حتّى أصبح لا يفصل بينه وبينها إنشُ واحد وصرخت:

«اتهددني به ؟!»

علمنا وقتها من تكون، فتصنّمنا جميعنا ونحن ننظر إليها بلا أي قوة على الهرب أو النطق حتّى.

ابتسمت بخبث ثُمَّ عادت نظرها إليَّ وقالت مكررة جملتها السابقة

«أتعرفون شخصًا قد تاه مِنَّا؟»

وبعدها تركتنا ورحلت بخطوات ثابتة في نفس الطريق الذي أتينا منه، الطريق المؤدي لمنزل الشَّيخ (سالم).. لتختفي بعدها!

وكأنَّها سراب قد اندثر فلم يعد له وجود من الأساس، بل وكأن عقولنا قد اتفقت لتوهمنا بها، لا أعرف.

قال (يوسف) بتمتمة خائفة ومترددة:

«سأذهب إلى منزلي، وداعًا».

ولحقه (هزيم) في ذات اللحظة لأتجاهل رحيلهم رغم خوفي وأنظر في اتجاه المكان الذي رحلت وفي عقلي مئات التساؤلات.

بعد دقائق من انغماسي في بحر التساؤلات والخوف في آن واحد انتبهت لشيء جعل يدي ترجف وعيني تفتح على مصراعيها.

لقد بقيت وحيدًا!

فصوت السكون وظلمة المكان تثير في داخلي رُعبًا لو توزّع على أهل المدينة بأكملهم لكفاهم. ولكني رغم ذلك لم أركض بل مشيت بهدوء ناحية منزلي وعيني تنظر في جميع الاتجاهات بين الحين والآخر.

وفي كلِّ خطوة أردد قائلا، أنت رجل يا (أحمد)، أنت أكبر من ذلك.

إلى أن رأيت والدي والذي كان خارجا للبحث عني فركضتُ وضممته بكلِّ قوتي وأنا أقول:

«سعيد بأنك هنا يا والدي».

قال لي بشيء من الحدة رغم خوفه:

«لماذا لم تأتِ إلى المنزل حتّى هذا الوقت؟ ثُمَّ أخبرني ما بك خائف هكذا هل حصل لك شيء ما؟»

قلتُ بعد انتباهي بما فعلته توًا:

«لا شيء ولكني كنتُ أتجول برفقة (يوسف) و(هزيم) ولم ننتبه للوقت»

نظر إليَّ بتفحص ثُمَّ قال:

«لتذهب إلى والدتك فهي تنتظرك»

مشيت باتجاه المنزل ثُمَّ توقفتُ ونظرتُ إليه وقلتُ:

«ألن تأتي معي؟!»

قال:

«سأتجول قليلًا، اذهب يا (أحمد)»

ذهبتُ إلى منزلي لألقى والدتي تدور في المكان من شدِّة القلق وما إن شاهدتني حتّى صرخت في وجهي ثُمَّ سرعان ما ضمتني لتعبر عن خوفها علي.

بعد العديد من الأسئلة الَّتي طرحتها في آنٍ واحد وكان عليَّ لزامًا أن أجاوب عليها سألتني عن والدي:

«لقد ذهب للبحث عنك هل رأيته ؟!»

قلتُ لها:

«لقد رأيته، ولكنه طلب منِّي العودة للمنزل وسيلحق بي بعد وقت قصير»

صمتت وقالت:

«لعلّهُ خير.»

ولكن عند آخر حروف جملتها صرخ والدي بكلِّ قوته قائلًا:

«(أحمد)!»

نهضت من مقعدي ونظرتُ إلى مصدر الصوت ليظهر ويضربني بكلِّ قوة على وجهي وقال:

«أتكذب عليَّ أيها العاق؟»

لم أفهم ما يقصد ولم أستطع في ذات اللحظة الاستفسار منه فكل ما فعلته هو الاختباء وراء والدتي من شدِّة الخوف.. فوالدي لم يضربني في حياتي كلها.

حاولت والدتي الدفاع عني بقولها:

«لم نتعود على ضرب أبنائنا يا (سالم)»

وخرج إخوتي من غرفهم باكين خوفًا وهلعًا ممَّا يرونه فأنا لدي أخوان فقط بعمر الرابعة هم (عبد الله) و (عامر).

قال لي:

«كُنتُ طوال الوقت عند ذلك الساحر مدعي التدين وتوهمني بأنك لا تفعل سوى اللهو يا (أحمد)»

قلتُ بدفاع عن الشَّيخ رغم تناقض ما أشعر به داخلي:

«ولكنه شخص متدين يمتلك علما في رأسه، وأنا يا والدي أريد أن أكون صاحب علم في هذه الحياة.. لا أريد زراعة الأرض ورعي الغنم فهذه الأمور لا تُناسبني ولكل شخص فيما هوى نصيب»

أمسك بي بكلِّ قوته محاولًا جعليَّ أعود للواقع وأبتعد عن أحلام اليقظة الكاذبة:

«إن أردت العلم سأرسلك إلى كبير مدينة (العرمد) فهو أجدر باتباعه عن هذا الذي تقول عنه شيخ»

نظرت إليه بغضب ورحلت بلا أي كلمة إلى غرفتي لأغرق وجهي بتلك الوسادة وأبكي حتّى غفوت.

صحوت في اليوم التالي على صوت صراخ في الخارج فركضت إلى مصدر الصوت لأشاهد كلَّ أهل القرية مجتمعون في مركز المدينة ومنهم من يقول:

«لاحول ولا قوة إلا بالله، لقد كان طيبًا»

«كيف حصل هذا؟!»

أردت السؤال ولكن صرخة أعرف صاحبها جيِّدًا جعلتني أتخطى الجميع وأدخل بينهم..

لقد شاهدته!

ذلك المنظر الذي لو حُييت وقُتلت مئة مرة لما استطعتُ محوه.

(والدي معلق من رقبته على سور السوق المركزي بواسطة حبل طويل وعينه مفتوحة بأكملها والبياض فيها انتشر ليغطي على الدائرة السوداء فأصبحت بيضاء بالكامل).

والدتي تمسك قدمه وتصرخ:

«لماذا فعلت بنفسك وبنا هذا يا (سالم)، أتتركني محملة بثلاثة أطفال وتولّي راحلًا ؟!»

أردت الصراخ، بل أردت إنزال والدي واحتضأنهُ بكلِّ قوتي وأقول:

«لا يمكن أن يموت، لا يمكن أن يموت والدي منتحرًا»

ولكن بدلا من كلِّ ذلك لم أفعل شيء سوى النظر بوسع عيني إلى جثته والوقوف كتمثال لا يشعر. في تلك اللحظة كلِّ ما شعرت به في داخلي هو الفقد وتأنيب الضمير في ذات الوقت.

وبلا شعور سقطت دمعة من عيني لتوضح لي حقيقة الموت ومرارته.. لتوضح لطفل لم يشعر يوما بالفقدان أن الحال لا يستمر على ما تشتهيه نفسه، وأن الحياة في داخلها شيء من السواد لا بد أن يُصيبنا يومًا.

وبلا شعورٍ قد غاب عنّا الشُّعور

وغابت معه جميع الأمنيات

وتلك البسمات

ونقاء الرُّوح

فأصبحنا جسدًا خاويًا

نهيمُ في ذات المكان

منتظرين شيئًا واحدًا فقط

الخلاص

سنوات رحلت على أثر والدي وكأنَّها تُحاول جاهدة أن تُغطي ذكرياته في عقولنا، قد تكون نجحت مع إخوتي (عبد الله) و(عامر) ذلك ف عاشوا حياتهم بكلِّ يسر.

وقد تكون نجحت مع والدتي الَّتي خرجت من حزنها سريعا لتنهي الحداد بقولها:

«وما الأموات كالأحياء»

فشمَّرت عن ساعديها لتقوم بعمل الرجال من زراعة وحصاد..

أما عنى أنا !

لا أعلم، ولكني بقيت بنفس النقطة الَّتي نظرت بها إليه، كبرت كثيرًا وأصبحتُ في عمر الثامنة عشرة ولكن وكأنني طفل لم يستطع إخراج نفسه من دائرة الألم.

فقدان شخص مخلوط بتأنيب الضمير يجعلني أود قتل نفسي مئات المرات لعل الثقب في داخلي يلتأم.

أتعلمون شيئًا!

لم أكن يومًا ذا خُلقِ حسن مع والدي لظني بأن العمر الذي يجمعنا سويًا سيطول كثيرًا.. كثيرًا جدًّا.

ولكن، ليست جميع الأقدار تأتي على أهوائنا.

فالموت يأتي شعورنا بالبعد عنه كبعد ذات السلاسل عن أرضنا ولكن.. لا شيء يستطيع الابتعاد عن الموت.

تتعدد القصص والطرق حول كيفية أخذه لأرواحنا ولكننا جميعًا نترك جسدنا في نهاية المطاف ونرحل إلى عالم غير معلوم لنا.

ظللت أفكر كثيرًا في حال هذه الدُّنيا وأنظر لكلِّ من فيها برثاء شديد، وكأنني لم أعد معهم في نفس المكان.. بل وكأني أنظر إليهم من خلف نافذة في بُعد آخر.

أيعقل أن موت والدي (سالم) فعل بي كلِّ ذلك!

أيعقل أن الحياة لا طعم لها عند فقدان أحب البشر إلى قلوبنا.

لا أعلم ولكني لم أعد أتلذذ بهذه الحياة وأدعو الله مرارًا أن يأخذني بجواره سريعًا.

قطع عليَّ تفكيري صوت أمي وهي تقول:

«لتخرج وتختلط بالنَّاس يا (أحمد) فبقاؤك في المنزل هو السبب الرئيسي لاكتئابك»

نظرتُ إليها بحقد وقلتُ:

«أتريدين منِّي نسيان والدي والاختلاط مع نفس النَّاس الذين يتضاحكون عند تذكر طريقة موته يا أمي !»

قالت بحزن رغم ابتسامتها:

«لاتكن حقودًا يا ولدي الأمر فقط أنهم لم يتعودوا أن يقتل رجل نفسه.»

قلتُ بكلِّ برود وابتسامة ساخرة في وجهي:

«صحيح سأعذرهم؛ لأنهم لم يتعودوا على الأمر، ولكن هل أعذرهم عندما قرروا عدم رثاء والدي ودفنه ؟!»

صمتت ف أكملتُ:

«أنسيتِ من دفن والدي! الشَّيخ (سالم).. ذلك الذي قال الجميع عنه بأنهُ ساحر لا يخاف الله ولكن ما شاهدته عيناي عكس ذلك!»

نظرت إليَّ بأسى وقالت:

«أدعو الله أن يرشدك إلى الصواب»

وخرجت من المنزل لتعود لعملها في المزرعة بمساعدة إخوتي.

لم أعر كلامها أي اهتمام فقلبي لم يعد يحمل في داخله، سوى الحقد الدفين على سكان هذه المدينة بما فيهم أصدقائي (هزيم) و(يوسف).

ظللت على حالي متقوقعا فلم يعد لي أي أصدقاء، في بداية الحادثة كان (هزيم) و(يوسف) يتناوبون على قرع باب غرفتي فأتجاهلهم

وبعد يأسهم منّي ظلوا يأتون كلّ أسبوع وبعد وقت طويل من ذلك أصبحوا يأتوني كلّ شهر، حتّى غاب كلّ منهم عن منزلي فلم أعد أعلم عنهم سوى ما يخبراني به إخوتي (عامر) و (عبد الله) كلّ حين.

(يوسف) رحل لطلب العلم في المدينة المجاورة الَّتي تبعد عنه عشرة أيام سيرًا على الأقدام بعد منع والده له أن يحضر دروس الشَّيخ (أسامة)، و(هزيم) رحل لعلاج والدته من المس الشيطاني الذي أصابها قبل سنتين إلى إحدى الشيوخ في قرية نائية تبعد عنا مسافة أربعة عشر يومًا.

جميعهم رحلوا عن القرية لغاية، فمنهم من شغفه العلم عشقًا فظل يبحث عنه ويُفني عمره ومنهم من جُبر على الرحيل لأجل أحب الخلق لقلبه.

أتذكر قبل عدة أشهر عندما جاءني (يوسف) وظل يتحدث من وراء الباب كعادته عن عزمه على الرحيل بقوله:

«لنرحل سويًا أنا وأنت لتزويد عقلنا وتطويره يا (أحمد)، أليس هذا ما كنت تتمناه قبلًا! ثُمَّ إن والدتك قالت لي بأنَّها موافقة على رحيلك معي لتفخر بك في المستقبل.»

تجاهلته كعادتي فقال بيأس:

«سأرحل بعد يومين إلى المدينة المجاورة تحديدا إلى منزل الشَّيخ إبراهيم، إن أردت المجيء معي سأنتظرك عند الشجرة الَّتي كنا نلتقي عندها قبلًا حتّى الغروب وبعدها، وداعًا يا صديقي».

اختفى الصوت فعلمت بأنهُ رحل ومرت اليومين وصوت أمي يرجوني على اللحاق به ولكني لم أفعل فرحل (يوسف) ولم أُعطه حق وداعه.

وبعدها بعدة أسابيع سمعت صوت (هزيم) وهو يودعني بقوله:

«سأرحل مع والدتي للعلاج فأنت تعلم يا (أحمد) أن مسًّا شيطانيًّا أصابها، وددت لو أستطيع رؤية وجهك قبل الرحيل ولكني أعلم بأنك لن تحقق ما أريده، أرجوك يا (أحمد) اهتم بنفسك وتجاوز مرحلة الحزن فالحزن داء ينهش جسدنا رويدًا رويدًا حتّى لا نستطيع الخروج منه.»

رحل (هزيم) ولم أعطه حقه في الوداع أيضًا فظللت وحيدًا رغم امتلاء النَّاس في مدينتنا، ظللت وحيدًا رغم قرب إخوتي ووالدتي.

ظللت وحيدًا رغم تعدد الأرواح من حولي، فأنا لم أعد أشعر بأي شخص وكأنني في عالم مظلم كئيب ولا وجود للناس فيه سواي.

مرت سنوات طويلة جدًّا على حالي وأصبح عمري ثلاثين سنة، في الواقع لا أعلم بهذه اللحظة لماذا أصبح حالي هكذا؟ فأنا لم أعد أذكر الكثير ممَّا حصل ولكن شيء في داخلي يبث لي الكره تجاه هذه المدينة وساكنيها وتلك الفتاة الَّتي أراها كلّ ليلة أصبحت تتضح لي بطريقة تثبت لعقلي عكس ما كان يخبرني به.

كنت أتوقعها من نسج خيالي ولكنّها أصبحت أكثر اتضاحًا لي، كانت تأتيني كلّ حين فتظل تنظر لي وتختفي ولكنّها اليوم أصبحت تلازمني

بكلِّ وقتي حتّى قلتُ لها بعد محاولتي انتزاع الخوف من داخلي فالتحدث مع كائن لا تعلم عنه شيئًا بل لا تعلم من الأساس هل هو حقيقي أم أنَّ مرضًا في داخلك قد صنعه يثير الخوف في عقلك.

«مَن أَنتِ؟!»

ابتسمت وأزالت الشعر الساقط على وجهها وقالت:

«(ملائك)»

في ذات اللحظة تذكرت تلك القصَّة الَّتي قالها لنا الشَّيخ (سالم) قبل سبعة عشر سنة عن إحدى الشخصيات فيها وتدعى (ملائك)!

قلتُ بعد دقائق معدودة وخيالي ذهب للماضي بينما أسمها يتردد في عقلي

«(ملائك)، (ملائك).. اسمي (ملائك)»

نظرت في نفس البقعة الَّتي كانت بها ولكنَّها اختفت!

تجاهلت ما حدث فأنا لم أعد طفلًا كالسابق فهذه الأمور أصبحت أمرًا طبيعيًا بالنسبة لي ولكن صوتها عاد للظهور في عقلي.

«أنت مستعد يا (أحمد)»

ضحكت بسخرية ممَّا أصابني وقلتُ لنفسي:

«أهذا الجنون الذي يقولون عنه؟»

همست لي بنفس النبرة:

«الجنون نوع من أنواع المعرفة الَّتي لا يستطيع استيعابها العقل فيُعلن الحداد عن نفسه، ألم تقل قبلًا بأنك تود معرفة ما يدور تحت السَّماء، لتُسايرني وصدقني يا (أحمد) سأصنع منك شخصًا آخر.»

قلتُ بسخرية:

«حقًا! أتقولين إنَّ الجنون نوع من أنواع المعرفة؟!»

في الواقع لم أعد أتوق للمعرفة بل إني أتوق توقا لراحة روحي الَّتي تموت ببطء فإن أردتِ منِّي أن أسايرك لتجعليني أعود كما كنتُ في صغري»

لم أسمع صوتها في داخلي فأكملت:

«إن كان صعبا عليكِ إذًا لتأخذي روحي إلى خالقها»

ظهرت نفس الفتاة ولكنَّها لم تنظر إليَّ بل نظرت باتجاه الباب وبحركة واحدة من يدها فُتح الباب بأكمله وقالت:

«يجب عليك أن تفعل أول خطوة للنهوض فأنا لا أستطيع فعلها عنك، ثُمَّ نظرت إلى عيني نظرة حادة مخيفة وهمست لي.. انهض يا (أحمد)»

حاولت كثيرًا النهوض من مكاني ولكن وكأنَّ جبلًا مزروعًا فوقي. بدأ اليأس يدب في فعادت ما قالته:

«انهض يا (أحمد)، لا أحد يستطيع تحريرك ممَّا أنت فيه إن لم تستطع أن تقوم بخطوتك الأولى.»

بعد عناء نهضت ولكني شعرتُ عند نهوضي وكأنَّ شيئًا يُحركني نحو الباب بلا حول منِّي ولا قوة فنظرت إليها بلا فهم عندها همست لي:

«الآن أستطيع مساعدتك.»

تحركت بي أقدامي نحو غرفة والدتي وإخوتي الذين أصبحوا يتشاركون معها غرفتها بحجة أن هنالك ما يخيفهم في غرفتنا.

كنتُ أقول في داخلي عند سماع حججهم:

«هم لا يريدون البقاء معي، وما الذي يقولونه ليس سوى حجة واهية لتغطية ما يشعرون به تجاهي»

ولكني الآن أصدقهم فهذه المرأة لا يمكن أن تكون سوى (من ذوي الحرفين)

ذوي الحرفين !

دائمًا ماكنتُ أفكر لماذا خلقنا لهم هذا المسمى رغم شهرة اسمهم بالنسبة لنا (الجن) وها أنا أعيد السؤال لنفسي مجددًا وكأنني أحاول

بذلك جلب الفضول لنفسي الَّتي قد طفأ نور شوقها لهذه الحياة وما فيها منذُ سنين طوال.

أيكون بسبب الخوف من حضورهم عند النطق باسمهم مباشرة أو جعل الأمر أكثر غموضًا وشوقا لمتُلقي القصص الَّتي تتحدث عنهم.

فجاوبني صوت يلازمني منذُ سنوات طوال بكلمة واحدة:

«الفضول»

علمتُ أنها هي (ملائك) وعلمتُ أيضًا أن هذه المخلوقة أيًّا تكن سواء من خلق عقلي أو من خلق الله تعالى تعلم ما يدور في داخلي وما أناقش به نفسي.

تجاهلتُ ما قالته محاولة منِّي أن ترحل ولكنَّها ظلَّتْ بجانبي رغم أني لم أعد أشاهدها.. كيف أعلم بذلك!

لا أدري ولكن دائمًا ما أؤمن بهذا الأمر، يستطيع الإنسان الشعور بما يدور حوله وإن كان خفيا، قد لا يستطيع معرفته تفصيليًّا ولكنه يستطيع معرفة أن هنالك شيئًا ما بجانبه وإن تراه عيناه.

مشيت باتجاه والدتي الَّتي لم يكن يغطيها شيء نظرًا إلى حالتها المادية السيئة فقفزت إلى غرفتي لأخذ اللحاف الخاص بي وأردت تغطيتها به ولكن صوت قال لي:

«لا تفعل»

ظننت أنهُ من عقلي كعادتي فتجاهلته ولكن يدًا قوية دفعتني للخلف بقوَّة فشاهدتُ أخي (عبد الله) والذي كان ينظر إليَّ بكلِّ غضب وقال:

«قلتُ لك لا تفعل»

نظرتُ إليه بصدمة ممَّا فعله فشيء مخجل أن يدفعك من هو أصغر منك سنًّا وبلا أي سبب يذكر..

نهضت والدتي وأخي (عامر) وعيناهما تدور بيننا بلا فهم لما يحدث.

فقال (عامر):

«ما الذي يحدث ؟!»

ابتسمت بسخرية وقلتُ:

«لتخبرهم»

تجاهل الجميع وقال:

«لا تلمس والدتي ولا تضع شيئًا يخصك في جسدها أتفهم!»

نظرتُ إليه بلا فهم وقلتُ بانكسار:

«لِمَ؟!»

قال بغضب:

«لأنك ممتلئ بالشياطين ولا نريد لوالدتنا الضُّرَّ منك وممن يقبعون بتلك الغرفة معك».

نظرتُ إلى والدتي والَّتي أشاحت بوجهها عني وبدأت بالبكاء، فنظرتُ إلى (عامر)؛ لأفهم شيئًا ممَّا يحدث فقال:

«اذهب يا (أحمد) إلى غرفتك فنحن لا نريد لهم الانتشار في المكان.»

ابتسمت وقلتُ:

«لِم لم تقولوا ذلك؟ أنكم لا تريدونني.. لو قلتُم ما سمعته اليوم قبلًا لابتعدت»

حاولت والدتي الاقتراب منِّي ولكنهم منعوها فذهبت كما أمروني ولكن ليس إلى غرفتي بل إلى خارج المنزل.

مشيتُ في الظلام وأنا أنظر لهذه المدينة الَّتي تركتها منذُ زمن لأجل عزلتي. تغير الكثير بها ما عدا منزلنا فأصبحنا بعد أن كنا الأغنى فيها من أفقر الأسر. منزلنا المتهالك الذي لم يتغير به شيء وحياتنا البسيطة على عكسها تمامًا يعيش السكان في مدينتنا.

ولا أعلم ما هو السبب لذلك!

أيعقل أن والدتي وإخوتي لم يستطيعوا عمل شيء في حياتهم رغم تعبهم في المزرعة كلِّ يوم فهم يذهبون سويًا عند طلوت الشمس ويعودون عند غروبها وعلى وجوههم آثار الكد والتعب.

شعرتُ بالأسى لهم ولكن ذلك الصوت يُعيد سمومه في داخلي بقوله:

«لا يستحقون منك عطفًا، أتعلم يا (أحمد) بأنهم كلِّ ليلة يتهامسون فيما بينهم بأنك مصدر عار بالنسبة لهم ولا يفتخرون بك بتاتًا»

صرخت بأقصى ما أستطيع من قوة وضربتُ رأسي بجدار إحدى المنازل لأبعد وسوسة صوتها عني ولكن ضحكاتها بدأت بالظهور وقالت:

«لا تستطيع الخلاص مني، فأنا كالقرين معك لن تتخلص منِّي يا (أحمد) فقدرك معي.»

مشيت كالميت العائد إلى الحياة، لا رغبة لي بها ولكن شيئًا ما يدفعني للتمسك بها بكلتا يدي. تلك الأقدام الَّتي تسابق الرِّيح وكأنَّها تريد أخذي لمكان ما.

وعيني الذابلة والَّتي تنظر للأمام وكأنَّها تترقب شيئًا يُعيد لها الحياة، أتعلمون أمرًا؟!

الموت في داخل جسدك مُخيف أكثر من الموت نفسه، أن تغرق في داخلك حتّى لا تعد تعلم لماذا غرقت؟ وتنعزل عن البشر رغم عدم معرفتك سبب عزلتك.

أيكون فقدان والدي هو السبب بكلِّ ذلك.. لا أعتقد، هنالك أمر ما، أمر خفي لا أستطيع تذكره يكون السبب بكلِّ ذلك ما هو، لا أذكر!

توقفت قدماي عن السير لأعود بتفكيري نحو ما يدور حولي الآن، في وسط المقبرة.. بالتحديد عند القبر الذي حفرته بنفسي منذُ سبعة عشر سنة، قبر والدي!

ولكن هنالك طفل يبكي ويحتضن تربات القبر بكلِّ قوة، نظرتُ إليه وعقلي يُحاول بشتى الطرق استنتاج طفل من هذا ولماذا يبكي هنا؟ ولكن كلِّ محاولاتي باءت بالفشل الذريـع!

همست بصوت خافت متعثر:

«هل أنت تائه يا بني ؟!»

لم يجب ولكن صوت بكائه المستمر يخبرني بأن صوتي لم يتجاوز مسامعه. اقتربت بكلِّ بطء نحوه وعيني تحاول معرفة شيء عنه.. ولكني توقفت.

هنالك أمر غريب !

الألعاب المتناثرة في المكان، تعود لي !

لقد كانت من صنع والدتي، أتذكر جيِّدًا.. هي ملكي.

كيف لهذا الطفل أن يمتلك هذه الألعاب.. وهذا الرداء قد كان ملكي!

بل.. بل هذا الجسد بأكمله ملك لي!

نظرت باتساع عيني وقدماي تُريد بكلِّ قوتها الرجوع، تريد الهرب وكأنَّها تخاف عليَّ من صدمة ما سوف أشاهده.

ولكن ذلك الصوت اللعين عاد ليُلقي بكلِّماته على مسامعي:

«أتريد معرفة سبب انعزالك يا (أحمد)؟»

تحركت يدي ناحية الطفل وكأن شخصا آخر يحركها وقالت لي:

«ذلك الطفل سوف يخبرك»

تحركت قدمي مجددًا بلا إرادة منِّي متجهة إلى ذلك الطفل المتلبس بجسدي وجلست بجانبه ثُمَّ وضعت يدي رغم خوفي وتردُّدي على ظهره وربت عليها وأنا أقول:

«هوّن عليك يا بني، كلِّ شيء يحدث لنا بقدر والأقدار سهام تصيبنا ولا تخطئنا»

لم أقل هذا الكلام !

بل وكأن شخصا آخر التبس بجسدي وقالها عوضًا عني، لقد كان الصوت مألوفًا، وكأنني قد سمعته في وقت ما.. لا أذكر !

صرخت بكلِّ قوتي:

«أتركوني، فأنا لم أعد أحتمل هذا الجنون الذي يُصيبني»

ولكن ذلك الفتى توقف عن البكاء ونظر إليَّ رغم امتلاء عينيه بالدموع وقال:

«لقد شاهدتُ كلَّ شيء يا شيخي، سألحق بوالدي قريبًا»

عجز لساني عن النطق، فأصبحت كالصنم تمامًا رغم دقات قلبي المتسارعة. شعور غريب لا أستطيع وصفه لكم من خلال هذه الأوراق، فمشاهدة نفسك لنفسك أمر يجعلك على مشارف الجنون.

عن أي جنون أتحدث !

من الأساس أنت في قعر الجنون يا (أحمد).

عاد الصوت من جديد ليقول له:

«أنت المختار، المختار لا يموت إلا عندما يرغب بذلك.»

لم أفهم شيئًا ولكن كلّ شيء اختفى لأشاهد نفسي وحيدًا في المكان ما عدا تلك الألعاب المتناثرة هنا وهناك فأمسكت بواحدة منهم وهمست لنفسي وكأنني أحادثها.

«شيء ما قد حدث سابقًا، لا بد لي من معرفته»

بعد انتهائي من جملتي سمعت صوتًا من خلفي لرجل يقول:

«(أحمد)، هل أنت بخير؟!»

نظرت للوراء لأشاهد جدِّي وقد كساه العمر عمرًا آخر فضممته بكلِّ قوة وقلتُ:

«لقد اشتقت إليك، ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

فقال وعيناه على قبر والدي:

«أتاني الذي أتاك يا (أحمد) فالحنين إلى الراحلين يدفعنا للبحث عنهم وإن كانوا تحت التراب.»

جلس بجانب القبر فجلست بجانبه عندها قال:

«منذ زمن لم أشاهدك خارجًا، ما الذي تغير الآن؟»

ابتسمت ابتسامة صفراء وقلتُ:

«الشوق إلى الحياة رغم اليأس منها»

أمسك بحفنة من التراب وبدأ بنثرها على القبر وقال:

«جميعنا متعبون من هذه الحياة، ولكل شخص منا قصَّة تُثير الحزن في داخله وتجعله يرغب بالهرب عاجلا غير آجل ولكن وجودنا بهذه الأرض لا يجب أن يكون بلا أي هدف، منتظرون الموت على أعتاب الحياة.. الموت آتٍ لا محالة وسواء كنا منعزلين أو منغمسين في ملذات الحياة سيعثر علينا يومًا، لذلك لا تبق كما أنت بل أصنع بصمة فكثيرًا ممن عاشوا في هذه الأرض تركوا التناسخ لا أكثر.

كن متميزًا يا (أحمد)، اتبع شغفك واترك الحزن جانبًا فالحزن مرضُ يقتل صاحبه ببطء حتّى ينهيه تمامًا»

وكأن كلماته قد انتشلتني من حزني، بل وكأن سحرًا قد سُكب على قلبي ليُعيد له الحياة بعد مماته، الموت آت لا محالة فلماذا ننتظره؟!

لماذا لانخلق فرقًا؟

«لماذا لانخلق فرقًا؟! لماذا لا تخلق فرقًا في حياتك يا (أحمد)؟!»

لقد عاد صوتها مجددًا في داخلي فهززتُ رأسي لأمنع صوتها من الظهور ثانية وهمست:

«لا بد أن الحزن فيَّ قد صنع شخصيات لا أصل لها»

ابتسم جدِّي وقال:

«أو قد يكون سببًا في جلبها إليك»

لم أفهم ما يعنيه ولكن وقبل أن أسأل شيئًا نهض من مكأنهُ وابتعد بخطواته عني، قلتُ له بعد أن وقفت لأتبعه:

«سأوصلك يا جدي»

فحرك يديه لي بدون أن ينظر إلي وقال:

«ارحل بسلام يا (أحمد) فجدك يعرف أين مقصده»

أردت الاعتراض وخصوصًا أنَّ الليل في منتصفه ولكنه اختفى وكأن الظلام قد ابتلعه، بل وكأنهُ لم يكن له وجود في المكان.

ولكني لم أعطِ لنفسي الكثير من الوقت للتفكير فقد تحركت أنا أيضًا ناحية منزلي ففي هذا الوقت لا يُستحب الخروج أنا أعلم ذلك الشياطين تتجوّل في الليل لتعلن للبشر أن هذا الوقت ملك لها. وكأن اتفاقًا بيننا وبينهم نصَّ على:

(النهار لبني آدم والظلام لبني سومياء)

اتفاقًا لا ضرر فيه ولكننا عادة ما نخلف بالعهد كحالَّتي الآن وكحال جدِّي (حسين)..

رغم خوفنا من الظلام وتبعاته إلا أننا لا نستطيع الخلو مع أنفسنا إلا فيه فنتجول رغم الخوف في ثبات وتتحرك عقولنا لتُناقش لنا أحداث حياتنا.

وصلت إلى منزلي، وأردتُ فتح الباب ولكني تذكَّرتُ ما حدث مع إخوتي وأمي فأبعدت يدي ومشيت مبتعدًا ناحية الشجرة، تلك الشجرة الَّتي شهدت العديد من القصص بيني وبين اصدقائي (يوسف) و(هزيم).

تُرى كيف أحوالهم وأين قذفت بهم الحياة يا تُرى ف(يوسف) لم يعد منذُ رحيله قبل اثنتي عشرة سنة و(هزيم) أصبح رحالًا بعد موت والدته على يد الشياطين في جسدها، فرحل مبتعدًا عن كلِّ بقعة تُذكره بها.

يا لغرابة الحياة، للجميع قصَّة يجهل تفاصيلها الآخر وينظر لها من زاوية عالية فلا يعلم ما هو المؤلم فيها وما هو المفرح غير الخارج منها لا أكثر.

نظرت بعد وصولي للشجرة والَّتي أصبحت جرداء قاحلة، وكأنَّها بتجردها من أوراقها تعلن للجميع حزنها على الراحلين.

ابتسمت ابتسامة صفراء وأمسكت بيدي الاثنتين جذورها ثُمَّ وبدون شعور بدأت بالبكاء كالأطفال تمامًا.

شيء مخجل أليس كذلك!

شعري الأبيض والذي يُحارب السواد ليطغى لم يمنعني من البكاء كطفل لم يتجاوز الثامنة من عمره.

وكأن الرِّيح توقف فأصبح السكون مُخيمًا ليعطيني المجال الإخراج حزني على الملأ..

أي ملأ!

قد يكون الرِّيح والأعشاب والأشجار وأنوار النجوم وظلام المكان فجميعهم ينصتون لي، جميعهم يودون أن أفرغ ما في جعبتي من سواد، جميعهم يُساندونني كالإخوة تمامًا.

صوت في داخلي بدأت أعتاد عليه قال لي بعد خروجي من نوبة البكاء الَّتي أصابتني:

اسأل الأشجار يا (أحمد)
كم من قصص قد مرت
وكم من دروب قد هجعت
وكم من دمعة تائه قد نبتت
لأجلها مئات الشجيرات

لتسأل النجوم يا (أحمد)
ماذا فعل العاجز في وكره
وماذا فعل الداعي في بحره
وماذا فعلت أقدارنا لأجلنا
ملايين المُعجزات

لتسأل مخلوقات الله أجمع وسترى
قصصًا لم ترَوَ يومًا
ولم تخطر على عقل بشر
ولم يستنتجها راوٍ ولا شاعر
في عمق الفكر..
فقط اسأل!
بقيت مندهشًا وعيني مفتوحة بأكملها ثُمَّ وبلا شعور همست:
«أريني نفسك يا (ملائك)؟»

فخرجت نفس الفتاة، شعرها الأسود الكثيف يغطي اقدامها وعينيها ذوات الشق في الأطراف وشفتيها حمراء وكأنَّها قد شربت كأسًا من

الدم قبل مجيئها، لم تكن جميلة أبدًا بل كانت تبعث لنفسي الخوف.

ولكني لم أترك الخوف يمتلكني بتلك اللحظة فقلتُ:

«ألا تستطيعين تغيير شكلك ليناسب بشريًّا ؟!»

ابتسمت وقالت:

«أكثر الأشياء الَّتي أكرهها في حياتي، أن يغير شخص من مستوى شكله ليعجب شخصًا أقل منه في جميع الأشياء»

قلتُ بسخرية:

«من تكونين يا (ملائك)؟!»

قالت بنفس نبره السخرية:

«لتتذكر، تذكر تلك القصص الَّتي قصها عليكم شيخكم المزعوم!»

عندها وكأن الذاكرة بأكملها قد عادت إلي لأتذكر قصَّة (ميليساء) وابنها مع (غزل) و(ملائك)، شياطين الجن !

قلتُ بتوتر:

«أتعنين أنكِ أنتِ (ملائك) في قصَّة الشَّيخ !»

قالت:

«صحيح أنا (ملائك)، ولكنه ليس بشيخ بل هو أداة أحركها متى ما أردت وكيفما أردت، لم يكن شيخًا أبدًا!

وهل يتوالف الشَّيخ المؤمن مع الشيطان!»

قلتُ لها رغم أني لا أعلم من الأساس كيف لم أخف منها:

«تعترفين بأنكِ شيطان رغم أن الشياطين لا يعترفون بذلك، فالشيطان يعني الشخص الفاجر الخاطئ البعيد عن كلِّ ما يكون فالشيطان يعني صحيحًا.»

قالت بعد جلوسها:

«ومن قال لك أننا لا نعرف ذلك! نحن نعرف بكلِّ هذا ولكن هنالك الكثير ممَّا تجهله أيها البشري عنا. فنحن أصحاب مبدأ وكبرياء لا نترك الأمر الذي بدأناه وإن تيقنا بخطئه».

قلتُ لها:

«أنتم أصحاب غرور وكبر لا أكثر، والكبر والغرور أمران يقتلان صاحبهما في نهاية الأمر».

قالت لي:

«جميعنا راحلون للموت بأقدامنا، فالموت شيء اساسي لا مفر عنه.

ثُمَّ أكملت:

«ارحل إلى عائلتك، فوالدتك وأخواك يبحثان عنك.»

نظرتُ للمدينة رغم الظَّلام وقلتُ متجاهلا ما قالته:

«لماذا أنتِ بداخلي دومًا؟!»

ولكن عند نظري للمكان الذي كانت فيه لم أشاهد أي شخص وبتلك اللحظة بالذات شعرت بأن الخوف الذي وجب أن يأتي في قدومها قد جاء الآن.

فركضت وأنا أتلفت في جميع الاتجاهات خوفًا من ظهورها مرة أخرى ولساني لا يتوقَّف عن ذكر الله تعالى والتعوذ من شياطين الجن:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أعوذ...»

ارتطمت بشخص فخرجت من داخلي صرخة نتيجة ألم برأسي وعندما نظرت إليه، شاهدت أخي (عبد الله) فقلتُ:

«ألا ترى؟!»

قال متجاهلًا كلامي:

«أين كنت، لقد كنا نبحث عنك منذُ ساعات طوال»

قلتُ بغضب:

«طلبتم منِّي الابتعاد والآن تبحثون عني»

نظر إليَّ بتأمل وقال:

«لاحول ولا قوة إلا بالله، تعال يا (أحمد) فوالدتي خائفة عليك ولنتناقش في المنزل»

جاء (عامر) وقال ل (عبد الله):

«الحمد لله أنك وجدته»

نظرت إليهم بغضب ثُمَّ تجاهلتهما وذهبت لمنزلي لأشاهد والدتي تدور في المكان و وعند رؤيتي قامت بضمي بكلِّ قوة وهي تبكي وتقول:

«بحثت عنك ولم أجدك، لقد ظننت أنهم أخذوك، الحمد لله الحمد لله على عثورنا عليك»

لم أعد أفهم شيئًا فقلتُ:

«ما بكم أنتم؟ مرة تطلبون منِّي الابتعاد مرة أخرى تبحثون عني!»

قال (عامر):

«لم نكن نحن!»

فقلتُ ساخرًا:

«من إذًا؟»

أمسكت والدتي بيدي وجرتني إلى إحدى الأرائك وقالت:

«اجلس يا (أحمد) سأُخبرك بكلِّ شيء»

حاول (عبد الله) منعها بقوله:

«ليس مستعدا لذلك ثُمَّ إنهم معه!»

قالت:

«واثقة بأن ابني أقوى منهم جميعًا وسيتفهم ما أقوله له وإن كانوا بجانبه الآن»

بدأ التوتر ينساب في داخلي فقلتُ:

« أخبروني كلِّ شيء يحدث سأستمع لكم»

جلست والدتي بجانبي وتبعها إخوتي ثُمَّ قالت:

«منذُ سبع عشرة سنة وعند وفاة والدك، ظن الجميع أنهُ قد قتل نفسه فلم يرضى أي شخص أن يدفنه فقتل النفس يُعد كفرًا باعتقاد الجميع هنا، حاولت سحبه ودفنه بنفسي فطلبت منك أن تساعدني ولكنك كنت غارقًا بالبكاء.. قلتُ لك بحزم:

«لتصنع هذا المعروف لوالدك إن كنت تحبه فتركه هكذا يُعد إهانة له»

فنهضت رغم حزنك وساعدتني ولكن نحن الاثنين لم نستطع، سرعان ما خارت قوانا..

ترجَّيتُ الجميع أن يقوموا بمساعدتي ولكن الجميع أغلق أبوابه في وجوهنا وقالوا:

«اعذرينا دفن المنتحر يُعد ذنبًا»

لم يساعدنا سوى الشَّيخ (سالم) أو هذا ما كنا نعتقده وقتها، أتى إلينا وقال:

«الإنسان وإن أخطأ في حق نفسه يجب أن يُكرم بالدفن وحسابه عند الله، أقل من أن نحاسبه»

أردتُ منعه من لمس زوجي ولكن هو الوحيد الذي قدم لنا يد المساعدة يا (أحمد)، شاهدتُ نظرة الامتنان في وجهك تجاهه وعندما طلب منك مساعدته في حمل والدك وكان قوة غريبة ظهرت من خلال جسدك فحملت والدك بنفسك !!

لم أكن أستطيع التصديق أن طفلًا في عمر الثالثة عشرة يستطيع حمل شخص أكبر منه بكثير ولكن هذا ما حدث وقتها.

حضرت حفرة أنت والشَّيخ (سالم) لأجل جثة والدك ولكن في كلِّ حفرة تنتهون من حفرها تجدون أفعى سوداء ملتفة حول المكان وتنظر للجثة بشوق.

قال الشَّيخ (سالم) بعد أن حفرتم سبع حفر والحال كما هو ففي كلِّ حفرة هنالك أفعى تنتظر:

«يجب علينا أن نضعه في إحدى تلك الحفر»

صرخت با(أحمد) معترضًا:

«لن أضع والدي في حفرة مع أفعى»

قال الشَّيخ (سالم) بعد أن جلس معك بالطول:

«نحن نستطيع حماية أحبائنا في هذه الدُّنيا مادام الرب راضيًا عن ذلك ولكن في القبر وما بعد القبر، لا نستطيع ذلك يا (أحمد)، فكل شخص يحصد ما عمل.»

قلتُ بغضب بعد أن دفعته بكلِّ قوتك ليسقط أرضًا:

«أنا أعلم، أعلم جدًّا أنك لست سوى ساحر كاذب.. أنت كما قال والدي قبلًا تأخذ من الدين ما توافق عليه شياطينك وتدمجها بالأكاذيب، أنت أصغر من أن تكون شيخ دين يُقتدى به»

وَجْهُ الشَّيخ (سالم) أو الدجال (سالم) أصبح أحمرَ مُخيفًا وعيناه تحولت بالكامل للسواد فأمسكت بك بكلِّ قوة لحمايتك وقلتُ:

«أعوذ بالله من الش...».

خرج صوت ضحكات امرأة من فمه وقال:

« لا تحاولي، فهذا المكان ملك للشياطين الذين تتعوذون منهم في كلِّ صلاة»

وأشار بيده إليك وقال:

«وابنك سيكون ملكًا لنا أيضًا»

أصبحت أتعوذ من الشياطين بأعلى صوت:

«أعوذ بالله من الشياطين، أعوذ بالله منكم، الله معنا، الله يسمعنا، الله يحمينا، أعوذ بالله من الشياطين ومن الدجالين الكاذبين.»

اقترب منِّي بسرعة البرق وقال:

«لا تتعوّذي، سيكون ولدك مشعوذًا دجّالًا يخدمنا، سيكون... قريبًا جدًّا سيكون»

واختفى بلمح البصر وتلك الأفاعي أيضًا اختفت، لم أستطع النطق فعيني ظلَّتْ تنظر للمكان الذي كان فيه بكلِّ رعب وخوف.

خوفًا ممَّا حدث فأنا لم أشاهد شيئًا كهذا يومًا وخوفًا عليك فتهديده واضح، والسحرة لا يتكلمون إلا بأمر شياطينهم وتلك الشياطين لا تكذب في تحذيراتها أبدًا.

قلتُ لي:

«لندفن جثة والدي الآن»

فقلتُ لك:

«لا، لن نضعه في إحدى هذه الحفر بل سنحفر حفرة أخرى بعيدة كلِّ البعد عن هذا المكان.»

سحبنا والدك مجددًا إلى مكان آخر وحفرتُ أنا وأنت بكلِّ كد وجهد حتّى صنعنا قبرًا ملائما له وخاليا من الثعابين ثُمَّ وضعناه بها وصلينا أمام القبر ثُمَّ تركناه وكأننا تركنا قطعة من قلوبنا وذهبنا للمنزل.. أتذكر !»

أمسكت برأسي وقلتُ:

«لا أذكر أي من هذا، كلِّ ما أذكره أن الشَّيخ (سالم) هو من ساعدنا وحفر لنا حفرة ووضعنا والدي بها»

فابتسمت والدتي ابتسامه صفراء وقالت:

«قلتُ لك، هم يتحكمون بعقلك الآن وفي كلِّ سنة تكبر بها يصبح تحكمهم بك أكبر.. يجعلونك تشاهد ما يريدون لك أن تشاهده ويمحون من ذاكرتك ما لا يريدونك تذكره.»

قلتُ لوالدتي بعد وقت من التفكير فيما تقوله:

«أحقيقة هذه ؟!»

قالت وعيناها تذرف الدمع:

«لم أكذب في حياتي يومًا لتقول لي هذا الكلام»

لم أجبها، كلِّ ما فعلته هو النهوض والذهاب لغرفتي فقال (عبد الله):

«غدًا سأذهب لخطبة إحدى بنات المدينة، أرجو أن تأتي فأنت كبيرنا الآن بعد وفاة جدِّي (حسين) ووالدي»

نظرت إليهم باتساع عيني من شدِّة الدَّهشة وقلتُ:

«ماذا قلتُ؟! جدِّي (حسين) توفى!»

قال (عامر) وهو ينظر إليَّ مُتفحصًا:

«لقد مات منذُ إحدى عشرة سنة وذهبت لجنازته، ألا تذكر؟!»

أمسكت رأسي بكلِّتا يدي وقلتُ:

«لم أعد أفهم شيئًا، وكأنني في لغز لا حل له»

أردت النطق ولكني ذهبت لغرفتي وأقفلت الباب على نفسي ولأمنع التفكير من عقلي ذهبت في سبات عميق.

نهضت من نومي على صوت والدتي وهي تقول:

«(أحمد)، اليوم زفاف أخوك (عبد الله)، يجب عليك أن تُجهزَّ نفسك»

نهضت متثاقلًا بلا فهم ثُمَّ سرعان ما استوعب عقلي ما تقوله فقلتُ بغضب:

«ألم يقل لي أن نخطب له اليوم؟! كيف أصبح زفافه اليوم يا أمي»

نظرت إليَّ بحزن شديد وقالت:

«مر على ذلك الأمر ثلاث أسابيع وأنت من قام بخطبتها له ألا تذكر شيئًا.»

نظرت إلى عينيها محاولًا إيجاد شيء واحد فقط يثبت أنها تكذب عليَّ ولكن نظراتها كانت صادقة فأمسكت برأسي وضربته على إحدى جدران الغرفة وأنا أصرخ:

«تذكر، تذكر أيها العقل الخرف تذكر لا تجعلني بهذا الموقف أمام والدتي»

أمسكت رأسي بيدها لتمنعني وقالت:

«لكل شيء علاج، سوف نسافر أنا وأنت بعد الزفاف للالتقاء بإحدى المعالجين في المدن الكبيرة»

نظرتُ إليها بسخرية وقلتُ:

«أتظنين أن مرض أم (هزيم) الشيطاني قد انتقل إليَّ»

قالت مبررة:

«لا ولكن يجب أن نعلم ما الذي حصل لك» طلبت منها بهدوء أن تخرج لأجهزَّ نفسي فخرجت بعد تردد وهي تنظر لي كلِّ حين حتّى اغلق الباب وانهمرت في البكاء حتّى ظننت أن أبعد شخص عن مدينتنا قد سمع بكائي.

أن تعيش أيامك بلا شعورٍ منك فتظن أن شخصا ما يُشاركك جسدك ويقتسم معك الأيام بلا عدل يجعلك تخاف، ليس منه بل من جسدك ونفسك.. الخوف من النفس مؤلم للغاية.

فإن خفت من شيء كوحش مثلًا تستطيع الهرب منه بعيدًا ويطمئن قلبك عند رحيله ولكن كيف لك الهرب من نفسك!

في هذه اللحظة كلِّ ما تلقاك تفعله وبلا شعور منك هو البكاء والغرق في عُمق الفراغ ومجاراة أحداث لم تفعلها أو بالأصح لا تذكر أنك فعلتها.

روحٌ بِداخل روح

مُتداخلان

كالموج المُترامي

على الآخر..

نهضتُ من مكاني وتجهَّزتُ للذهاب لزفاف أخي، وقلتُ لنفسي مواسيًا:

«على الأقل أهدوني هذه الليلة لأشاهد أخي عريسًا»

بدأت المعازف وصوت الطبول تُقرع في شوارع المدينة المحملة بالإنارات كإشارة لمخلوقات الليل أن هذا اليوم ملكٌ لنا.

كُنت مندمجًا وعلى وجهي ابتسامة توضّح للجميع بأنني قد عدت طبيعيًّا ولكن وفي منتصف الزفاف شاهدتُ امرأة، تُغطي وجهها بوشاح ولكنِّها تفتحه بين الحين والآخر وهي تنظر لي وعلى وجهها ابتسامة.

لا أعلم لما قلبي دق وأصبح يسابق الرِّياح بسرعته؟ ولكن وجهها مألوف لي. أصبحت أنظر إليها وأينما تتحرك عيناي تذهب معها، حتّى شاهدت والدتي فقلتُ لها:

«من تكون هذه المرأة يا أمي؟»

ابتسمت والدتي وكأنَّها قد علمت القصد من سؤالي فقالت:

«ألا تذكرها؟!، (رماح) ابنة عمتك»

وكأن الذكريات قد عادت في داخل عقلي فأصبحت لا أقوى على قول شيء سوى:

«سبحان الله على عظمة خلقه»

قالت والدتي:

«هل أعجبتك ؟ ما رأيك لو خطبتها لك بعد زفاف أخيك؟»

ولكني تذكرت أمرًا فقلتُ:

«أليست من عمري! أي في الثلاثين من العمر.. كيف لفتاة في عمرها لم تتزوج حتّى الآن؟»

فقالت والدتي:

«في الحقيقة لا نعلم السبب لرفضها رغم عدد الخاطبين ولكن لتجرب حظك قد تكون من نصيبك»

هززتُ رأسي موافقًا ففرحت والدتي وذهبت لتبشر بعض النساء بما دار بيننا، أما عني أنا فابتسامتي لا تكف عن الظهور.. وكأنني قد خرجت للتو من حزن دفين لأفاجأ بسعادة لا حد لها.

منذ صغري وتلك الفتاة تأخذ حيّزًا في قلبي ولكني لم أكن أتوقع أن قد نرتبط ببعضنا.

فضربت رأسي ببطء وقلتُ:

«قد لا توافق يا (أحمد)، لا تصنع قصرًا في السحاب وينهدم على رأسك»

ظهر صوت في عقلي وقال:

«لا تفرح يا (أحمد)، تلك الفتاة لن تكون لك»

تجاهلت ما يقوله لي الصوت وكأنني لم أسمع شيئًا، فأنا قد تعودت على هذا الأمر رغمًا عني وأصبح التجاهل وعدم الخوف يسيرًا بالنسبة إليَّ.

قبل انتهاء الحفل بقليل شاهدتُ الشَّيخ (سالم) ينظر إلى أرجاء المكان دون أن يعطي أهمية لأي شخص في المكان فذهبت إليه رغبة في معرفة ما حصل له في عزلتي وعن صحة ما قالته والدتي وقلتُ بسخرية:

«السلام عليكم أيها الشَّيخ صاحب الوقار»

اتضح الهلع على وجهه وقال لي:

«ماذا تُريد؟»

قلتُ:

«منذ متى تتحدث مع إحدى تلاميذك القدماء هكذا»

تلفت في كلِّ الاتجاهات وكأنهُ خائف من أمر ما وقال:

«أتريد السخرية منِّي ؟ فلتسخر كما شئت، ستكون مثلي يومًا ما»

قلتُ بدون أن أفهم شيئًا:

«ماذا تقصد؟»

اقترب من أذني وقال:

«إن لم تستطع التخلص منهم أنصحك أن ترحل، فأنت الآن ضرر على المكان وساكنيه»

فتحت عيني باتساعها وقلتُ:

«مَنْ تقصد؟»

ابتسم لتظهر أسنأنهُ الصفراء ويديه لا زالت متمسكة بأحجار العقيق السليماني وقال:

«أحببت جدك كثيرًا، فهو الصديق الذي لا يمكن أن يتكرر منه اثنان لذلك سأقول لك شيئًا وعليك أن تفهمه:

(احرقهم قبل أن أن يتمكَّنوا منك)

أردت أن أقول شيئًا ولكنه تحرك مبتعدًا وعيناه في الاتجاهات خوفًا ورعبًا.

لم أعد أفهم شيئًا ممَّا يحدث لي، وكأن الحياة قذفتني بعيدًا وأخذت الجميع معها.. وكأنني وحيد، وحيد في عالم مليء بالبشر.

وحيد رغم مشاركة شيء ما لا أفهمه جسدي..

بعد يومين من الحادثة والَّتي كنت مشغولًا فيها بالتجهزَّ لخطبة (رماح) من والدتها..

ذهبنا أنا ووالدتي إلى منزل (رماح) محمّلين بما لذّ وطاب من المأكولات الَّتي صنعتها والدتي بنفسها. حيّتنا عمتي وأحسنت استقبالنا رغم أنها لا تعلم حتّى هذه اللحظة ما سبب هذه الزيارة.

بعد وقت طويل من تبادل الأخبار بيننا قالت لها والدتي:

«أتينا لخطبه (رماح) لولدي (أحمد) وكما تعلمين هم الاثنان قد وصلا لسن الزَّواج منذُ زمن بعيد»

اتضح الحزن على عمتي وقالت:

«لم أتوقعها منك يا (عُريب)، ليس بسبب أن ابنتي تعدت عمر الثلاثين تطلبين منِّي تزويجها له»

قلتُ بغضب:

«وما العيب فيَّ يا عمتي ؟!»

قالت بهدوء:

«لا عيب فيك، ولكن لا نصيب لك عندنا»

نهضت من مكاني ولمحت (رماح) في إحدى الغرف المفتوحة تنظر إليَّ وعينيها مليئة بالدموع ولكني تجاهلت ما رأيته وقلتُ:

«لم أعد أريدها، لنذهب يا أمي من هنا»

ركضت (رماح) إلى والدتها وهي ترجوها بقولها:

«أرجوك وافقي يا أمي فأنتِ تعلمين بأن (أحمد) طيب القلب ورجل قبل كلِّ شيء»

أغلقت والدتها فمها بيديها وقالت:

«اذهبي إلى غرفتك يا (رماح) وزواجك من المزارع (حاتم) سيكون قريبًا»

خرجت راكضًا نحو وجهة لا أعرف أين تكون ولكني وددت لو فقط أستطيع البعد عنه هذا المكان.

أَمَكْرُوه لهذه الدرجة بين النَّاس يا (أحمد)؟ وليس أي شخص بل شقيقة والدك.

سمعت صوت صرخات قطعت عقلي ممَّا كان غارقًا فيه فركضت نحو الصوت والذي كان منزل الشَّيخ (سالم). فتحته بعد طرقي للمنزل وبلا أي رد بكلِّ قوتي فوجدته غارقًا بدمائه وجميع جدران الغرفة مكتوب عليها بدمه عبارات غير مفهومة.

تجمع الجميع بسبب صوت الصرخات ليقولوا بعدها:

«لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى، بئس الخاتمة»

كان وجهه أسودًا كالفحم، وعيناه تنظر للأعلى وكأنَّها قد شاهدت قبل موتها بلحظات شيئًا مرعبًا لم تشاهده قبلًا.

ظللت أتأمله وأتأمل المكان الذي زرته كثيرًا في صغري، رغم شكله المتشابه لشكله في الماضي إلا أنني لم أشعر بالحنين بل في الواقع قد انقبض قلبي من المكان، وكأن في داخله شرًا لامس جسدي.

وكعادة أهل هذه المدينة يرفضون دفن أي شخص مختلف عنهم في موته، خوفًا من أن يحصل لهم ما حصل له.. رغم زعمهم بأنهم لا يخافون ولكن محرم عليهم دفن دجال كافر، يا للعجب.

يُحرّمون ما يشاؤون ويُحلّلون ما يشاؤون ليُماشوا أهواءهم ورغبات أنفسهم، ولكني لم أقل شيئًا بل بقيت مكاني حتّى رحل الجميع.

ألم يأمرنا الله بالأخلاق الحُسنى، كيف تكون الأخلاق ذات طبع جيّد إن تركت جسدًا قد رحل عنه صاحبه وتركه بلا دفن.

لم يُخصص الدفن وإكرام الجسد للطاهرين من النَّاس فقط، بل الدفن للأجساد أجمع إكرامًا لخالقها قبل أن تكون للجسد نفسه.

مشيت إليه بخطوات ثابتة وحملته على ظهري رغم كرهي له، فوجدت في يده اليسرى كتابًا، علمت ما هو فور رؤيتي الغلافه المتآكل، ذلك الكتاب الذي كان يُقلّبه حينًا بعد حين في طفولتنا فوضعته في جيبي وأخذت جثته إلى خارج المدينة لأدفنها في مكان خال من البشر والجثث على حد سواء.

كحال جثة والدي قبلًا...

عند حفر القبر وجدتُ أفعى سوداء تنظر لجثة الشَّيخ بترقب شديد. فخرجت من القبر بسرعة ودفنت الرمال عليها، ثُمَّ بحثت عن مكان آخر ونفس الشيء قد حصل، حتّى حفرت سابع حفرة ووجدت نفس الأفعى تنتظرني فنظرت إلى الجثة بحزن وقلتُ:

«سامحني، هذا قدرك.. لا نستطيع تغيير القدر»

وضعت الجثة بتلك الحفرة فالتف حوله وعصرته بكلِّ قوتها، ظننت لحظتها بأني سمعت صوت تكسر عظامه فقذفت التراب بسرعة على القبر خوفًا ممَّا تراه عيني.

ثُمَّ ركضت بعيدًا وقلبي تتسارع دقاته حتّى ظننت بأنهُ قد هرب حتّى جسدي مبتعدًا عني. جلست تحت ظل نفس الشجرة الَّتي ظلَّلت جسدي منذُ زمن طويل، فأصبح بيننا ولاء، لا أشعر بالأمان إلا تحت أظلالها وهي بدورها تنتظرني بفارغ الصبر رغم قطعي لها نتيجة العزلة.

نظرت إلى أرجاء المدينة بتأمل محاولًا أن أبعد منظر جثة الشَّيخ (سالم) عن عقلي بأي طريقة لإعادة التحكم لجسدي.

كنت أتأمل كلِّ ركن بمدينتي، وأتذكر ذكرياتي عندما كنت صغيرًا، حيث البراءة كانت تخيم عليَّ وكل ما أريده وقتها هو المعرفة لا شيء آخر. ولكن اليوم، لم أعد أريد شيئًا في حياتي غير الخلاص.. الخلاص فقط.

علمت وقتها أن الرحيل لا بد منه وحياتي في هذا المكان لا يمكن أن تجعلني سعيدًا، فلربما الرحيل يكون علاجي ويتجدد الشغف في داخلي من جديد.

نهضت من مكاني وعيني عاد بريقها نتيجة ما فكرت به فقلتُ لهذه المدينة جملة واحدة فقط

«سنلتقي ذات يوم»

الرحيل مؤلم جدًّا

عندما يكون البقاء جميلًا

رحلت بلا وداع لعائلتي ليقيني أنّ الوداع بين البشر لا يزيدهم سوى حزنٍ وهمٍّ. فمضيت في دربٍ لا أعلم عنه شيئًا بلا زادٍ ولا ماءٍ ويداي خالية من أي شيء يدل على رحيلي.

خرجت من هذه الأرض خالي اليدين ك ولادتي فيها.. رغم أن المسلك الذي سلكته لا وجود لأي مدينة فيه.

لا أعلم ما هو السبب لتحديدي هذا الطريق بالذات ولكن وكأن شخصًا في داخلي يوجهني بلا أي صوت نحو وجهة يريدها.

كنت أمشي ببطء حتّى اختفت مدينة السلاطين عن عينيَّ ولم تعد تواجهني سوى صحراء لا أثر لشجر بها ولا بشر.

علمت أني قد أموت داخل أعماقها قبل أن أصل لهدفي المجهول، بل إني مُتيقّنٌ من ذلك، ولكن ورغم كلِّ ما أعلمه إلا أنني مشيت بخطى ثابتة نحو الأمام، حيث الموت، المجهول والعالقون في داخلي.

جميعهم يتجمعون حولي منتظرون اللحظة المناسبة للهجوم ولكني لم أهتم!

غابت الشمس عن تلك الصحراء القاحلة ولكن الغريب في الأمر أني لم أشعر بالتعب نتيجة المشي المتواصل منذُ شروقها حتّى الغروب. بل الأكثر غرابة من كلِّ ذلك هو شعوري بأن شيئًا خفيًا يحملني لأقطع مسافات طويلة جدًّا بلمح البصر ثُمَّ أعود للمشي على أقدامي مرة أخرى.

ظننت أن الوهم سيطر عليَّ نتيجة العطش الذي بدأت أشعر به ولكن الأمر تكرَّر كثيرًا حتّى علمت الذي يحدث، فالمشي بهذه السرعة والعلو يكون سببه الجن والشياطين وإن كان ما يدور في عقلي صحيحًا فكلام والدتي لم يكن كذبًا على الإطلاق.

توقفت مكاني وجلست في الرمال وقلتُ:

«أيًا ما كان داخلي فليظهر»

حتّى وجدت نفس الفتاة الَّتي قابلتها أمام الشجرة سابقًا تظهر من العدم وتتقدم نحوي وهي تقول:

«لستُ داخلك، أنا حولك»

لم أشعر بالخوف ولكني علمت بأنَّها لا تود لي خيرًا أيًا تكن..

فقلتُ:

«لماذا تتبعينني؟»

قالت بعد أن اقتربت حتّى لا يكاد يفصل بيننا شيء وجلست أمامي:

«لا أتبعك، ولكن القدر بيننا مشترك في هذه المدة.. قد نفترق يومًا ولكن ليس الآن»

نظرت إليها بتفحص ثُمَّ قلتُ:

«ماذا تريدين مني؟»

ابتسمتْ وقالتْ:

«مثلما أردتُ من سابقك»

علمتُ من تقصد فضحكت بكلِّ قوتي ثُمَّ صمت وبدأ وجهي يعود خاويًا مكتئبًا كما كان فملامحي قد اكتسبت الحزن حتّى أصبح جزءًا منها ثُمَّ قلتُ:

«وعندما تنتهين منِّي تقتليني كما فعلت به»

نهضت من مكانها وحركت يدها اليسرى في الهواء حتّى سقطت من السَّماء فاكهة حمراء لتُلامس يدها عندها قذفتها إليَّ فتحركت حتّى وصلت إلى قدمي وقالت:

«كُل»

لم أجب ولم أحرك ساكنًا فاختفت مجددًا بلمح البصر وظلَّتْ الفاكهة أمامي أتأمَّلها بهدوء رغم ما بداخلي من بركان ثائر.

العديد من الأسئلة تدور داخلي عن غرابة الموقف ولكن السؤال الأكبر والذي يدور في عقلي كثيرًا:

«لماذا لم أعد أخاف شيئًا ؟!»

كنت أعلم جيِّدًا أن ما يحدث لي قد يخيف أشجع البشر فلماذا لم أعد أخاف؟ هل بسبب شيء فعلته لي لا أعلمه حتّى هذه اللحظة أو أن عقلي يعلم جيِّدًا بأن ما أراه ليس سوى وهم يصنعه بنفسه لينسج لعيني قصَّة تفوق قصص الأعراب المتجولة؟

أم قد أكون أعلنت الاستسلام لهذه الحياة بكلٍّ ما فيها من ظواهر وإن شاب شعري منها رعبًا.

جميعنا نخاف الموت!

ليس بسبب الموت نفسه بل في الحقيقة نحن نخاف ما بعد الموت

فالإنسان يخاف ما يجهله، ولكن عندما يُعلن اليأس ويدخل في دوامات الحزن والرثاء لحاله يقتل نفسه غير آبه لأي شيء قد يحدث له.

قد يكون ما حدث لي نتيجة عزلتي لسنوات وتجمعات البؤس في داخلي فأصبحت أكثر صلابة إن واجهت شيئًا قد يكون سببًا في هلاكي نظرًا إلى يقيني بأن الحياة لا يمكن أن تكون أسوأ ممَّا حدث لي.

أمسكت بتلك الفاكهة الَّتي لم أشاهد مثلها قبلًا وبدأت بأكلها غير آبه إن كانت سمًّا أو شيئًا قد يأخذني للهلاك. في الواقع نحنُ في عمق الهلاك فلا داعي للحذر من شيء يدور حولنا.

انتظرت عدة دقائق ولكني لم أشعر بشيء سوى ان العطش والجوع على حد سواء قد اختفيا من داخلي. فابتسمت وقلتُ لذاتي:

«لن يقتلك الذي جلبك إلى هنا، فأنت كالكنز الثمين لديه»

هل يتعنى القاتل بتتبع مقتوله لسنوات ثُمَّ يقتله بكلٍّ بساطة؟! لا أعتقد. هذه المرأة تُخبئ في داخلها شيئًا لا أعلمه حتّى هذه اللحظة ولكني متأكد بأنَّها قريبًا، قريبًا جدًّا ستزيح الستار عن تفاصيل ما تريده مني.

تذكرتُ في تلك اللحظة الكتاب الذي أخذته من بيت الشَّيخ (سالم)، شيخ! عن أي شيخ تتحدث يا (أحمد)، فهذا الرجل ليس سوى دجال وجسده ممتلئ بالشياطين.

أتسخر منه!

ستكون مثله قريبًا جدًّا،

وقد يكون أفضل منك بشيء واحد فقط أنهُ هو من حفر طريقه، لم يتبع طريقًا ممهدًا نحو الكفر والفسوق.

حوار مع ذاتي يجعلني أعلم يقينًا بأن حتّى نفسي لم تعد تكن لي الاحترام والفخر.

تجاهلت ما أشعر به كعادتي وفتحت الكتاب والذي كانت أوراقه باللون الأصفر نتيجة الزمن والكتابة بخط شخص أعرفه جيِّدًا، الشَّيخ (سالم).

فبدأت أقرأ أول صفحة عرضت أمام ناظري..

(أعلم جيِّدًا بأن هذا الكتاب لن يُقرأ إلا عند وفاتي، قد تكون نهايتي عادية مثل أي نهاية تحدث وقد تكون غريبة لدرجة الخوف في نفوس من شاهدها).

لا أعلم ولكن كلّ ما أعلمه بهذه اللحظة أني أموت خوفًا قبل لقاء الموت، أشعر بالعجز رغم قوتي والجهل رغم ما أهدته لي من علم.

أشعر بأن جسدي خاوٍ من الداخل رغم دقات قلبي..

لماذا يا (سالم) تكون أنت المختار لأهوائهم؟ لماذا وقع الاختيار عليك؟ لا أدري.

أنت يا من تقرأ العجز فيَّ لتعلم بأن ما أشعره هو شعورك في هذه اللحظة، أنت المختار مثلي تمامًا.. وقد تكون نهايتك يا من علمت نهايتي مشابهة للغاية ولكن، لا تندفع، ارحل بعيدًا ولا تقترب.. أو لتقتل نفسك قبل الغوص في عالم لم يخلق لنا.

كنتُ طفلًا ككل الأطفال في مدينتي أهوى اللعب وصقل عقلي بالعلم، ولكني مهما حاولت في الوصول لقدراتهم الجسدية حتّى تبوء

محاولتي في الفشل، كم كنت أحسدهم رغم حبي الشديد لهم وخصوصًا صديقي (حسين).

كان مصدر فخر لعائلته وأهل المدينة أجمع بما فيهم والدي فيقول لي كلِّ مرة يراني فيها منغلقًا على حالي:

«لماذا لا تصبح مثل حسين؟ لماذا لا تخرج من فشلك؟»

كم كنتُ أبكي ليلًا من شدِّة كسرات القلب الَّتي يسببونها لي بلا شعور منهم. يظنون أن بهذه الطريقة سأغير من حالي ولكنهم لا يعلمون، لا يعلمون أن لكلِّ شخص قدرته بهذه الحياة.

أخبرني يا من تقرأني، أليس لكلِّ شخص قدرته بهذه الحياة؟!

لماذا لم يفتخر بعقلي وابتكاراتي وإن كانت تبوء بالفشل كلِّ مرة؟ لماذا لم يدعمني أحد رغم كوني أول الداعمين لهم؟

بكل بساطة؛ لأن هذه المدينة وأهلها لا يؤمنون بقوة العقل على الإطلاق. فالجسد هو النافع الوحيد لهم وإن ضعف الجسد يصبح الشخص ضعيفًا ككبار السن.

فعلى حدّ زعمهم بأن كبار السن يحملون عقلًا حكيمًا ولكن ورغم ذلك قوتهم الجسدية إن ضعفت سيصبحون عاجزين لا نفع منهم.

هذا ما قاله لي والدي محاولًا إخراجي من شعور العظمة الَّتي كانت تحتويني فكسر بكلِّماته ما تبقى من كبريائي وعزتي لنفسي. أصبحت

منطويًا، أهيم في داري طوال الوقت، وأصدقائي جميعهم قد كرهتهم وكرهت الجلوس معهم.

ولكن في ليلة من ليالي العزلة الَّتي قضيتها مع ذاتي سمعت همسات في غرفتي ففتحت عيني وشاهدتها. شعرها الطويل والذي يغطي الكثير من وجهها وردائها الأسود وتلك الابتسامة الخبيثة الَّتي ترسلها لي جعلتني أظن بأني لم أزل تحت تأثير النَّوم وكوابيسه.

ولكن التكرار دومًا يثبت لنا حقيقة الشيء، وهذا ما حصل معي. لم تتركني من بعدها ليلة واحدة فأصبحت كالقرين معي حتّى شعرت بأني على موعد قريب مع الموت بسببها.

كانت ذكية، ذكية جدًّا وكأنَّها تعلم بالتمام ما الذي أحتاجه في حياتي ولا أجده. فأصبحت تتلاعب مع نقاط ضعفي، القوة، الثقافة، العظمة وتقديس الرجال قبل النساء.

جميع تلك الأشياء كانت حلمًا بالنسبة لي ولكنِّها جعلته واقعًا فأصبحت أستطيع فعل ما يعجز عليه الآخرين من حمل ما يصعب عليهم ومن قدرة على الإقناع بالحجج والبراهين. بل جعلت الكبار قبل الصغار يأتون لأخذ رأيي.

أصبحت فخورًا بذاتي وأصبحت عائلتي تفخر بي أيضًا ولكن الطمع خصلة من خصال بني آدم، أردت المزيد.

فأعطتني، وأردت أكثر فأعطتني حتّى أصبحت أطلبها بأشياء لا يمكن أن تصبح لبشري ولكنِّها عند ذلك الحد قالت:

«(سالم)، طوال تلك المدة وأنت تطلب وأعطيك ممَّا أعطاني إياه قدري ولكن أليس دوري بالطلب قد حان؟!»

قلتُ لها بسخرية:

«وماذا يستطيع شخص مثلي أن يُعطي شخصًا مثلك؟»

ابتسمت وقالت:

«لديك الكثير، فلكل شخص شيئًا يحتاجه ويجده عند شخصٍ آخر، لا دخل للقدرات في ذلك»

قلتُ لها:

«ماذا تريدين مني؟!»

قالت بعد أن وقفت واقتربت منِّي حتّى لا يكاد يفصل بيني وبينها شيء:

«أريد روحك»

نظرت إليها لوقت طويل بلا أي ردة فعل ثُمَّ ضحكت بكلِّ قوتي لاعتقادي بأنَّها تسخر منِّي لا أكثر.

انتظرت حتّى انتهائي من نوبة الضحك الَّتي اجتاحتني ثُمَّ قالت:

«(ملائك) لا تكذب»

بدأت ملامح وجهي تتحول للخوف والتوتر على حد سواء وقلتُ بتلعثم:

«كيف أعطيك روحي؟ هل أنتِ جادة في ذلك؟»

قالت وقد جلستُ مكانها:

«أريد امتلاك روحك ولكني لن أقتلك، في الواقع لا أحد يستطيع قتلك إن لم يأتِ موعدك مع الموت».

فقلتُ متسائلًا:

«إذًا لماذا تريدين امتلاك روحي؟»

قالت:

«مجرد عهد بيني وبينك، العهد معنا نحن الشياطين يكون بواسطة أغلى الأشياء لدى الطرف الآخر، ومن خلال نظرتي لك أعلم جيِّدًا بأن أحب الأشياء لك هي روحك.. تحب والديك هذا صحيح ولكن لنفسك وروحك الدرجة الأولى وهؤلاء الذين مثلك هم الأجدر بعهدنا»

صمتُ وظللت أراقبها ثُمَّ قلتُ:

«أرفض ذلك»

ابتسمت وقالت:

«إذًا انتهى الاتفاق بيننا سوف نفترق»

قلتُ بعدم مبالاة:

«لا أهتم»

عندها تغير وجهها بطريقة مرعبة جدًّا وقالت:

«وسكان هذه القرية بما فيهم عائلتك سيصبحون جسدًا خاويًا»

فهمت سريعًا ما تعنيه فوقفت وقلتُ:

«لم يكن هذا اتفاقنا»

ضحكتْ وقالتْ:

«بل هذا هو الاتفاق معي، إن أعطيتك شيئًا أنت طلبته يحق لي فعل أي شيء يحلو لي بك وبمن رأتهم عينك»

أصبحت أرجوها ولكنِّها قالت كلمتين فقط:

«روحك لي»

فهززتُ رأسي موافقًا رغم رفضي عندها عادت لشكلها الطبيعي والذي لا يقل رعبًا عن سابقه وقالت:

«لتودَّعهم قبل الليل»

لم أفهم ما تعنيه ولكني علمت بأني سأكون ميتًا على يدها هذه الليلة فأصبت بنوبة بكاء كالأطفال تمامًا.

أتعلم يا قارئ هذا الكتاب بأني جبان، رغم أننا معروفون بالشجاعة والموت لأجل الكرامة ولكني.. لم أكن كذلك أبدًا.

في الواقع، نحن العرب قد نخوض الحروب ونقتل ما شاء القدر أن نقتله بلا رفة عين منا ولكن نحن في ذات الوقت نخاف المجهول.

نخاف أن نتواجه مع شيء لا نعلمه، قد نجوب الصحراء بأكملها وننام في العراء غير آبهين لما قد يحدث ولكن وعند رؤيتنا منزلًا مهجورًا لا ندخله.

المجهول شيء مخيف في نفوسنا رغم الشجاعة الَّتي تتلبسنا..

لا أعلم، هل أرفع من قدر نفسي بهذه الكلمات أم أني أعزيها على ما حصل لها؟ أنقول بهذه اللحظة أني كنت شجاعًا أم أن الجبن هو السبب الرئيسي لما آلت إليه الأمور؟ أيضًا لا أعلم.

ولكن كلٍّ ما أعلمه وستعلمه قريبًا جدًّا.

القدر يحدث وإن تلبسنا وجوها لا حصر لها هربًا منه.

أقفلت الكتاب عند شعوري بوجودها ووضعته في جيبي ظهرت بشكلها الدائم وجه شاحب وشعر طويل جدًّا وعينين يطغى السواد

على البياض حينًا وقد ينعكس حينًا أخرى ولا أعلم السبب في ذلك حتّى الآن.

قالت لي:

«الليل قد سدل ستائره، ألا تشعر بالرغبة في النَّوم؟»

ظللت أتأمل ما تفعله بدون أن أنطق شيئًا، فقبل قليل كانت يديها خالية من أي شيء والآن تحمل الكثير من الحطب وتصنع به نارًا حولي وحولها.

قلتُ لها بعد أن فرغت ممَّا تفعله:

«لماذا تفعلين ذلك؟»

ابتسمت وقالت:

«لم تخرج للصحراء يومًا رغم عروبتك، فالعرب عادة يهيمون بالصحراء وحيدين ويعلم كلِّ شخص منهم قبل بلوغه العشرين ماهي السبل لحمايته»

قلتُ بريبة وأنا أتلفت في جميع الاتجاهات:

«أحمي نفسي ممّن؟»

جلستْ وقالتْ:

«الذئاب تخاف النيران، ولهذا حاوطته بيني وبينك فإن جاء ذئب لن يستطيع افتراسنا»

قلتُ بسخرية:

«افتراسنا! وكيف بالذئب أن يفترس شيطانًا لا لحم له؟!»

قالت:

«الذئاب تستطيع افتراس الجن والإنس على حد سواء، ولا تسأل لماذا؟»

نظرت إليها بعمق ثُمَّ قلتُ:

«لا أستطيع النَّوم وأنت أمامي»

قالت:

«أتخافني يا (أحمد)؟»

قلتُ بهدوء:

«لا أخافك بل أشمئز منك»

ظلال ضحكت بسخرية وقالت:

«كاذب»

قلتُ لها مدعيًا الغباء:

«ولماذا أكذب؟ »

نهضت من مكانها وركضت إليَّ بكلِّ سرعتها حتّى تلامس وجهها مع وجهي ولكني لم أغمض عيني ولم أحرك ساكنًا فابتعدت وقالت:

«جيد أن تكون مختلفًا عن سابقك»

قلتُ لها وعيني لا زالت تنظر لها بعمق وتتحرك عند تحركها:

«ماذا فعلت بالشَّيخ سالم؟ هل قتلته؟»

ابتسمتْ وقالتْ:

«ستعرف قريبًا، عندما تنتهي ممَّا تخبئه عني في جيبك»

علمت أنها تعلم كلَّ شيء أفعله ف توسدت الأرض وأغمضت عيني محاولًا تجاهلها حتّى ذهبتُ في سبات عميق.

لا تدفعني للجنون تحت ظلائل العقل

فأنا على مشارف الانغِماس

نحو قدري المُتهالك

نهضت من نومي لأجدني في مكان آخر ممتلئ بالبيوت المتهالكة والَّتي تخلو من ساكنيها وعند نظري للسماء وجدت القمر قريبًا إليَّ حتّى ظننتُ أن السَّماء قد تداخلت مع القمر فابتلعتها.

عندها تذكرت تلك المدينة في إحدى قصص الشَّيخ (سالم):

(البقعة الوحيدة الَّتي يتقارب القمر مع سطح الأرض بها لدرجة أنك تشعر بأنهم في حالة عناق لبعضهم البعض)

تلك هي مدينة (باقار) العظيمة..

أصبحتُ أنظر للمكان غير مصدق بأنني في هذه المدينة رغم أن الآثار فيها توحي بأنَّها قد هُجرت منذُ سنين طوال.

أصبحت أمشي محاولًا اكتشاف المكان وبعد كلِّ حين أنظر للقمر وأقول:

«سبحان الخالق على كلِّ شيء»

ولكن وعند انتهاء جملتي هذه حتّى سمعت اصواتًا غريبة، صوت فتاة ولكنه كان غريبًا وبلغة لا أفهمها..

تتبعت الصوت من باب الفضول، فالخوف قد رحل منذُ أن التقيت بِ (ملائك).

حتّى وصلت إلى أرض مسورة وفي داخلها مئات القبور، وهنالك من يتحدث معهم بلغه غريبة، قد تكون لغة الأموات فيما بينهم.

ولكن وعند اتضاح الرؤية تمامًا شاهدتها!

امرأة ذات عين واحدة في المنتصف وفم مقطوع من جانبيه، ولا ترتدي شيئًا من الثياب!

في الواقع، لقد تصنَّمتُ مكاني وأنا أنظر لها برعب ممزوج بالدَّهشة ممَّا تراه عيناي. كنتُ أتوقع أني لن أتعجب من شيء بعد (ملائك) ولكن ها هي هذه المرأة تخرجني من توقعاتي.

قلتُ متحديًا الرعب في داخلي:

«من تكونين؟»

فتوقف صوت الهمسات في المكان ونظرت إليَّ ثُمَّ ابتسمت لتظهر أسنانها والَّتي لا تكفي لملء فمها.. وقالت:

«بشريٌ هنا»

أردت النطق ولكن وبلمح البصر سُحبت من يدي ثُمَّ ابتعدت عن المكان بسرعة غريبة.

لم أعد أرى القمر والمنازل والأهم من كلٍّ ذلك لم أعد أرى تلك المرأة..

وكأنهُ حلمٌ قد نهضت منه لأدخل في حلم آخر فتصبح كسلسلة لا نهاية لها. فتحت عيني لأشاهد نفسي ملقى على بقعه مليئة بالحشائش، ففركت عيني ببطء غير مصدّقٍ.

من صحراء قاحلة لبيوت متهالكة ثُمَّ إلى هذا المكان الأشبه بالجنة. نظرت إلى المكان فوجدت (ملائك) تنظر لي بتأمل فقلتُ:

«ما الذي حدث وكيف أتيت إلى هنا؟ ما هذا المكان من الأساس؟»

فقالت:

«على بعد بضع ساعات تجد مدينة (عدن) اذهب إليهم وتزود بكلِّ ما تحتاج»

قلتُ باندهاش:

«كيف وصلنا إلى هنا بهذه السرعة رغم أن بين مدينتي ومدينة (عدن) مسافة ثلاثة أشهر سيرًا على الأقدام»

ابتسمت وقالت:

«في خدمتك ما دمت في خدمتي»

نهضت من مكاني ومشيت نحو الطريق الذي قالته لي، والذي كان مُبهرًا للعين فالأرض لا تظهر نتيجة الأشجار، والثمار تتساقط في الأرض من كثرتها.

قد سمعت قبلًا من أهل مدينتي بأن مدينة (عدن)، مدينة خصها الإله بالكثير من النعم.. فهم أهل تجارة ومال، وأرضهم كقطع الجنة.

همست في عقلي فعلمت أنها في داخلي:

«صدقني ستكون نهايتهم قريبة»

فزعت من قولها وقلتُ:

«أعوذ بلله منك»

ضحكت وقالت:

«إن أردت التصديق صدق أو لا تصدق فأنا لا أكذب»

قلتُ بسخرية:

«جميع الشياطين يكذبون»

فقالت:

«قلتُ لك قبلًا على لسان ذلك التائه في قبره، ليس جميع الجن شياطين والأمر ينطبق عليكم أيضًا»

ولكني قلتُ:

«أنت شيطانة، وتلك الَّتي أرادت مهاجمتي شيطانة أيضًا»

قالت:

«خطأ، تلك الَّتي رأيتها تكون من كهنة الشياطين والجن، يجب أن تحذر من الكهنة»

صمت قليلًا بينما كنت أسير نحو المدينة ثُمَّ قالت:

«الكهنة أخطر المخلوقات رغم جُبنهم»

ابتسمت وقلتُ:

«وهل بهذه الكلمات تشتمينني أم تشتمين صديقك السابق (سالم)»

قالت بهدوء:

«لا نعترف بالصداقة بيننا وبينكم ولكننا نعترف بالمصالح المشتركة، (سالم) كان جيِّدًا ولكنه لم يكتف بما أعطينه بل طلب المزيد من العلوم والمعرفة حتّى لم يستطع تحمل ما عرفه. الكثير من الأشياء يجب أن تكون مجهولة.. وليست كلِّ العلوم نافعة يا (أحمد)»

صمت وظللت أسير حتّى توسطت المدينة، فشاهدت كلِّ من في المدينة يترغد بالعيش بها عندها قلتُ بلا شعور:

«كيف يجعل الله بعد هذا الغنى فقرًا؟»

همست لي:

«صدقني، هذه المدينة بما فيها من خيرات لن يكون لها وجود مستقبلًا نتيجة مخلوق يستهان به»

لم أسألها عما تقصد بسبب كثرة النَّاس من حولي فخشيت أن يحسبونني مجنونًا أو شيئًا من هذا القبيل.

اصطدمت بشخص فقال:

«ألا ترى أيها العجوز»

قلتُ معتذرًا رغم الغضب:

«أعتذر ولكن، إن أردت شتيمتي بهذه الكلمة فلتعي أن الشيب وقار وكلما زادت سنوات عيشك في هذه الأرض زادت حكمتك»

ابتسم وقال:

«الشيب وقار هذا صحيح ولكن الحكمة لا ترتبط بالعمر أيها الغريب»

همست في أذني وقالت:

«اسمه (صالح)، وليس بصالح.. اتبعه وتعارف عليه »

قلتُ له: «أعتذر عن هذا أيضًا ولكن يا.. ما هو اسمك؟»

قال بفخر:

«صالح ولقبي أبو الهشامة»

قلتُ مدعيًا السَّعادة بمعرفته:

«اسم جميل ولقبٌ أجمل»

قال متسائلًا:

«هل أنت راحل أم أنك مستقر هنا لأجل ملذات الحياة في المكان؟»

قلتُ بهدوء:

«بل راحل ولكني أريد مكانًا أباتُ فيه ليلتي ثُمَّ أغادره»

حرك يديه على كتفي وقال:

«ستبيت في منزلي، واعتبره منزلك حتّى رحيلك»

علمت في داخلي بأن حوارنا سيرسى على جملته فالعرب يكرمون الضيف وإن كانوا أسوأ الخلق، قد تكون الصفة الجيدة فينا بجانب الشجاعة.

ذهبت إلى منزله والذي كان قصرًا تهيم به النفوس عشقًا وطمعًا من شدِّة جماله تشعر أنك في أعالي الجنان وأن الأرض بأكملها ملكًا لك والبشر عبيد لنزواتك وذلك الموت الذي يأخذنا قصرًا واحدًا تلو الآخر يتوقَّف عند بابه.

فهمست لي تلك الَّتي بداخلي:

«لا تغتر بكثرة المال ورفاهة العيش فصدقني ما هم سوى سجن لنفوس الحاصلين عليه»

دخلت إلى القصر بضيافته وأعطاني من منزله أجمل الغرف ومن زاده أطيب الزاد فتناولت الطعام وذهبت في نوم عميق على سرير تغوص فيه الأجساد.

نهضت على صوت بكاء طفل، وأردت الخروج من غرفتي ومعرفة ما يحدث فقالت لي وقد ظهرت أمامي متمسكة بالباب وكأنَّها تمنعني:

«لا تذهب، هذا الأمر ليس لنا شأن به»

أردت النطق ولكن صوت الطفل زاد في بكائه لدرجة تتقطع لها القلوب قلتُ لها:

«ابتعدي هذا ليس من شأنك، واعلمي شيئًا واحدًا يا(ملائك) أنا لستُ خادمًا مطيعًا لك»

ابتسمت وأزاحت جسدها لتفسح لي المجال للخروج:

«اذهب إن أردت ولكن سأقول لك شيئًا قبل أن تخطو خطوة واحدة بدافع الفضول لا الشجاعة، لا تطلب منِّي مساعدتك»

تجاهلت ما قالته وفتحت الباب بهدوء وخرجت..

الظلام يكتسي المكان رغم نور القمر الداخل من نوافذ البصر والهدوء يصيبني بالرعب رغم بكاء الطفل الواضح للسامع.

علمتُ أن هنالك أمرًا يحدث في المكان ومنع (ملائك) لي لم يكن عبثًا ولكني لم أرجع إلى غرفتي بل ظللت أخطو تابعًا للصوت حتّى وصلت إلى سلم مؤدي للأسفل، أي أسفل الأرض فنزلت.

عند نزولي السلالم شاهدت بوابة لم تكن مقفلة بإحكام والصوت واضح جدًّا أنهُ يخرج منها ففتحت الباب على اتساع عيني ونظرت، وليتني لم أنظر.

مخلوق غريب الشكل، وكأنهُ مسخ أو شيء لا أعلم بالتمام ما هو يأكل جسد طفل صغير لا يتجاوز السابعة من عمره.

فصرخت من شدِّة ما رأيت ورجعت للوراء عدة خطوات..

لاحظ وجودي ونظر إليَّ بشكله الذميم فترك الطفل غارقًا بدمائه وتقدم ناحية البوابة ببطء وهو يردد:

(نُكرمه من دافع الكرم وشهامتنا فيتسلل متناسيًا ما أكرمناهُ)

ركضت بكلِّ سرعتي إلى الأعلى ولكن شيئًا أمسك بقدمي وسحبني ببطء.

أردتُ الصراخ ولكن وكأن صوتي أصبح مكبلًا بشيء لا أعلمه.

نظرت للخلف فرأيته ينظر لجسدي وعلى وجهه ابتسامة مرعبة وهو يقول:

«أنت طعام لي»

عندها عض قدمي بكلِّ قوته ليخرج صوتي بعلو لم أسمعه قبلًا.

لا أعلم بعدها ما حدث ولكن وكأن شيئًا سحبني بلمح البصر لأعود إلى غرفتي ويقفل الباب لوحده. علمت أن (ملائك) قد ناقضت عهدها وأنقذتني من ذلك المخلوق ولكني لم أرها في الغرفة.

نظرت إلى قدمي والَّتي تصب الدماء خروجًا منها وقد صبغت سريري باللون الأحمر فأصبح كبركان من الدماء.

دُق الباب بهدوء وقال الصوت والذي علمت صاحبه، ذلك المخلوق:

«افتح يا(أحمد) لن أأكلك»

دقات قلبي تتسارع ولم أستطع حتّى النطق فظللت أبحث في كلِّ أنحاء الغرفة عن (ملائك) لأجدها ظاهرة في ركن الغرفة تنظر إلى الباب وعلامات الفزع ظاهرة عليها.

أصبحت أنظر إلى الباب حينًا وإليها حينًا آخر فلم أعد أعلم ما الذي سيحدث إن فتح الباب خصوصًا وأنا أشاهد شيطانتي في حالة من الخوف الذي لا يقل عن خوفي شيئًا.

قال ذلك المخلوق من وراء الباب:

«صدقني أيها الكاهن، لن يفيدك الشيطان الذي يسكنك إن أردت الحصول عليك»

ظل يضحك بصوت عالٍ حتّى تلاشى الصوت واختفى تمامًا، ولكن لا أحد منا تجرأ على فتح ذلك الباب، فنظرنا لبعضنا بعضًا وقلوبنا تدق من شدِّة الخوف.

بعد وقت طويل ونحن ننظر لبعضنا بلا أي كلمة قالت:

«كدت تتسبب بقتلنا اليوم»

ونظرت إلى قدمي والَّتي لا زالت تنزف دمًا حتّى ظننت أن دمي بأكمله قد رحل مودعًا جسدي. فتقدمت ببطء ووضعت يدها مكان عضته فتشافى وكأنهُ لم يكن.

قلتُ لها بعد ما فعلته:

«من ذلك المخلوق؟»

قالت لي:

«يدعونه في هذا المكان الجرجوف، ويسمى أيضًا الغول»

قلتُ بعدم فهم:

«أبشرٌ أم جن؟!»

قالت:

«من أقوى أنواع الجن والمردة، يستخدم في السحر»

قلتُ متسائلًا:

«ما الذي جاء به إلى هذا القصر؟ ومن ذلك الطفل الذي أكله؟»

قالت وهي تنظر لعيني بعمق:

«صالح يكون ساحرًا من الدرجة السوداء أي أنهُ قد وصل في سحره حد الحِرافة»

قبل أن أتحدث قالت:

«أحيا بعض الطلاسم الجالبة للجرجوف، والجرجوف لا يأتي إلا عندما تهيئ له بشريًا ليأكله.. وعادة يُفضل الجرجوف لحم الطفل الصغير والذي لم يتجاوز العاشرة من عمره»

نهضت من مكاني وقلتُ:

«يجب أن نخرج من المكان، احمليني ودعينا نرحل»

قالت بصوت ضعيف:

«لا أستطيع، لقد غرز في جسدي جزءًا من مخالبه، وأزاحت قليلًا من ملابسها لتوضح جرحًا عميقًا في جسدها، وبالتحديد جهة الصدر»

قلتُ لها:

«افعليَّ لنفسك ما فعلته لي قبل قليل ودعينا نرحل »

صرخت وقالت:

«ألا تفهم، لا أحد من الجن يستطيع علاج نفسه وأيضًا لا نستطيع الهرب؛ لأن المكان بأكمله مليء بالشياطين والغيلان فإن خرجنا من هذه الغرفة الَّتي سمح لنا الجلوس فيها صاحب المكان سوف يقضى عليَّ وعليك»

قلتُ لها:

«ما العمل إذًا؟»

قالت:

«ننتظر حتّى يسمح لنا صاحب المكان الخروج»

رحلت تلك الليلة برعبها ومساوئها، فذلك الغول والذي كان يقرع الباب كلِّ حين حتّى ظننا أن موتنا قادم لا محالة.

عند ظهور النهار مجددًا فتح الباب ذلك المدعو (صالح) وقال لي:

«هل نمت جيِّدًا ؟!»

ابتسمت بسخرية وقلتُ:

«لم أنم يومًا كنومتي هذه يا (صالح)»

وشددت على كلمة (صالح) بكلِّ قوة.

قال:

«تفضل لنتناول سويًا طعام الفطار وبعدها قل لي: لماذا أتيت إلينا؟ وما هي غايتك؟»

نظرت إليها فأشارت لي أن أفعل ما أريد، عندها قلتُ:

«أعذرني ولكن، لا أستطيع البقاء لقد عجلت برحلتي وشكرًا لضيافتك»

نظر إليَّ نظرة عميقة وعاد بالنظر إلى شيطانتي والَّتي ظننت أنهُ يراها فقال وكأنهُ يخاطب شيئًا عالقًا في الهواء لا أراه:

«حقًا، أتقول بأن معه شيطانة الخسوف؟!»

عندها تحولت عينيه للبياض الكامل ونظر إليَّ وإلى (ملائك) ثُمَّ قال:

«اسمع يا هذا، أخرجك من منزلي سالمًا بشرط واحد.. أن تهديني تلك الشيطانة بموجب الاتفاقات السُليمانية المُدرجة بين الكهنة والشياطين»

بان على وجهها الفزع ونظراتها تنظر إليَّ وكأنَّها ترجوني أن أرفض فقلتُ رغم أني لم أفهم ما يعنيه بتلك الاتفاقات:

«أتطلب منِّي إعطاءك شيطانة واحدة أملكها وأنت تملك الكثير يا (صالح)، وهل ذلك يصح؟!»

جلس بجانبي وقال:

«صحيح لدي الكثير ولكن تلك الشيطانة الَّتي تحت عهدتك لا أملك من فصيلتها أحدًا.. سأعطيك ثلاثة من شياطين الجن ومردتهم إن علمت أسماءهم»

همست في داخل رأسي:

«خذ منه (أهريمان) و(كادل) وقرين (صالح) (عُشير)»

فطلبت منه الثلاثة (أهريمان) و(كادل) و(عشير) عندها نظر إليَّ باتساع عينه ثُمَّ ابتسم بخبث وقال:

«يبدو أن لشيطانتك قوة عظيمة فلا أبالي إن ضحيت بثلاثة من خيرة خدمي لأجلها»

كتبنا المعاهدات بيننا فأصبح الشياطين الثلاثة ملكًا لي و(ملائك) أصبحت لصالح.. ورحلتُ.

في الواقع كنتُ سعيدًا بالتخلص من (ملائك) فأنا لا أثق بها ولكن وفور خروجي من تلك المدينة حتّى ظهرت (ملائك) ثانية سائرة معي جنبًا إلى جنب.

قلتُ بدهشة:

«ألم تعودي ملكًا لذلك الساحر؟»

نظرت إليَّ بغضب وقالت:

«لست ملكًا لك لتبيعني لأي يكن»

تذكرت عندها بأنني لم أطلبها بأي عهد من العهود بل أتت بنفسها إليَّ فابتسمت وقلتُ:

«ذلك الغبي خسر ثلاثة من شياطينه لأجل لا شيء»

عندها قالت:

«أطلب منهم الظهور لتتعرف عليهم»

فقلتُ بصوت عال:

«لتظهروا»

عندها شاهدت قطتين واحدة سوداء والأخرى بيضاء وشخص فزعت عند رؤيتي له لقد كان الغول فأردت الهرب ولكنِّها أمسكتني وقالت:

«لا يستطيع أذيتك، لقد أصبح مُلكًا لك»

نظرت إليه فشاهدت الانكسار والذل في عينه فابتسمت وبداخلي الكثير من الخطط للثأر منه ولكني لم أعلم السبب الرئيسي لطلب (ملائك) منِّي اختيار هؤلاء الثلاثة فقالت:

«قرين (صالح) يعلم كلَّ ما يخفيه صاحبه وسوف يُفيدنا كمرجع لنا، والغول اصطياده صعب جدًّا فهذا يعني أن بيعه سيكون ممكنًا لأي شخص ولأي شيء.. الأخير والذي يدعى (كادل) سأخبرك عنه قريبًا»

مشيت في طريقي مودعًا تلك المدينة رغم أني لم أتعمق فيها بسبب خوفي من أن يعلم (صالح) ما فعلته ورحلت جنوبًا حيث البحر على حد قول (ملائك) والشياطين الثلاثة.

أتعلمون أمرًا؟!

السفر برفقة أربعة من الشياطين يجعلك تعتقد بأنّ الغدر جالس خلفك ينتظر الفرصة المناسبة للهجوم عليك.

شعرت بأن الأمور تصبح أسوأ ف أسوأ، لقد خرجت من مدينتي محملًا بشيطانة واحدة فأصبحوا بهذه اللحظة أربعة كلِّ شخص منهم يفوق الأخر غدرًا وشرًا.

ورغم أني لا أعلم كيف ستكون نهاية رحلتي والهدف الأساسي منها إلا أنني مضيت، فالقدر وإن هربت منه واختبأت سيجدك.

قدري معهم وقدرهم معي، وجميعنا نهيم في عُمق المجهول لأجل شيء نجهله.

قضيت النهار بأكمله أسير نحو الجنوب حتّى باغتني التعب وارتميت نحو الرمال مُظهرًا للجميع أننا سنبيت هنا الليلة.

فظهر الأربعة وكل واحد منهم يصنع شيئًا لخدمتي فمنهم من يشعل النار للتدفئة ومنهم من يبحث عن طعام لنا ومنهم من يتفقد خطورة المكان لأكون في أمان.

لقد شعرتُ ببعض الفخر بذاتي، فكأني أمير وهؤلاء خدم لي.. ولكني سرعان ما سخرتُ من نفسي لأخرج من أحلام اليقظة الَّتي تعتريني كلِّ حين.

فكيف بأمير لا يملك شعبًا، ويتوسد الصحراء كلما عجزت قدماه عن السير، ولا يجد إلا القليل ليأكله.

لست أميرًا يا (أحمد) ولكنك على مسلك السحرة تمضي ولن تكون في المستقبل للإنس سوى قصَّة يعتبرون منها بل قد لا يصدقها أحد.

فتحت كتاب الشَّيخ (سالم) وبدأتُ أقرأ..

في الواقع لم يكن ذلك الذي قرأته قبلًا موجودًا بل وكأنهُ قد بُدل بكلماتٍ أخرى لا يمتون لسابقيهم بأي صلة.

ظلمات (غزل)

في تلك الصَّحراء والَّتي يهيم بداخلها ألوف المخلوقات والَّتي لا تُعد للبشر سوى خُرافات لا أكثر. تجلس الفتاتان بأوشحتهم السوداء ونظرهم المتوجه نحو حدود الرؤية، ثُمَّ قالت إحداهن:

«أليس الوقت قد حان على الرحيل إلى الديار ورؤية وجوه من نحبُّ يا غزل؟!»

نظرت (غزل) إلى تلك الفتاة ثُمَّ عادت بالنظر إلى طفل رضيع لا يمتُّ لجنسهم بأي صلة وقالت:

«وماذا عن (رُمير) يا(ملائك)؟»

ابتسمت (ملائك) وقالت:

«أسميتهِ (رُمير) إذًا، هل لي أن أسأل سبب هذا الاسم؟»

فقالت لها:

«(رُمير) يعني القوي عند الشدائد وذا القلب الحديدي، وهذا ما أريد لهذا الطفل أن يكون عليه مستقبلًا»

أزاحت (ملائك) خصلات الشعر عن وجهها وقالت:

«لا تتعلّقي به يا (غزل)، فهذا البشري الصغير عندما يُكتشف أمره سوف يتم قتله على يدي صدّقيني»

ضمّت (غزل) الطفل خوفًا عليه وقالت:

«دعينا نُخبئه في إحدى الأماكن»

بحثت الفتاتان عن مكان مناسب لتخبئته فلم يجدا أأمن من الكاهنة (رزق) والَّتي تعيش في وادٍ لا تدخله الشمس بتاتًا.

عند وصولهم ورغم ترددهم إلى أنهم ساروا ممسكين بيدي بعضهم البعض إلى (رزق) والَّتي كانت مشغولة بإحدى النساء الَّتي أتت إليها من القرية المجاورة خلسة؛ لتصنع لزوجها سحرًا أسود يقتله.

انتظرتا حتّى رحيل المرأة ثُمَّ قالت لهما (رزق) فور شعورها بمجيء أشخاص من العالم الآخر:

«ماذا تريدان؟ »

((رزق) كاهنة عجوز عمياء لديها تقوُّس في ظهرها يجعلها أقصر من طولها الحقيقي، ترتدي أوشحة عليها طلاسم لتحميها من الشياطين رغم أنها تستخدمهم ومنزلها المتهالك لا تضيئه سوى ببعض الشموع هنا وهناك.. وفي الجدران عبارات بدم النساء تعطي للمنزل رائحة كريهة جدًّا)

فور رؤية الأختين ما شاهدتاه حتّى حاولت (غزل) الرحيل ولكن (ملائك) قالت لها:

«ليس لدينا خيار»

قالت (ملائك) بعد تشكلها لامرأة جميلة جدًّا تحمل طفلًا في يدها:

«نحن شياطين الكسوف نطلب منك الاحتفاظ بهذا الطفل كأمانة وسوف نأخذه منك عند رغبتنا بذلك»

تحولت (غزل) لفتاه تشبه أختها ولا تقل جمالًا عنها وقالت:

«ولكن عدينا أن يكون هذا الطفل آمنًا من سواد قلبك وسواد المكان حولك، وأن لا تطمسي ظلاله الحامية لأجل غاية في قلبك»

ابتسمت العجوز وقالت:

«يبدو أن شياطين الكسوف لا ملجأ لهم غير منزلي فلذلك أتوا إليه رغم الخوف منِّي وممن معي»

قالت (ملائك) مدّعية القوة:

«نحن لا نخاف من بشريَّة صنعت لروحها جسرًا أسود بيننا وبين بني جنسها»

فقالت العجوز:

«ولماذا أتيتما إليَّ إذًا؟»

قالت (غزل):

«لا نستطيع إبقاء الطفل معنا ونحن نعلم بأنكِ تفعلين كلِّ شيء لأجل ما تريدين وتفعلينه بكلِّ إخلاص»

قالت العجوز بعد اقترابها لتُلامس الطفل:

«أوافق على شرط، تجلبا لي الكحل الفرعوني وطفلة تمتلك خواص الزوهريين»

قالت (غزل) بعد أن أبعدت الطفل من يدي العجوز:

«ولماذا كلّ هذا!»

ابتسمت وقالت:

«تعلمين جيِّدًا لماذا أريده، فالكحل يسهل عليَّ رؤيتكم على حقيقتكم وبالتالي رؤية نقاط الضعف لديكم وتلك المتمتعة بخواص الزوهريين تفيدني عند صدامي مع جن (الرصد) أظن أنكم تعلمون عنهم الكثير، فهم جزء من عشائركم الثمانية»

قالت (ملائك):

«وإن أحضرنا ما طلبته كيف نستطيع الاطمئنان بأن الطفل لن يُمس بأي أذى!»

ابتعدت وجلست على إحدى المقاعد المتهالكة وقالت:

«اتفاق الساحر مع الشياطين لا يُنقض وإن نُقض تعلمون ما تستطيعون عملهُ بي»

تم الاتفاق بين الشيطانتين وتلك الكاهنة، رغم عدم الراحة المركونة في جهة والخبث في جهة أخرى.. فللجميع مصالح تجعلهم يتنازلون عن أبسط الأشياء لديهم، الراحة والاطمئنان.

قلبت الصفحات لأعثر على تكملة القصَّة ولكن، جميع الصفحات فارغة وكأنَّها لم تمس قبلًا رغم تهالكها فأقفلته ووضعته مكأنهُ بجيبي وذهبت في ملذات النَّوم رغم أن المكان لم يكن صالحًا لذلك.

لا تُعايرني بِشيبي وأنت الّذي.. تعلم أني

قد غرزتُ الشيب في رأسي كِفاحًا

وعانقتُ السَّماء في عُقر دارهِ

فغابتْ ميادينُ الشَّجاعة احتراقًا

لا تُعايرني بشيبي وترقص قائلًا:

كاد المُعيبُ أن يكون شُجاعًا

نهضت في اليوم التالي على صوت أمواج البحر والَّتي ترتطم كلّ حين مع قدمي ففركت عيني كثيرًا لظني أن ما أشاهده لا يكون سوى حلم يتسلل إلى عقلي ولكن وبعد العديد من محاولاتي لتكذيب الأمر إلا أني تيقنت أن البحر أمامي حقًا.

لا أخفيكم أني شعرت بالخوف الشديد ففكرة أن تنام في منتصف صحراء تبعد عن البحر أيامًا وتصحو لترى البحر قد قُذف إليك يجعلك تكاد أن تفقد عقلك.

أفقد عقلي !

إن لم أفقده وبصحبتي أربعة من شياطين الجان كيف لي أن أفقده الآن يا ترى!

قلتُ بصوت عالٍ:

»أين أنتم الآن؟!«

فظهر الجميع من حولي بأشكال محببة للنفس البشرية وقال (كادل):

«قل لنا ما تريد يا سيدي وسنفعله»

تأملتُ وجوههم الثلاثة وقد كانت مليئة بالذل والهوان على عكس تلك الَّتي تنظر لي بمكر شديد وقوة في ذات الوقت.

في الحقيقة أعلم لما كلِّ هذا الجبروت والغرور بداخلها هي تعلم أني لن أستطيع أن أضرها في شيء ما دمت لا أمتلك أي عهدة معها بل على العكس فثغراتي مفتوحة امام ناظريها فتستطيع في أي لحظة أن تضرني وخصوصًا أني بعيد كلِّ البعد عن عبادة الله وذكره .

قلتُ لهم جميعًا بلا استثناء:

«أريد مركبًا أعبر به البحار السّبعة»

فقال الجرجوف (اهريمان):

«لماذا تركب مركبًا ونحن نستطيع حملك أينما تريد؟»

ابتسمتُ وصمتُ قليلًا ثُمَّ قلتُ :

«أعلم، ولكني أريد مركبًا.. مركبًا حقيقيًا لإحدى البحارة في هذا المكان»

سأقول لكم شيئًا واتركوه بيننا، لا تتحرك أفواهكم عند قراءته فهم يقرأون الشفاه.

(لا تثقوا بشيطان مطلقًا، ولا تجعلوا أرواحكم بين يديهم وإن كنتم المتحكمين بهم ف الشياطين خُبثاء وإن أرادوا التخلص من مالكهم صدقوني سوف يتخلصون منه وإن كان بينهم عهدٌ سُليمانيٌ وهو الأقوى بين العهود)

بعد عدة دقائق ظهرت سفينة سوداء من خلف الضباب تتحرك باتجاه الشاطئ، وعند توقفها صعدت على متن سطحها وشاهدت المكان خاويًا لا أحد فيه وكأنهُ قد هجر منذُ قرون طويلة وظل هائمًا في سطح البحر حتّى توقف أمامي فقلتُ:

«طلبت قاربًا صغيرًا فأحضرتم لي سفينة كبيرة لا أستطيع أن أحركها بنفسي، من أين عثرتم عليها؟!»

قالت (ملائك):

«طلبتَ قاربًا حقيقيًا لا سحر فيه ونحن لا نستطيع أخذ أي قارب ذُكر اسم الله على سطحه ولكن هذه السفينة لم يذكر أحد اسم الخالق داخلها»

قلتُ وأنا أنظر في جميع الاتجاهات :

«هذا الأمر وقد أفهمتني إياه ولكن هل تستطيعين إخباري كيف أستطيع تحريك هذه السفينة بنفسي؟»

ما هي إلا ثواني معدودة وتكون أمامي طاقم من البشر والذين لا أعلم هل هم بشر حقًا أم أن قواهم قد صنعت وهمًا في داخل عيني .

كانوا عبارة عن ثلاثة رجال وطفل في عمر العاشرة حسب شكله بكتفه قرد صغير وامرأة ترتدي خمارًا أسود مليئًا بالنقوش الغريبة.

فقال لي (عُشير) بعد أن نظرت بتعجب ناحية الخمسة المتكون أمامي

«إنهم بشر حقًا، بشر حقيقيون»

قلتُ بسخرية :

«صحيح بشر حقيقيون يأتون طواعية لمساعدة ساحر وأربعة من شياطينه»

قالت (ملائك) وهي تنظر للبحر:

«الشياطين لا تكذب على حامل المعاهدات»

صمت رغم عدم اقتناعي وقلتُ للبشر أمامي :

«أريد تحريك السفينة والإبحار إلى قلب بحر العرب، هل تستطيعون ذلك؟!»

قال رجل منهم يرتدي زيًّا أحمر اللون غريب الشكل وعلى أذنه اليمنى حلقٌ ذهبي اللون طويل :

«انستطيع فعل كلِّ شيء تريده يا (أحمد)»

وما هي إلا ساعة واحدة فقط وتلك السفينة تحركتْ بطريقة مبهرة نحو عمق البحر مُتصادمة مع الضباب الواقع في المياه القريبة من الشاطئ لنختفي بعدها نحو مصير لا نعلمه.

عند فوز الليل على النهار ليعلن لنا أن الظلام مصير كلّ شيء منير، وأن الحياة وإن كانت جميلة جدًّا سيأتي اليوم الذي تتشعب سوادًا وتموت ذابلة بين صفحات السنين .

القدر هكذا، يدمج الجيد بالسيئ فيجعلنا نهيمُ في عمق الاثنين معًا.. فنغرق وعقلنا متشبع بالتناقضات.. لا يعلم أيها الجيد وأيُّها السيئ .

لا يعلم شيئًا عن سوداوية الوجود سوى أن الظلام رمز للشر، والليل منزل للشياطين.

الأمر ليس هكذا ولن يكون هكذا أبدًا.. ولكم في الشَّيخ (سالم) مثالًا على أن السيئ قد يكون في أوج النهار وبين عامة البشر محتميًا بستار النور .

كنت أنظر للنجوم والَّتي تشكل غطاء مُبهرًا للعين على هذه الأرض بأكملها.. وعقلي يذهب كلّ حين نحو شيء ليناقشهُ معي.

وكأنهُ يخبرني بأن التراجع عن كلِّ ما أفعله لا زال متاحًا !

وأن الحياة.. كلّ الحياة إن عُرف كلّ ما فيها من متغيبات عن عقولنا لن نستطيع تحمله .

ألم أقل قبلًا :

«بأن الجهل نعمة نجهلها !»

ولكن ورغم كلّ ذلك، أريد الاستمرار.. وتبريري على ذلك يكون دومًا .

(القدر لن يجعل هذا الأمر يتصادم معي إلا وقد يكون جزءًا من قدري وأنا مؤمن بالقدر)

قاطع تفكيري وغوصي في بحر التنازعات تلك الَّتي ترتدي خمارًا فقالت:

«هل أنت بخير!»

نظرت إلى عينيها بتأمل، وكأن سحرًا موضوع داخلهما.. بل وكأن العالم بأكمله قد تكون داخل عينيها قبل العالم نفسه.

عندها لم أقل سوى:

«من أنتِ؟!»

قالت لي:

«أنا نافعة ابنة صحراء العرب»

ابتسمت وقلتُ:

«من اليمن إذًا، وماذا تفعلين هنا!»

صمتت وقالت:

«لا تسأل يا (أحمد)»

لم أفهم ما تقصده بقولها فهذه الكلمة (لا تسأل) تعني واحدًا من اثنين، تقولها لتجعلني أعلم المعاناة الَّتي خاضتها للوصول إلى هنا أو تقولها بالطريقة التقليدية ممتنعة عن الإجابة.

فقلتُ:

«ولماذا؟!»

صمتت وظلَّتْ تنظر إليَّ.. فجاء صوت في داخلي يقول:

«سؤالك محرَّم يا (أحمد)»

علمت من هي تلك الدخيلة فقلتُ محاولًا إبعادها من داخل رأسي:

«اخرجي يا (ملائك) وابتعدي عني»

ظهرت (ملائك) في لمح البصر وقالت:

«استمع لما قالته لك، لا تسأل أي بشر هنا لماذا أنت معنا؟ »

علمت أن هناك أمرًا لا أفهمه ولكني لم أقل شيئًا بل تجاهلت الاثنتين وعاودت النظر للسماء، وكأنني أقول لهم باحترام: ارحلا من أمامي.

مع مرور الأيام على سطح بحر تلك السفينة تعرفت على الجميع فيها، ذلك الطفل والذي يحمل قردًا في كتفه دومًا يدعى (هُبير) والقرد (مرمر) وذو الرداء الأحمر يدعى (نمر) وهنالك رجل يمتلك

تقوُّسًا في ظهره يدعى (عامر) ورمح والذي يمتلك بشرة سوداء كالفحم وبنية ضخمة مخيفة.

وأخيرًا ذات الخمار نافعة والَّتي أصبحت أقرب إلي من نفسي فتأتي كلِّ ليلة عند تجمعنا وبيدها وعاء يحمل في داخله حساء لذيذ لم أذق مثلهُ قبلًا، فنتسامر طوال الليل حتّى يغلبنا النَّوم..

قلتُ لها يومًا:

«ألا تخافين من وجودك هنا معنا وأنت المرأة الوحيدة في هذه السفينة؟»

ضحكت وقالت:

«من الذي قال إنني الوحيدة هنا؟»

وأشارت بيدها على (ملائك) فقلتُ ساخرًا:

«صدقيني، تلك الشيطانة أبشع ممَّا تراه أعيننا، رغم بشاعتها في عيني الآن»

صمتت وظلَّتْ تنظر إلى (ملائك) والَّتي تحرك يديها في السَّماء وكأنَّها تحادث النجوم حديثًا لا نفهمه وقالت:

«الجن يا (أحمد) مخلوقات مثلنا تمامًا، يشعرون ويتألمون ويتفكرون في خلق الرب.. أن يعطيهم الله قدرات لا نمتلكها نحن هذا لا يعني أن نخاف منهم ونظن بأنهم شيء آخر، بعيد ومخيف»

أردت الحديث ولكن صدمة قوية جعلت كلّ شخص منا يبتعد عن الآخر ويكاد يسقط من سطح السفينة.. عندها سمعنا صوتًا غريبًا خارجًا من البحر.

فزاد الموج وتحركت السفينة يمينًا وشمالًا وكأنَّها تُعطينا تحذيرًا بأنَّها قد تضحي بنا في أي لحظة.

قالت (نافعة) بعد أن وقفت وتحركت إلى سور السفينة لتشاهد البحر:

«إنهم الحيتان البيضاء، تمسكوا ولا تصدروا صوتًا »

جاءني الفضول لرؤيتها رغم خوفي ممَّا يحدث فزحفت ناحية سور السفينة وأخرجت رأسي قليلًا، عندها نسيت الخوف والنطق في آن واحد ولم أستطع فعل شيء سوى النظر بوسع عيني ناحية البحر العاكس لنور القمر.

حيتان بيضاء كبيرة لدرجة مرعبة، بل قد يصل طول الواحد منها ثلاثة أضعاف هذه السّفينة المهترئة.

سمعت صوتًا يعلو ويقول لي:

«(أحمد) لا تجلس عند سور السفينة»

لقد كانت (ملائك) ولكني لم أكن مهتمًا بما قالته فالمنظر الذي أراه أمامي جعلني لا أستطيع التحكم بأي جزء من جسدي فأصبحت كالصنم تمامًا لا يتحرك فيني سوى عينيَّ.

زاد الصوت فأصبح كصوت بكاء ممزوج بعدة أصوات وفي لحظة واحدة حل السكون في المكان حتّى ظننا أن شيئًا ما سيحدث.

دائمًا السكون لا يجرُّ معه إلا عاصفة قاتلة.. وهذا ما حدث تمامًا.

قفزت إحدى الحيتان من فوق سفينتنا لأشاهد حجمها والذي غطى على السفينة فأصبحت كفأر في منزل عوج بن أعناق، هكذا أصبحنا.

نظرت للأعلى فشاهدت بطنه الممتلئة بالمجوهرات البحرية النادرة والَّتي تُضيء في ظلمة الليل وتُعطي الحوت منظرًا أسطوريًا على أعيننا رغم الخوف وشعورنا بقرب الأجل.

وعند عودته مجددًا للبحر تقاذفت علينا المياه من كلِّ جانب فسقطت بلا حول منِّي ولا قوة نحو البحر.

لا أعلم الكثير عما حدث ولكن وكأن الموت يحادثني بأن الوعد آتٍ ولقائي به قد حان أوانه.

أتعلمون يامن تقرؤون ما أكتبه لكم بأني لم أرد في تلك اللحظة شيئًا سوى قول جملة واحدة فقط والَّتي كانت كسكين في فمي لا أستطيع إخراجه.

(يا رب إني بريء ممَّا آل إليه قدري)

شاهدت وفي آخر لحظه تلك الحيتان الحائمة حولي تبتعد وشيء غريبٌ يسبح باتجاهي ويحملني نحو.. الأسفل.

أيكون موتًا قد جاء قبل عُهدتهِ

فتوالت عليَّ المُغريات من كلِّ صوب

فتحت عيني لأشاهد جسدي ملقى على إحدى الأحجار القريبة من الماء وشيئًا غريبًا ينظر إلي بترقب شديد. فركت عيني بكلِّ قوتي لعل الذي أراه يكون وهمًا لا غير ولكنهُ لم يزل.

عند اتضاح الرؤية نهضت من مكاني وشاهدتها، امرأة ذات شعر أسود طويل وعينين واسعتين سوداء بالكامل وتمتلك أذنين ذات زوايا من الأعلى.

لم أشاهد نصفها الآخر؛ نظرًا إلى أنها مغمورة داخل الماء ولكن فور غطسها ورحيلها شاهدت ذيلًا طويلًا يخرج من الماء ليلحقها مجددًا.

كنت أتمتم بصوت خافت:

«أيُعقل أن فتيات الماء متواجدات حقًا؟!»

لم يأخذ عقلي الكثير للتفكير بهذه المخلوقة فما شاهدته في المكان جعلني أنسى حتّى نفسي..

(مكان مليء بالصخور لا وجود للسماء فيه فيبدو وكأنهُ كهف رغم وجود المياه في أرضه. تلك الصخور مليئة بالأعشاب البحرية وبعض الأصداف ولآلئ البحر).

أصبحت أدورُ في المكان بحثًا عن مخرج وعند عجزي عن ذلك صرخت بكلِّ قوتي:

(أخرجوني من هنا)

فتكرر صوتي مرات كثيرة حتّى ظننت أن هنالك من يتسلى بخوفي، ولكن ظهر صوت آخر قائلًا:

«أصمت أيها البشري ولا تجلب لنفسك ولنا العناء»

نظرت في اتجاه الصوت لأشاهد شخصًا متكومًا على نفسه في إحدى زوايا المكان. يرتدي السواد لدرجة أنني لم أستطع تمييز

ملامحه فقلتُ:

«من أنت؟»

صمت ولم يجبني فأعدت السؤال ذاته:

«أخبرني من تكون؟»

قال بعد عناء مني:

«لا شأن لك»

اقتربت منه لرؤية ملامحه فنظر إليَّ بغضب عندها تراجعت للوراء خطوتين ثُمَّ قلتُ:

«بشري إذًا!»

قال بسخرية:

«وماذا ظننتني!»

قلتُ:

«لا أعلم، في الواقع ظننتك واحدًا منهم»

قال بصوت خافت بالكاد سمعته:

«الكهف هذا لا يدخله جانٌّ مملوكون، أي إن الجن الذين تمتلكهم أنت ليسوا معك الآن وكذلك أنا وغيرنا الكثير...»

أشار بيده ناحية مكان لا نور فيه فنظرت لوقت طويل حتّى اعتادت عيني على المكان وشاهدت الكثير من البشر يجلس كلٍّ واحد منهم في ركن متجاهلًا الآخر.

قلتُ بتعجب:

«ماذا نفعل جميعنا هنا، أيكون الكهف سجنًا لنا!»

قال رجل يرتدي البياض وفي يده سبحة العقيق كالَّتي كانت في يد الشَّيخ (سالم) ماعدا اختلاف اللون فسبحته مائله للاصفرار:

«كن هادئًا ليرون داخلك»

لم أفهم ولكني كففت عن السؤال فنحن العرب نمتلك كرامة وكبرياء في داخلنا، إن طلبنا من شخص شيئًا ولم يجبه لا نُعيد الكرة مرارًا، وإن كنا في أمس الحاجة لما طلبناه، والسؤال يُعد حاجة أيضًا.

أخذت ركنًا بعيدًا عن الجميع وعندها تذكرت الكتاب وظننت أنهُ قد تُلف نتيجة سقوطي في الماء.

بحثت عنه كالمجنون ولكني عند رؤيتي له وجدته كما هو لا أثر لتلامسه مع ماء البحر ففتحته وبدأت الانغماس في حروفه وكلماته.

(زمير)

روحانيّون وإن كذبوا وقالوا

فِي دربِ الكهانةِ سائِرون

لم يكن الأمر متوقعًا ل (غزل) أن يكبر ذلك الطفل بعيدًا عنها وبيد أكثر الخلق شرًا. ظنت أنها أيام معدودة فقط وتأخذه ليتربى بين يديها ولكن كلّ تلك التوقعات ذهبت أدراج الرِّياح الهائمة في أعالي السَّماء.

قالت لها (ملائك) بغضب:

«تلك العجوز الكاذبة جعلتنا نسرق لها الكحل الفرعوني فاستخدمته ضدنا»

لم تجاوبها (غزل) بل ظلَّتْ تنظر للصحراء المؤدية إلى منزل الكاهنة (رزق) وقالت بعد وقت طويل من سكونها:

«لم أتوقع يا(ملائك) أن تفعل بنا ما فعلته، ظننت أن العهد يظل عهدًا ما دمنا اتفقنا عليه شفهيًّا»

صمتت قليلًا ثُمَّ قالت بصوت أشبه بالهمس وكأنَّها تتحدث مع نفسها

«أيُعقل أن (رُمير) سيكون مثلها في المستقبل»

ربتت (ملائك) على كتفها وقالت:

«لقد فعلنا ما استطعنا للحفاظ عليه، ولكن انظري إلى القدر يا (غزل).. نحن الشياطين نحمي طفلًا بشريًا بينما البشر يحاولون أذيته»

قالت بغضب ردًّ على أختها:

«البشر دنيئون يا (ملائك)، يستخدمون الجن في سبيل ضر بعضهم البعض وحتّى بني جنسهم لم يسلموا من شرور أنفسهم. ولكني لن أكف عن النظر إليه كلِّ حين وإن كلف الأمر حياتي بأكملها»

وبعد ثوانٍ من جملتها حتّى اختفت الاثنتين فأصبحت الصحراء خاوية لا يُحرك سكونها سوى حبات الرمال المسروقة بفعل الرِّياح.

مرت سنوات وذلك الطفل يكبر بين يدي الكاهنة (رزق) وشياطينها، و(غزل) لم تستطع سوى النظر إليه من مكان بعيد خوفًا على نفسها من تلك الساحرة ولكن وبعد أن أصبح عمر (رُمير) خمسة عشر عامًا أرادت بشدِّة أن تُحادثه ولو لمرة واحدة فطوال تلك السنوات لم تستطع الاقتراب منه ولكن ها هي الفرصة تأتي مُعلنة ل (غزل) أن الفرج يأتي ولو بعد حين.

عند خروج (رُمير) للتنزه بعيدًا عن منزل الساحرة (رزق) تشكلت على شكل أنثى غجرية وخرجت إليه رغم رفض أختها لما تفعله.

فقال فور رؤيتها:

«من تكونين؟»

قالت بابتسامة:

«تائهة لا أعلم أي الطرق طريقي»

فقال بسخرية:

«لو كان شكلك عربيًا لقُلتُ أنكِ من بلاد العرب المتواجدة جنوب هذا المكان، ولكنني لم أشاهد مثلك قبلًا هنا»

فقالت:

«قد أكون من بلاد أخرى، فهذه الدُّنيا تحوي الكثير يا (رُمير)»

ابتسم وقال:

«سأقول لكِ من أين جئتِ ولكن لتُمسكِي يدي»

اقتربت رغم خوفها منه فهي لا تعلم ما الذي يريد فعله. رغم أن أختها تحذرها من بعيد ألّا تفعل ولكنِّها فعلت ما طلبه متجاهلة تحذيرات أختها وشعورها في آنٍ واحد.

فور تلامس يدها مع يده حتّى أمسك يدها بكلِّ قوته وقال:

«من بلاد الجن والشياطين أنتِ»

فتحت عينيها بأكملها من شدِّة المفاجأة وحاولت سحب يدها ولكنِّها لم تستطع.

(عندما يمسك جني يد بشري برغبته تُصبح هنالك ثغرات في يد الاثنين والمسيطر يتحكم بالآخر وفي الغالب البشر يُسيطرون على الجن في هذا الموقف ونادرًا ما يكون العكس)

قالت لها (ملائك) بخوف:

«غزل حاولي الإفلات منه فقط أفلتي يدك وسأبعدك بنفسي»

ولكن (رُمير) ظل يتمتم ببعض الطلاسم والَّتي أصبحت كالقيد في جسدها عندها قالت (غزل) لأختها برجاء:

«ارحلي قبل أن نُمسك كلينا وأخبري والدي»

لم تعلم (ملائك) ما تفعله في تلك الحالة ولكنَّها وبعد لحظات فضلّت ما نصحتها به أختها خصوصًا عند رؤيتها لشياطين (رزق) قادمين.

ركضت بكلِّ سرعتها إلى مملكتها (مملكة الشياطين) الموجودة في البحر ذي الكثافة الغيمية العالية جدًّا لتخبر والدها كلَّ ما حدث لعله ينقذ (غزل) قبل فوات الأوان.

ولكن وعند وصولها لم تجد سوى بركة من دماء جنود والدها وجميع عشيرتها ينظرون للموقف ببرود شديد.

نظرت إلى الجثث المُلقاة هنا وهناك باحثة عن والدها لعلها تجده لا لشيء سوى الاطمئنان عليه فموضوع (غزل) قد ذهب من عقلها حالما شاهدت ما شاهدته.

ولكن وعند التفات رأسها ناحية شمال المكان حتّى وجدت جسد والدها بالكاد يلتقط أنفاسه الأخيرة والدماء كالسيل من تحته.

فركضت إليه وأمسكت يده بكلِّ قوتها وتلك الدموع في عينيها قد زاد سيلُها:

«أرجوك لا تتركني.. أحتاجك أنا لا أستطيع البقاء دونك، و(غزل) أيضًا لا تستطيع يا أبي»

أمسك بيدها رغم شدِّة الألم الناتج عما فعله وقال:

«اهربي، أنتِ و(غزل) لم يعد المكان آمنًا لكم»

لم تفهم شيئًا ولكن شيئًا ما قد قُذف عليها لتنظر للوراء وتشاهد أبناء عشيرتها يقذفون عليها بالأحجار ويصرخون:

«خائنة، أنت السبب في كلِّ ما حدث هنا.. أنت وأختك كفرتم بالعهد واعطيتم تلك الساحرة السبيل لهلاكنا»

أرادت فهم ما يقولونه ولكن يد والدها والَّتي تضغط على يدها بكلِّ قوتها جعلتها لا تُلقي سوى لوالدها بالًا فقال برجاء والدها خائف على ابنته من غضب أبناء عشيرته وما حولها:

«اهربي ولا تعودي، حالما أموت سيتم قتلك وقتل (غزل) لقد حاولت حمايتكم بكلِّ ما أوتيت من قوة ولكني فشلت»

الجميع واقف منتظرًا موت والد (ملائك) و(غزل) ملك العشيرة (آزر) حتّى يتم تعيين ملك آخر وأول شيء يفعله الملك قبل توليه الحكم هو قتل أبناء الملك السابق.

(بغض النظر عن الذنب الذي فعلته فإن مات الملك وعُين ملكًا آخر عندها يتم قتل جميع أبناء الملك السابق وإن كانوا متطهرين من الذنوب الَّتي تُبيح قتلهم.. عشائر الجن بأكملها تفعل هذا الأمر)

ولكنِّها قالت:

«لن أتركك تصارع الموت نتيجة طيشي وأولي هاربة»

حرَّك يده لتقترب منه وقال:

«أريد منكِ شيئًا واحدًا تفعلينه وسأسامحك، أنقذي أختك أو

قومي بقتلها يا (ملائك)»

نظرت إليه برعب ممَّا قاله أن تقتل أختها أمر من المستحيل أن تفعله ولكن وقبل الاعتراض على ما أمرها به (آزر) قد فارقت روحه جسده ليتحرك جميع الجن بدلًا من أخذ جثة والدها ودفنه، قاموا برفع ابن عمها (طرد قل) ليكون الملك الأعظم.

عندها وقبل أن يُصدر الأمر الذي تعلمه تمامًا أمسكت بجثة والدها وهربت من ذلك المكان الذي كان بيتًا لها في يوم ما.

بعد ابتعادها بمئات الآلاف من الأقدام البشرية وصلت إلى مجموعة جبال تدعى جبال السلاسل وسبب تسمية هذا الاسم أن هذه الجبال تمتد مع بعضها البعض وتترابط مكونه شكلًا كالسلاسل.

دفنت والدها عند قمة أعلى جبل من تلك الجبال ووضعت في قبره زهرة العرين والَّتي تكون سوداء بالكامل ما عدا بضع نقاط منها يكون أبيض ممتلئًا بالضوء البراق فتُعطي منظرًا للناظرين وكأن الليل والنهار قد توحّدا بداخلها.

تلك الوردة تُرمى على قبور أموات الجن كوردة وداع ولقاء في عالم آخر، عالم الخُلد.

وظلَّتْ طوال اليوم تبكي قبر والدها حتّى سال الدمع من السَّماء مواسيًا لتلك الفتاة الَّتي لم تعد تمتلك شيئًا سوى قلب أسود وعين تكادُ تفقد نتيجة بكائها.

قلبت الصَّفحة لأكمل ما حصل ولكن لم تكن هنالك تكملة للقصَّة بل كلِّ ما وجدته عدة أسطر وكأنَّها موجهة لي:

أعلم أنك تشعر بالخوف وعزاؤك الوحيد ما أسطره في هذه الأوراق المُهترئة بفضل الزمن، ولكن لتكن واثقًا أن السَّماء تُنبت

في أعيننا مخرجًا وإن لم نره. فكلما اشتد العناء واشتدت أيدي الشياطين حولك، وكلما تعانقت الكربات لتُضيق على مسلكك الذي اختارته لك الحياة يُصبح الفرج أقرب من رمش عينيك ومن نبضات قلبك وظل جسدك.

لا تجلس هائمًا يا من ملكت ما ملكته سابقًا، بل قف وقاتل كقتال العرب في أوج حروبهم. فإن قالوا قد كان سيئًا سيقولون أيضًا وشجاعًا وقف رافعًا رأسه ضد كربات ما صنعته له الأقدار.

عزاؤنا نحن أبواب الجحيم ومدخلو الشياطين في عالمنا أننا نمتلك الشجاعة الَّتي افتقدها الكثير من بني آدم.

أقفلت الكتاب ووضعته في مكأنهُ وعقلي يُبحر بعيدًا حول ما قرأته عيناي. في الواقع، عقلي بدأ بخُذلاني والهروب بعيدًا بسبب ما أواجهه. حياتي والَّتي كانت في بدايتها بمنتهى الواقعية ولا غرابة بها حتّى بدأت بالاندماج مع عالم لم أختره بل إن الاختيار يأتي جبريًّا.. كنت أتوقع بأن الغرابة والاندماج بعالمهم لا يأخذ سوى جزء من حياتي ولكن وفي هذه اللحظة علمت أني قد انغمست في عالم لا رجعة منه.

وكلما، كلما أحاول البحث عن مخرج يُعيدني إلى حياتي السابقة ألقاني غارقًا إلى حد الاختناق.

أصبحتُ أتمتمُ مع ذاتي كالمجنون في وكرٍ مُمتلئ بالمُتقاربين من حالتي:

«كيف سينتهي بي المطاف، هل سأموت منتحرًا كوالدي أم أن نهايتي كنهاية الشَّيخ (سالم) سوف تكون»

أجابني صوت وكأنهُ قد كان مُنصتًا لي منذُ وقت طويل:

«النهايات يستحيل أن تكون مُماثلة وإن كانت الطرق مُتشابهة»

تلفت يمينًا وشمالًا بحثًا عن مصدر الصوت ولكن وبعد يأسي من إيجاده قلتُ:

«لا تقل لي أنك بشري تائه أخذتك الظروف إلى مستنقع الشياطين، مثلي تمامًا»

ضحك الصوت ثُمَّ قال:

«لا»

قلتُ بعد صمتي لوقت طويل ظنًا أن الصوت سوف يكمل مُفصَّلًا كلمته:

«إذًا من تكون؟»

صمت ولم يتحدَّث، انتظرت لوقت طويل ولكن لم يعد الصوت للتحدث. نهضت من مكاني وأصبحت أمشي بين القاعدين من

البشر ولكن لا أحد يلتفت إليَّ فعلمت أن الصوت لم يكن صادرًا من أي شخص منهم.

في الواقع، لقد أصبت بالقشعريرة عندما خطوتُ بينهم، وفجأة صوت في داخلي يشبه صوتي فظننت أن نفسي تُحادثني قائلةً:

«انظر إلى وجوههم يا (أحمد)، كأن البؤس والعذاب مطبوعٌ في ظاهرها. أتعلم من هؤلاء يا (أحمد)!، شياطين البشر.

هؤلاء هم شياطين البشر الذين لم ولن يلتقون مع بعضهم في أي مكان آخر غير هذا المكان. مُكرهين وبلا رغبة رغم أنهم قد خطو إلى المكان مُخيرين. أتعلم لِمَ؟!

رغم أن البشر والعرب خصوصًا يهابون ما لا يعلمون عنهُ شيئًا ولكن طمعهم للوصول إلى القمة يجعلهم يقذفون كلَّ ما يشعرون بهِ لأجل ذلك. يقذفون إيمانهم وعقلهم وشعور قلوبهم لأجل ما يتمنون فانظر إلى وجوههم اليوم! لقد خسروا الروح، ولا أعني بذلك الروح بالمعنى الحرفي بل الروح في ظاهرهم فأصبحت روحهم سوداء ميتة من الداخل رغم أنها حيَّة فتُشع البؤس والهالات السوداء في الوجه والجسد».

ابتعدتُ عن مكان تواجدهم وذهبتُ لمكان أبعد من السابق لكيلا أتصادم بهم. لم أفهم ما تعنيه نفسي ولم أكن مصدقًا لها أساسًا، في الواقع لقد ظننتها قد شارفت على اعتلاء قمة الجنون ولكن ما جعلني أبتعد هو ذلك الشعور الذي انتابني، شعور النفور والبغض. هُنالك العديد من البشر قد نكون لم نراهم قبلًا ولكن عند مقابلتهم وقبل أن ينطقوا بأي حرف نشعر باتجاههم بالنفور هذا الشيء ممكن ويحدث كثيرًا ولكن أن ننفر من مجموعة بأكملها في نفس الوقت فهذا أمر غريب.

بتلك اللحظة تذكّرتُ شياطيني وطاقم سفينتي فنهضت مسرعًا باحثًا عن مخرج ولكن لا وجود له. عندها حاولت كمحاولة أخيرة التحدث بصوت عالٍ قليلًا مناديًا لهم ظنًا بأنهم قد يكونون حولي منتظرين سؤالي عنهم:

«(ملائك)، (أهريمان)، (كادل) و(عُمير) اظهروالي بحق العهود بيننا»

ولكن لم يظهر أحد فأصبحت أكرِّرها وبصوت أعلى وأعلى ولكن لا وجود لأي منهم. عندها ضحك ذلك الرجل والذي قد تحدث معي عند وصولي وقال:

«ألم أقل لك بأن الشياطين الَّتي نمتلكها لا تدخل هنا»

قلتُ بذهول:

«وهل تمتلك شياطين؟!»

ضحك الجميع منِّي وكأنني قد قلتُ نكتة فأصبح الكهف صاخبًا نتيجة الضحك لدرجة أن هنالك أشخاصًا لم أنتبه لهم ولكني انتبهت لهم نتيجة ضحكاتهم فقلتُ:

«اعذروني ولكن، هل قلتُ شيئًا خاطئًا؟»

نهض الرجل من مكأنهُ واقترب منِّي وقال:

«لماذا أنت هنا؟!»

قلتُ بتوتر:

«كنت أبحر مع طاقمي وغرقتُ في البحر نتيجة الحيتان البيضاء ولكن شيئًا ما جلبني إلى هذا المكان»

فنظر إليَّ بدهشة وقال:

«أنت لا تعرف هذا المكان ولم تتعنّ للوصول إليه!»

قلتُ بسذاجة:

«وماذا يكون يا سيدي هل لك إخباري؟»

ظلَّ يتأمَّلني قليلًا ثُمَّ قال:

«ادْعُ الله أن يختارك واحدًا منهم»

ثُمَّ تركني وعاد لمكأنهُ مواصلًا التسبيح بتلك الأحجار

لم أسأل بل تجاهلتُ الجميع وذهبتُ إلى أبعد نقطة ثُمَّ فرشتُ الأرض بردائي ونمت. أعلم جيِّدًا بأن أي شخص قد كان في مكاني وواجه ما واجهته هنا لما استطاع النَّوم ولكن وبصدق (لم أكن خائفًا).

لم أكن خائفًا من أي شخص هنا، قد أكون مشمئزًا من وجههم ومن غرابة المكان ومن المجهول والألغاز المحيطة هنا.. ولكني لم أكن خائفًا.

فما واجهتهُ في حياتي قد أعطاني مانعًا فولاذيًّا ضدّ الخوف وضدّ صدمات العقل. ألم يقولوا إن أي شخص لا يكسرك ويأخذ عقلك سيكون سببًا في قوتك! هذا ما أشعر به الآن.

نمتُ بلا شعور رغم أني لم أكن آمنًا بسبب المتواجدين في المكان ولكن إيماني بأن الموت إن جاء للشخص لا يرده شيء بهذه الدُّنيا

أجمع جعلني مُتيقنًا أني لن أموت قبل موتي، ولن أعيش إن كُتب لي الموت.

شعرتُ عند خلودي للنّوم بيد شخص تحاول الإمساك بيدي فنهضت من نومي مسرعًا بعد سحبي ليدي لأُفاجَأ بالعديد منهم قريبًا منِّي لدرجة أني من شدِّة الفزع لم أستطع النطق.

كل ما فعلته هو الابتعاد عن المكان بكلِّ سرعتي لأذهب إلى إحدى الزوايا الخالية من هؤلاءِ وقلتُ:

«هل لديكم مرض في عقولكم؟! ماذا أردتم فعله بي؟»

اقترب نفس الشَّخص والذي كان يحاول قبلًا إمساك يدي لفعل شيء لا أعلمه بها وأشار إليها. نظرت إلى يدي باحثًا عن سبب هذه الأفعال المرعبة منهم لأشاهد في أصابعي خاتمين لا لون لهما ولا أعلم من أي الأحجار صُنِعا.

قلتُ بسخرية:

«هل هذان الخاتمان لك؟! ولكن لماذا وضعتهما بيدي؟»

ولكنهُ قال:

«أعطني تلك الخواتم وإلا صدقني سأقطع يدك»

اقترب البشر بأكملهم في ذلك المكان إليَّ وأياديهم تُشير إلى تلك الخواتم وكأنَّها كنز أو شيء لا يُقدر بثمن. أخرجتهم من يدي وقذفتهم

بعيدًا، فركض الجميع ناحيتها حتّى أصبحوا يتقاتلون فيما بينهم للحصول على تلك الخواتم.

شعرت بالغرابة والذهول ممَّا رأيت، هل يعقل أن هؤلاء الخواتم ذوي قيمة لدرجة قتل بعضهم بعضًا. رغم ذلك لم أقترب من تلك البقعة الَّتي يتقاتلون فيها بل ابتعدت وجلست في مكان بعيد لا أحد فيه وبقيت أراقبهم منتظرًا من الذي سيحصل على تلك الخواتم، وماذا سيفعل بها؟

بعد وقت طويل من مقاتلتهم لبعضهم البعض وموت الكثير منهم أعلنوا الاستسلام ليفوز بتلك الخواتم شخص يُلقب بِ ذي المخالب ولا أعلم صراحة سبب تلك التسمية.

عاد الجميع إلى أماكنهم وكأن شيئًا لم يكن، وتلك الجثث بقيت مكانها لا أحد اهتم بها. كان يرتدي (ذو المخالب) قلنسوة ذات لون أسود ولكنِّها قد أزاحت نفسها لتكشف وجههُ بالكامل نتيجة الصِّراع الذي حصل.

فنظرت إليه بتركيز كبير لتمييز شكله في هذه الأنوار الخافتة. لا يملك شعرًا بل كلّ ما يملكه في رأسه بعض الرسومات الغريبة باللون الأسود محفورة في رأسه وكانت لحروف لا علم لي عن مصدرها.

ووجهه ممتلئ بالتجاعيد ولكن وفي ذات الوقت يُعطيك شعورًا أن هذا الرجل لم يتجاوز العشرين من عمره بعد.. كيف! لا أعلم ولكن هذا ما شعرتُ به وقتها.

قال بعد أن ضحك كالمجانين ليتردد صوت ضحكاته في المكان

«إلى اللقاء أيُّها الجرذان، أو لأقول لكم وداعًا»

وصرخ بكلِّ قوته:

«افتحي أبواب هذا الكهف لي يا (أرابينسا)»

ظهر صوت جميل من العدم لامرأة قائلة:

«كم حصدت؟»

قال بكبرياء بعد أن رفع يده:

«خاتمين»

فُتحت بوَّابة في السقف وعند رؤيتك لها تُشاهد البحر والحيتان وبنات البحر يسبحون من فوقك، فركت عينيَّ خوفًا أن ما أشاهده ليس سوى وهم ولكنه لم يكن كذلك أبدًا، بل هذه الحقيقة، حقيقة لا يستطيع تصدقيها أحد سوى من شهدت على رؤيتها عيناه.

وقف أسفل تلك الفتحة تحت مياه البحر والَّتي لا أعلم سبب عدم سقوطها علينا وإغراقنا. وبعد لحظات حتّى سُحب إلى الأعلى بلا أي قوة وكأن الجاذبية الأرضية لم تعد تؤثر عليه.

اختفى، وعمَّ السكون المكان، ولكن تلك البوابة لم تُقفل فمشيت بتردد؛ لأقترب منها ومشاهدتها ولكن عند اقترابي سقطت يد مقطوعة من الأعلى ففُزعت ومشيت للوراء خوفًا.

بعدها أقفلت البوَّابة لأتقدم مجدَّدًا ناحية اليد المقطوعة وعلمتُ حينها عن صاحبها، لقد كان هو نفسه ذا المخالب.

تعرفت على يده بسبب تلك الخواتم والَّتي كانت ملكي قبل أن يسطو عليها. ولكني لم أفعل شيئًا لتلك اليد سوى أني حملتها ووضعتها مع باقي الجثث، ولم أكترث للخواتم بل إني شعرت في داخلي أنها هي سبب البلاء وشكرت الله أن أخذها مني.

مرَّ الوقت بطيئًا ولأول مرة منذُ مشيت على دربٍ يتعوذ منه الكثيرون، أشعر بالجوع والعطش. فاقتربت من أولئك المتقوقعين حول ذاتهم لعليَّ أعلم منهم أي شيء عما يحدث وسبيل الخروج مِن هنا.

لفتني شخص منهم يبكي ولكنه يحاول أن يخفي بكاءه بكلِّ ما تستطيع يديه تغطيته.

اقتربت منه وربت على كتفه وقلتُ:

«هوِّن عليك، سنخرج من هنا قريبًا»

نظر إليَّ لبعض الوقت وقال:

«صدقني لن نستطيع الخروج ما لم نحصل على بعض سكان المكان»

لم أفهم ما يقصده فقلتُ:

«أرجوك، لم أترجَّ شخصًا قبل في حياتي ولكني اليوم سأقذف بكبريائي جانبًا وأرجوك أن تخبرني كلِّ شيء تعرفه عن هذا المكان»

مسح الدموع من عينيه بطرف ردائه وهزَّ رأسه موافقًا ثُمَّ قال:

«أُدعى (خوسيم)، مُتلمذًا على يد أعظم الكهنة في أرض فارس (البشير أبو الأصفهاني).. أحببته كثيرًا وأردت أن أكون مثله يومًا ما ولكنه لم يكن يريد تعليمي الشيء الكثير عن أمور السحر والكهانة بل كان يقول لي دومًا:

«يجب أن تتعلّم التحكم في جسدك وعقلك أولًا قبل التحكم بذوي الحرفين»

لم أفهم ما يعنيه ولكن كلِّ المهام الَّتي يُعطيني إياها كانت بعيدة كلِّ البعد عن الكهانة، وأقرب إلى عبد ذليل يريد رضا سيِّده عنه.

ذات يوم عندما كنتُ أنظف منزل (البشير أبو الأصفهاني) من مياه الأمطار بينما كان يقص على العديد من التلاميذ الطرق الصحيحة لاستدعاء القرين. كنت حزينًا وقلبي مفطور من هذه المعاملة القاسية. أيكون بسبب يتمي وعدم إمكانية والدتي على الدفع له.

أم يكون بسبب ضعفي وقلة مقدرتي على هذه الأمور.

العديد من الأمور دخلت عقلي في تلك اللحظة والكثير من المشاعر الغريبة احتلَّت صدري بأكمله. كرهٌ وحقد وبغض لأولئك المتنعمين بعلمه بينما أنا أقذف بهذه المياه خارجًا.

عندها جاءني شخص من بعيد يرتدي رداءً أسود فضفاضًا كرداء بعض قبائل الشمال العربية، وعينهُ مغلفة بالسواد نتيجة الكحل الفرعوني والذي أعرفه جيِّدًا، فالكحل الفرعوني مطلب الكهنة وأعلى أحلامهم، ونحن نستطيع تمييزه إن كان في عين الشخص أو بالشكل الخاص به.

قلتُ بعد أن توقَّفت عن القيام بما كنت أفعله:

«من أنت يا سيدي؟»

ابتسم وقال:

«هل السيد (بشير أبو الأصفهاني) موجود؟!»

تركت ما في يدي وأردتُ الذهاب لمناداته ولكنه منعني قائلًا:

«إن كان مشغولًا سأنتظره»

قلتُ له:

«يُعطي تلاميذهِ درسًا»

نظر إليَّ ثُمَّ قال:

«ولماذا لست معهم يا بني، هل أنت تلميذ أم خادم؟»

أصابني التوتر ممَّا قاله ولساني شُلَّ عن الكلام فصمتُّ، عندها قال:

«أرجوك لا تخبرني أنك تلميذه ويُعاملك هكذا»

ثُمَّ تمتم بصوت خافت بالكاد سمعته:

«يا إلهي حتّى هذا اليوم و(بشير) لا يتغيَّر»

سألته:

«ما الّذي تقصده»

فقال بعد أن اقترب منِّي حتّى لم يبقَ بيني وبينه مساحة فشعرت بالحر الشديد وكأن نارًا مشتعلة أمامي:

«لقد فعل بي كما فعل بك الآن، أتعلم لماذا؟! لأنهُ يهاب الأقوياء أمثالنا»

قلتُ بارتباك:

«أتقصد أني قوي؟!»

قال:

«شيء مؤكد ف (بشير) يخشى أن تتغلّب عليه فيقول الجميع قد غلب التلميذ أستاذه فهو يشعر بالنقص. لقد فعل بي مثلما فعل بك الآن، تركني أنظف له منزله وأخذ البقية من الطلبة لتعليمهم طوال خمس عشرة سنة ولكني فطنتُ متأخرًا»

قلتُ لهُ ونفسي أصبحت معتزة بوهم قدرتها:

«ماذا عليَّ أن أفعل؟»

ابتسم بخبث وقال:

«اسرق عهوده مع الشياطين وأتلفها بواسطة العهود المعاكسة لها عندها صدِّقني ستحصل على الكثير من الجن والشياطين لخدمتك»

ثُمَّ ابتعد حتّى أصبحت لا أستطيع تمييز وجهه نتيجة مياه الأمطار الهابطة، ورفع يديه وكأنهُ يوشك على الطيران.

ثُمَّ صرخ قائلًا:

«افعلها يا (خوسيم) وسوف ترى قدرتك تتحرر أمام عينيك»

وبلمح البصر اختفى وكأنهُ لم يكن قبل قليل أمامي..

انتابني الغرور ممَّا قاله وسرقت العهود بعدها بأيام وتلك العهود المعاكسة قرأتها فتحرر الشياطين والجن من يد البشير أبو الأصفهاني.

أتعلم أول شيء فعلوه عند تحررهم! لقد قتلوه.. قتلوه بطريقة لا أستطيع وصفها فكلما أتذكر ما حدث أشعر بالذنب الشديد وتبدأ عيناي بالبكاء.

بعدها أصبح يظهر لي ذلك الشخص كثيرًا حتّى علمتُ بأنهُ إحدى شياطين البشير سابقًا وما فعله لي ليس لخدمتي بل لاستغفالي لأصنع له ما يريد.. حريته!

أصبح يتحكم بي وكأنني عبدٌ لديه، كأن أشتغل في أمور الكهانة السوداء من سحر وجلب وقتل وتفرقة.

اشتغلت في هذه الأمور لثلاث سنوات تحت ضغط منه وأصبحت معروفًا في الليل منبوذًا في النّهار.

كان النَّاس يأتون إليَّ ليلًا لفعل ما تريده نفوسهم من محرمات ويتعوذون منِّي نهارًا.. أليس شيئًا غريبًا؟!

بعد ثلاث سنوات قررت الهرب عند سماعي بهذا المكان وأني أستطيع فيه الحصول على أقوى الشياطين فيصبحون تحت خدمتي لا العكس.

طوقت جسدي بطلاسم تمنع رؤية الشياطين لي لوقت محدد وجئتُ من بلاد فارس إلى هنا في رحلة مدتها أربعة أشهر كاملة»

توقف عن الكلام فقلتُ له:

«ومنذُ متى أنت في هذا المكان»

نظر إليَّ لوقت طويل ثُمَّ قال:

«عشرون سنة»

فتحت عيني بأكملها من شدِّة دهشتي ممَّا قاله ولكني تمالكت نفسي وقلتُ:

«بلا طعام ولا شراب وكل هذه المدة لم تعثر على شيطان يريد خدمتك»

قال لي:

«نأكل الأموات منا كلما شعرنا بقربنا من الموت وعن الماء تلك البركة الَّتي خرجت منها لا ملح فيها نشرب منها كلما عطشنا»

كنت أشعر بالجوع والعطش الشديد والذي حاولت السيطرة عليه لوقت طويل ولكني لم أعد أتحمل فركضت مسرعًا ناحية الماء حالما قال لي ذلك وشربت حتّى ارتويت.

في الواقع كان الماء لا ملح فيه هذا صحيح ولكن طعمه كان غريبًا كطعم الصديد.

اقتربتُ منه بعد ما فعلتُ وقلتُ:

«كيف نستطيع أخذ الشياطين من هنا؟»

قال لي:

«لقد فعلت ذلك مسبقًا فالخواتم الَّتي كانت في يدك عند نهوضك من نومك تعني أن هنالك اثنين من الشياطين أرادا خدمتك. وعندما سرقها منك ذو المخالب وفُتحت له البوابة ليخرج ولكنه بدلًا من من ذلك قتل، هذا يعني شيئين إمّا أن الشيطانين لا يريدأنهُ ولم يدافعا عنه عند مواجهته حارسة الكهف أو أنهم أضعف منها فقُتلوا وقُتل معهم»

قلتُ برعب:

«إذًا فهذا يعني أن الحصول على شيطان ليس الأمر الوحيد بل لا بُدَّ أن يكون قويًّا»

قال مؤيّدًا كلامي:

«هذا صحيح»

أمسكتُ رأسي بيدي وقلتُ:

«وكيف نستطيع أن نعرف إن كان الشيطان الذي اختارنا قويًا أو لا»

قال:

«لا أعلم، في الواقع نحن نعتمد على كثرة الخواتم فتجميع الشياطين قد يستطيع القضاء عليها أفضل من شيطان واحد»

صمت وابتعدت وعقلي أصبح غارقًا في التفكير فاحتمالية أن أبقى يوم آخر في هذا المكان تخنقني فكيف بِ عشرين عامًا!

قررتُ أخذ كتاب الشَّيخ (سالم) من جيبي وفتحه لعلّ فيه إرشادًا لشيء عن هذا المكان.

(أرابينسا)

اقرأ أسطر جدراني وكُن تحت رحمتي

فهذه البحارُ لي

ومخلوقات الربِّ تعيشُ على خدمتي

وأنت يا مَنْ جلبك القدر خاضعًا

لأجل شرور نفسك

وإرضاء الشَّياطين حولك

اليوم بين يدي

(أرابينسا)

تلك الكلمات الَّتي شاهدتها في هذا الكهف القابع بين حدود بحر العرب وبحر (لاروي)، جعلتني أرتعب في داخلي وأشعر بأن شيئًا خطيرًا سوف يحدث لي. كنت أعلم القليل عن هذا الكهف والذي يُعد للكثيرين أسطورة يتناقلها العرب في ترحالهم لأجل تمضية الوقت لا أكثر وهذا ما جعلها منتشرة على حد قولهم، ولا أنكر أني قد صدقت عدم وجودها في يوم من أيام حياتي ولكن الآن وعند النظر لها أجدني مصدقًا لا محالة.

كهف (أرابينسا)، كهف الكهنة وتجميع قوة الشياطين والمردة للعلو في هذه الدُّنيا. سأقول لك شيئًا يا من تقرأني، انظر إلى هذه الدُّنيا بأكملها ستُشاهد الكثير يَدعون الكهانة وقد يصدقون وإن كذبوا، فالكاهن لا يحتاج في حياته سوى بعضِ الشجاعة وتقبُّلٍ لمخلوقات الربّ وإن كانوا يبثّون الخوف في نفسه.

ولكن قليل، قليل جدًّا منهم يمتلك الروحانيّة، والروحانيّة لا تأتي للشخص لمجرد شجاعته أو قدرته على تقبل ما تراه عينه، بل هي أعمق، أعمق بكثير من ذلك.

التخلص من الشعور بالجسد المحيط بالروح يُعد الخطوة الأولى في الروحانيّة، أن تشعر بأنك حر بلا قيود وأنك تستطيع بروحك الذهاب إلى أعالي السَّماء تاركًا جسدك طريحًا خاويًا في عمق الأرض.

أن تنظر للأمور من داخلك فتُشاهد ما يخفى على سائر البشر، وعقلك يبدأ بالتفكير بطريقة مختلفة تمامًا عن الآخرين. فتبتعد نفسك عن الانغماس بحب الذات والوقوع في حُفر الشهوات

الدنيويّة. لتعلو، تعلو نحو السَّماء بقدسيتها ومكانتها العالية.. فترى ما يراه الجميع أمنية وغاية ليكون في ناظرها شيءٌ واهنٌ منغمسٌ بالسواد. تلك هي الروحانيّة الَّتي لا يستطيع الكثير الوصول لها. فإن وصلت لها يومًا ستكون قد حققت في داخلك قبل الخارج السّلام والطمأنينة بين النفس والعقل ووخزات الضمير لذوي القلوب الخاشية لربها.

ويجب أن تعلم بأن الروحانية تنقسم لأقسام عديدة منها ما يأتي عن طريق الصدفة ويكون ك مكرمة من هذه الحياة. ومنها ما يأتي من عن طريق جهاد النفس وسد ثغراتها والبحث عن الطرق المؤدية لها كالذي أفعله وتفعله أنت الآن.

كهف (أرابينسا) ليس فقط المكان المناسب للبحث عن أقوياء الجان لتملكهم برغبتهم بل هو المكان الذي تستطيع فيه اكتساب روحانيتك بعيدًا عن تميز الحياة.

وكلما تعلو وتقترب من روحك مبتعدًا عن جسدك ستقترب منك تلك المخلوقات بصالحها وسيئها فتستخدمهم كيفما تشاء إمّا شرًا وإما نفعًا.

لا عهود ولا خوف منهم فهم طوع يدك حتّى الممات..

قلَّبت الصفحات كعادتى متجاهلًا ما يحدث لي كلما انتهى الكتاب عن بث ما يريده بعقلي فتظهر تلك الصفحات البيضاء لتعلن نهاية ما قرر هذا الكتاب الغريب عرضهُ لي.

في الواقع، كثيرًا ما فكرت بأمر هذا الكتاب الغريب، تختفي قصَّة وتظهر أخرى وكأنهُ حي يشعر بي. بل وكأن هذا الكتاب لغز لا حل له، أيعقل أن يكون هذا الكتاب يحمل العديد من الطلاسم الَّتي تحميه؟!

أصبحتُ أقلب في الكتاب يمينًا وشمالًا باحثًا عن إجابة لسؤالي فشاهدتُ الغلاف قد نُحِتَ في منتصفه كلمة بخط كبير بعض الشيء:

(العرين)

لا أعلم هل كان الكتاب يمتلك اسمًا منذُ امتلاكي له، ولم أنتبه لذلك أم أنهُ كتب اسمه في هذه اللحظة. في الواقع، لم أعد أعلم أي شيء ولكني في ذات الوقت أصبحت أتقبل غرائب الحياة وإن كانت أشد غرابة من الغرابة نفسها.

من ذا الذي يصدق أن يكون هنالك كهف كهذا في باطن البحر، يحرسه شيء غريب لا أعلم ماهيته ويقتلك إن حاولت الخروج منه. بل من ذا الذي يصدق أولئك الذين كانوا معي على متن السفينة؟ جميعها تناقض العقل فما العيب أن أقذف بعقلي بعيدًا وأتقبل جميع هذه الغرائب بصدر رحب.

غلبني النعاس ونمت بلا شعور ناسيًا أن أضع ذلك الكتاب في جيبي، وبعد ساعات من النَّوم نهضت لأجد عشرات الخواتم قد ملأت أصابعي عندها بلا شعور نظرتُ لجميع الاتجاهات خوفًا من

تجمهرهم عليَّ كالمرة السابقة لأخذ الخواتم ولكنهم كانوا متجمعين حقًا ولكن في مكان آخر.

اقتربت منهم لمشاهدة سبب التجمهر فوجدتُ كتابي مع (خوسيم) يتفحصه مُتعجبًا والجميع حوله.

صرخت بغضب بعد سحبي الكتاب من يديه وقلتُ:

«كيف تجرؤ على أخذ شيء منِّي بلا إذن؟»

نهض من مكأنهُ وقال لي:

«من أين لك هذا الكتاب؟ »

قلتُ له مستنكرًا قوة عينه وخلو وجهه من مائها:

«ألا تخجل من نفسك؟!»

قال شخص منهم:

«كيف لهذا الكتاب أن يكون معك؟»

فقال آخر مُتجاهلًا أني أسمعه:

«يبدو أن سبب تكدُّس الخواتم في يده هو الكتاب الملعون»

فقال (خوسيم) وعينه تنظر لي بحقد لا أعلم سببه:

«أخذ منا كلّ شي بسبب خطيئته»

لم أعلم ما أقول فأنا في الواقع لا أعلم شيئًا ممًا يقولون فابتعدتُ عنهم وأردت الذَّهاب بعيدًا ولكن شخص ما لكمني بكلِّ قوّته لأسقط على الأرض، ولكن ما هي إلا ثوانٍ معدودة حتّى تكسرت عظامه بلا سبب فسقط ميتًا غارقًا في تهوُّره.

انتاب الجميع الهلع منِّي وابتعدوا بعيدًا عني، أردتُ إخبارهم بأن لا ذنب لي لما حدث لهذا الرجل ولكن ماذا يصدقان أعينهم أم أنا؟

لا أحد يموت بلا سبب وموت ذلك الشخص سببه لكمي.

بعد وقت طويل من جلوسي ونظراتهم لي المتواصلة من بعيد قررت قرارًا مفاجئًا، قررتُ الرحيل بهذه اللحظة حالًا وفعل ما فعله ذو المخالب وإن كلف الأمر حياتي.. فأنا لم أعد أقوى على البقاء ومشاهدة هؤلاء البشر أمامي.

جمعت كلِّ تلك الخواتم ووقفتُ عند منتصف المكان وقلتُ ما قاله ذو المخالب قبلًا:

«افتحي أبواب هذا الكهف لي يا (أرابينسا)»

ظهر الصوت مجددًا قائلًا:

«كم حصدت؟»

قلتُ بهدوء رغم الخوف في داخلي:

«خمسة وعشرين خاتمًا وواحدًا منهم أسود اللون»

فُتحت البوّابة وشاهدتُ ما شاهدته قبلًا من حيتان وبنات الماء والعديد من المخلوقات الغريبة. ارتفعت ناحية البحر بهدوء شديد وقوة أشعر بها داخلي تزداد كلما يعلو جسدي.

فأراني أتخطّى الحيوانات وتمر من جانبي بنات الماء محاولات لمسي ولكن وكأن شيئًا خفيًا يدفعهم بعيدًا.

عند قربي من سطح البحر سمعت صوتًا في الأسفل فنظرتُ لأشاهد امرأة عملاقة تطفو تحتي ويداها ممتدة نحو الأعلى وكأنّها تود الإمساك بي ولكن لا تستطيع. تمتلك جسدًا أبيض وشعرًا أبيض وملابس بيضاء. في الواقع، كانت مُغطّاة بالبياض الكامل وبدلًا من قدمها كان هُناك ذيل ضخم جدًّا مملوء بالمجوهرات النادرة كاللؤلؤ والياقوت وأحجار الأوبال المائية والزمرد والمرجان وغيرها ممن لا يسعني معرفته بسبب مشاهدتي له لأول مرة.

فقدت الوعي نتيجة الضغط في عمق البحر وبُعد المسافة نحو سطحه. وعند عودتي لوعيي مجددًا وجدتني ممددًا على شاطئ جزيرة أجهلها ومياه البحر تُلامس قدمي بين حين وآخر.

نهضت من موضعي ومددت يداي على آخر حدٍّ لهما وقلتُ بصوت عالٍ:

«ماذا أيضًا سيواجهك يا (أحمد)؟ فما إن تنتهي من شيء شديد الغرابة حتّى تلقى أغرب منه»

سبب قولي لما قلتُه توًّا هو شكل الجزيرة الغريب، فهذه الجزيرة عند النظر لها لأول مرة يرتكز نظرك على شجرة كبيرة جدًّا، عرضها كعرض أربعين شجرة وطولها كطول شجرتين في آخر عمرهما.

اقتربتُ ناحيتها من باب الفضول لرؤية تفاصيلها فشاهدتُ جذوع الشجرة متشابكة فيما بينها لتكون وجه امرأة ذات ملامح غاية في الجمال وبين أغصانها فتيات أقزام معلّقين في الشجرة بطريقة عشوائية. ارتعبت ولكني سرعان ما تمالكت نفسي وقلتُ في داخلي:

«قد تكون هذه الشجرة حاملة لمخلوقات الجن»

فأنا أعلم جيِّدًا بأن الجن يستطيعون التشكل بأي شكل وإن كان بعيدًا عن تصديق العقول البشرية. فاقتربت أكثر ومددتُ يدي ناحية إحدى فتيات الشجرة ولكنِّها سقطت وظهر صوت غريب عند ارتطامها بالأرض (واقواق).

سمعت صوتًا من ورائي يقول:

«أنت أيها البشري ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

عندها التفت للوراء لأشاهد مجموعة من النساء يرتدون رداء لا يخفي أكثر ممًا يظهر مصنوعًا من الذهب الخام وبين أياديهم أقواس مذهبة أيضًا.

رفعت يدي للأعلى علامة على الاستسلام وقلتُ:

«جلبني البحر وأمواجه إليكم»

وجّهت سهمها إليَّ كتهديد وقالت:

«ولماذا جلبك؟!»

ضحكتُ وأعدتُ يدي لموضعها وقلتُ:

«لتسأليه»

اتضح على وجهها أن كلمتي لم تكن في محلها وأرادت قتلي بذلك السهم ولكن إحدى النساء منعتها وهمست في أذنها بكلِّمات لا أعلم ما هي عندها قالت:

«أمسكوه لِنُريه الملكة»

بدأن بتقييدي وكأنني عدو لهم أو شيء يشكل خطرًا عليهم، ولكني لم أقل شيئًا ولم أظهر كرهي لهذه المعاملة بل في الواقع كنت أبتسم بهدوء وكأن هذا الأمر ممتع لي.

مشيت تحت إمرتهم بلا أي مقاومة ويداي لا زالت ممتدة بلا سبب. ربما بسبب أشكالهم الغريبة أو بسبب أنهم نساء لا رجل بينهم.

شعرت بهمس شخص في داخلي يقول:

«أتريد منِّي تحريرك»

علمت أنهُ شيطاني الفائز به من ذلك الكهف ولكني هززتُ رأسي بمعنى كلّا..

لا أعلم سبب ممانعتي لتحريري ولكن كلّ ما أعرفه هو رغبتي العارمة بمعرفة الشيء الكثير عن هؤلاء القوم وهذه الجزيرة.

قلتُ بفضول لمن تمشي أمامي:

«هل سنُطيل المسير؟»

ولكنّها لم تجبني بل تجاهلتني بالكامل وكأني لم أقل شيئًا. أردت الاعتراض والنقاش ولكن وعند رؤيتي لما شاهدته توًّا توقفت عن المسير وقلتُ:

«سبحان الخالق»

كانت مدينة كبيرة جدًّا مصنوعة بأكملها من الذهب، البيوت الحدائق الأشجار حولها جميعها مذهبة. وأرضها مليئة بالمجوهرات البراقة المنقسمة لقطع صغار جدًّا لا تكاد تُرى ف تعطي منظرًا كالرمل اللامع.

هل شاهدتم يومًا مدينة داخل جزيرة، هذا ما أشاهده بهذه اللحظة. مشينا بين بيوتها وبين سكانها الذين ينظرون إليّ وكأنني دخيل غير مرحب به، ولكن ما جعلني أثير الفضول في داخلي هو أنني لم أشاهد رجلًا في هذا المكان رغم وجود أطفال من جنس الإناث فيه.

وصلنا إلى قصر لم أشاهد مثله من قبل ودخلنا داخله، عند دخولنا قام جميع من جاءوا معي بالسجود لشيء خفي. ظللتُ أنظر إليهم بدهشة وبسخرية في ذات الوقت.

فالسجود لغير الخالق في ثقافتنا يعد ذلًّا وكسرة لمن قام به.

نظرتُ إلي واحدة من الساجدات وقالت بصوت خافتٍ:

«أسجد»

فقلتُ لها بنفس الهمس:

«لماذا؟!»

أعادت ما قالته ولكني تجاهلتها هذه المرة ومشيت في المكان ألمس هذا الشيء وذاك مبهورًا بما تشاهده عيني. سمعت صوتًا خلفي يقول:

«هل أعجبتك جزيرتنا؟»

نظرت للخلف لأشاهد فتاة تمتلك من الجمال الكثير جدًّا، ما جعلني لا أستطيع الرد على سؤالها فكل ما فعلته هو النظر إليها وابتسامة وجهي تجعلني كالأبله أمامها.

ذات شعر أسود متموج يمتلك تاجًا مذهَّبًا بالقليل من أحجار الياقوت فوقه وعينان بلون البحر الهائج وشفاه ممتلئة وكأنَّها قد

خُلقت من أجمل أشياء هذه الدُّنيا لتُضيف لصاحبتها فتنة تتميز بها عن باقي النساء.

قلتُ بعد وقت طويل من تأملها وصبرها عليَّ:

«من تكونين؟»

ضحكت وقالت بعد إشارتها للساجدات أن ينهضن ويخرجن من المكان:

«اسمي عُمق، ملكةُ هذا المكان المُدعى (سنادير) المتواجد في جزيرة الواقواق»

بدأت أتلفت في المكان متأملًا جميع أركأنهُ ثُمَّ قلتُ متفاجئًا:

«ماذا قلتُ؟ جزيرة الواقواق!»

قالت لي:

«من الصعب وصول بني البشر إلى جزيرتنا، كيف أتيت هل لك إخباري؟!»

سردت ما حصل لي منذُ حصولي على (ملائك) حتّى ذلك الكهف المدعو (أرابينسا) فقالت لي بدهشة:

«فعلت أشياء كثيرة غير آبه لموتك وما قد يحصل لك نتيجة عواقبها، هل لك أن تخبرني لماذا؟!»

لم أستطع إجابتها لا لشيء، ولكني في الواقع لم أعد أعلم سبب هذه الرحلة الغريبة الَّتي أقوم بها، وما هدفي من ذلك. أيكون الفضول للمجهول أم أني كالتابع أتبع تلك الشيطانة أينما رحلت وأفعل ما تقوله لي حرفيًا بلا سبب.

قلتُ لها:

«المجهول ممتع يا سيدتي واكتشاف خفاياه أمر يبث في قلبي السَّعادة»

نظرت إليَّ بتركيز شديد ثُمَّ قالت:

«أتمنى أن تكون مقتنعًا بما قلتُه لي توًّا»

ثُمَّ أكملت دون أن تنتظر منِّي إجابة أو تبريرًا:

«سوف تحل علينا ضيفًا، ولتعتبر مملكتي بيتًا لك»

تنعمت في رغد عيش هذه المدينة من طعام ولباس وقصر مصغر لي بمفردي. لم أكن أعلم سبب كلِّ هذا وهل يعقل أن إكرام الضيف لديهم مقدس إلى هذه الدرجة. في سريري المصنوع من ريش النعام والذي يعد مخصصًا للملوك في مدينتي والمدن المجاورة، كنت أفكر متعجبًا من هذه المعاملة الغريبة رغم جمالها. فعلى حد علمي لا أحد يصنع معروفًا كبيرًا لهذه الدرجة دونما سبب.

نظرت إلى الخاتم الأسود الموضوع في يدي اليسرى وظللت أتأمله لوقت طويل حتّى شعرت برغبة عارمة في مسحه. عند مسحي له ظهر رجل بعمر الخمسين تقريبًا وإحدى عينيه لا أثر لها وبيده سبحة سوداء ما عدا بضعة أحجار منها باللون الأحمر العاتم.

رغم خوفي ممّا حدث ولكني أعلم جيّدًا من يكون، شيطان الخاتم الذي حصلت عليه من ذلك الكهف. قال لي بعد ركوعه:

«سيَّدي أنا (المأمون) تحت أمرك»

نظرت إليه لوقت طويل ثُمَّ قلتُ:

«انهض أرجوك ولا تركع لي مرة أخرى»

نهض وقال لي:

«أخبرني أي شيء تريده وسوف أقوم به فأنا خادمك حتّى تنفصل روحك عن جسدك وسأبقى خادمًا لسُلالتك ما حييت»

ابتسمت بسعادة ممّا قاله فأن يكون لك خادم من الجن بلا عهود أو اتفاقات تحكمكم يجعلك تعلم بأن الغدر لن يلاحقك منه يومًا ما. فالعهود وإن كانت تحكمهم وتجعلهم كالخواتيم في يدينا ولكنّها لن تطهر قلوبهم من حقدهم علينا وانتظارهم اللحظة المناسبة للطعن في العهود وقتلنا.

قلتُ له:

«أريدك أن تعلم ما الذي يدور في هذا المكان فأنا لا أشعر بالراحة من هذه المعاملة وأيضًا أريدك أن تعلم أين يكون طاقمي »

قال لي:

«أمرك يا سيدي»

واختفى بلمح البصر، وكأنهُ لم يكن قبل لحظات هنا أمام عيني. ولكني لم أبالي بل ابتسمت بسعادة ودهاء وتناولت الطعام غير آبه لكلِّ ما حدث قبل قليل.

في بداية دخولي لهذا العالم، عالم الجن والشياطين وممارسة الكهانة كنت خائفًا من أمرين، الموت ومقابلة الرب فأنا مسلم في نهاية الأمر. ولكن وعند انغماسي ورؤيتي لهذه القوة الَّتي قد تكون بين يدي تناسيت ديني وربي وجميع المحرمات تجاهلتها بقولي:

(ما دمت لم أفعل شيئًا لمقدسات ديني فأنا لا أفعل محرمًا)

كنتُ أضع المبررات لأبعد الضمير عن داخلي حتّى قُضي عليه فلم أعد أهتم لأي شيء في سبيل القوة ومعرفة المجهول بهذه الدُّنيا.

أخرجتُ الكتاب من جيبي وبدأت أقلّب صفحاته لأقرأ أول أسطر حروفه الظاهرة أمام ناظري.. خط اليد في الكتاب قد تغير وأصبح أكثر عشوائية وكأن صاحبه قد كان مضطربًا أو خائفًا عند كتابته.

قائلًا في أول صفحة بخط عريض غير متساوٍ:

(لا تقاتلهم بل قَاتِل نفسك لتنجو فهذه الشياطين حولك لن تجرؤ على الاقتراب إلا عندما تجد في نفسك الرغبة لذلك، لن تجرؤ على بثِّ سمومها في جوفك إلا عندما تراك خاضعًا.).

ثُمَّ بدأ بسرد بسرد قصَّة أشبه ما تكون خطوة لعالم لا يصدقه عقل في هذا العالم أجمع..

نموت جميعنا في نهاية المطاف، فإن طغينا بجبروتنا وقوتنا الَّتي منحها الله لنا في هذه الدُّنيا سنلقى عقاب ما فعلناه بعد الرجوع إليه وسيرتنا بين الأجيال القادمة ستتوارثها لتكون مُكبلة بالسواد.

نحن ضعاف، ضعاف جدًّا.. ورغم ضعفنا وقصر حياتنا إلا أن الغرور والكبر مغروس في داخلنا غرسًا لا نستطيع نزعه بيُسر. نُشيد الحروب ونصرخ إلى ساحات القتال ذاهبين لإراقة الدماء في سبيل المُلك والعلو مُتجاهلين أن المُلك لله وحده وأن هذه الدُّنيا من الأساس ليست ملكًا لنا.

ذلك ما كنتُ أردده مع كلِّ إشراقة للشمس على أعلى منبر في قريتي، فخوفي عليهم من عقاب الخالق يجعلني أتجاهل ضحكاتهم وسخريتهم لما أقوله وهمساتهم لبعضهم بأني لستُ سوى شخص قد فارق عقلهُ جسده.

ذنوب وذنوب يفعلونها غير آبهين لعقاب الرب القادم لهم..

قررت عند يأسي وإمضائي خمسين سنة أطلب منهم التطهر من ذنوبهم وإنكارهم لوجود الخالق ولكن بلا أي جدوى. الرحيل لعليَّ أجد في مكان آخر سببًا يجعل قلبي ينبض وطريقًا نحو الصلاح.

فالعيش مع الفاسد يجعلك فاسدًا مثله وإن كنت أطهر خلق الله.

مشيت في الصحراء بلا هدف وقلتُ في داخلي إن كان الموت سيأتي وأنا بعيد عن هؤلاء القوم فهذا الأمر يسعدني، أي مكان غير قريتي يسعدني الموت فيه.

ولكن ما واجهته جعلني أندم أشد الندم على إقدامي هذه الخطوة المشؤومة. لقد سلكتُ مسلكًا بعيدًا كلِّ البعد عما كنتُ أريد، وتغمست في عالم لا هروب منه سوى الموت.

كنتُ أنظر لأبناء قبيلتي بعلو وأنني أنا الوحيد الصالح منهم حتّى أصبحت الأبعد عما تفاخرت به يومًا.

في تلك الصحراء خطوت أول خطوة لعالم لا يصدقه عقل فهُنالك الشياطين بجميع الأشكال والطوائف. مُعلنين لبني البشر أن ما وجدوه خاليًا أصبح ملكًا لهم مدى الدهر.

ك (عزريل) نابشة القبور والَّتي تتواجد بالقرب من القبور المنثورة في الصحراء وفي القرى النائية بعض الشيء. عند نبش القبر تأخذ من داخله عظمة صغيرة وتأكلها ثُمَّ ترحل وتبحث عن قبر آخر.

(عزريل) تمتلك ثلاثة أعين وفي كلٍّ عين عينان بالداخل والأعين الداخلية أيضًا تمتلك أعين داخلها. شفتاها ممتدة للأسفل بخط مستقيم وكأنَّها شفاه مقلوبة ومقطوعة من نهايتهما. شعرها أبيض كلون حبات اللؤلؤ في أعمق نقطة بالبحر وطويل حتّى ساقيها.

تلك (عزريل) من صنف الجن الطيار والذي يطير بسرعة البرق من مكان لآخر فتجده للحظة في شمال الأرض لتراه اللحظة الَّتي تليها في جنوبها.

(عزريل) لا تدخل جسد البشر إلا لسببين إن ربط قدرها بقدره. فإن حكم عليها الكاهن الذي يعلم الطريقة المناسبة لحُكمها يستطيع وقتها توجيهها لمصلحته أينما كانت مصلحته. والسبب الآخر إن كرهت شخصًا حاول أذيتها أو أحبته.

فإن دخلت (عزريل) في جسد الشخص بأمر من الكاهن وتحت اتفاقات لا تستطيع الخلاص منها تجدها لا تخرج حتّى إن اضطرت لقتله. أما إن دخلت لغرض في نفسها هي فتستطيع الخروج من الجسد عند شعورها بالخطر وبعد وقت قليل تدخل فيه مجددًا.

هذه الميزة في الجن الطيار عامة وليس في (عزريل) وهم الأصعب في العلاج والخروج من الجسد. لا يتأذون بسبب عدم الثبات في جسد الممسوس وبسبب خفُتهم في الحركة.

هنالك طريقة يتبعها المعالجون عند اضطرارهم لمعالجة شخص يحمل في داخله جنيًا من هذا النوع. وهذه الطريقة مأخوذة من

كتاب شهير في علوم السحر والشعوذة وكيفية التحكم بالشياطين والمردة وغيرهم من بني سوميا.

الربط بين أصابع القدمين أو اليدين سويًا حتّى يُمنع الجنِّي من الهروب، فنستطيع حينها التحكم فيه وخروجه نهائيًا.

من المعروف أن الجن الطائر على عداء مع الجن المقترن بالأرض فتلقى الساحر لا يستطيع جلب اثنين من هذا النوع سويًا وجعلهم يعملون مع بعضهم البعض وإن كان عن طريق الاتفاقات السُّليمانية.

ومن الجن المقترن بالأرض أي الأرضي هو ذلك الطفل المُدعى ب قربان، يعمل مع أكثر السحرة مهارة في العالم هو ووالديه، والشيء الذي يفعله هذا الشيطان الصغير (فلكل جني عمل يقوم به) هو جلب ما تريد جلبه من البشر إليك.

طريقة استدعائه غريبة ومخيفة في ذات الوقت، يجب أن تحضر صندوقًا خشبيًا محكم الإغلاق وتذهب به إلى إحدى المقابر في الليل والنَّاس نيام. عندها تردد الطلاسم الخاصَّة بجلبه وتقرع على الصندوق ثلاث مرات كلما تنتهي من جملتك. حتّى تنتهي من استدعائه فتصمت دقائق لتسمع بعدها صوت طفل يبكي داخل الصندوق. عند فتح الصندوق تجده في طرف الصندوق يبكي وفي شمالك تجد أبويه ينظران إليك.

تأمره أن يجلب لك ما تشاء من النساء عن طريق اسم الشخص وأمه فيمشي خارج الصندوق ويتغيب بعض الوقت ثُمَّ يأتي وخلفه تلك الَّتي طلبتها. ثُمَّ تصرفه فيرحل مع والديه وتبقى تلك المرأة بين يديك.

في رحلتي هذه علمتُ الكثير عنهم وعلمت أيضًا أني أستطيع استغلالهم وجعلهم تحت خدمتي. في بداية الأمر أردتُ استخدامهم في الأمور الصالحة كعلاج النَّاس ومعرفه أماكن الدواء للكثير من الأمراض. ولكني انغمستُ وأصبحتُ لا أهتم سوى للقوة وأن أعلم الكثير عن هذه الأرض وما تحتويه من غرائب.

فضولي أعماني وجشعي جعلني كالذئب الذي لا يقتل واحدًا من الخرفان لأخذ كفايته بل يقتلهم جميعًا جشعًا وطمعًا، هذا ما أصبحت عليه.

(أقوى الخمسين كاهنًا)

كنت من ضمنهم ولكني لم أرد هذا فقط بل أردت أن أكون الأول في كلِّ شيء، ولن أخفيك يا من تحمل كتاب العرين من بعدي ومن بعد الكثير، قد أكون ميتًا عند قراءتك ما تحتويه هذه الصفحات لقصتي. وقد يكون موتي من أبشع الطرق وأكثرها عذابًا، ولكن ما يجعلني أستمر رغم كلِّ ما أعرفه.. هو الفضول والشغف للمزيد وإن كانتا السبب لهلاكي.

قلبتُ الصفحة لأجد بخط عريض هذه الكلمات الغريبة..

الوجه الآخر للمقابر (العرين)

لا أحياء بيننا

لم أفهم شيئًا ولكني أقفلتُ الكتاب لشعوري بأنهُ ليس كتابًا عاديًا ويستحيل أن يكون مجرد كتاب مذكرات للشيخ (سالم) مع القليل من الطلاسم، بل أكبر من ذلك بكثير.

قد يكون الشَّيخ (سالم) أخذه من شخص آخر وكل شخص وجد عنده هذا الكتاب يكتب في داخله قصَّة قصيرة عنه! لم أعد أعلم شيئًا فهذا الكتاب غريب جدًّا، غريب ومخيف في ذات الوقت.

سمعت صوتًا في أرجاء الغرفة وعند نظري لمصدر الصوت شاهدتُ (المأمون) يجلس في ركن الغرفة وينظر إليَّ بهدوء.

فقلتُ:

«منذ متى أنت هنا»

قال لي:

«منذ إقفالك لذلك الكتاب»

ثُمَّ قال:

«يُستحسن أن تبعده عنك، سوف يقتلك»

قلتُ بتعجب:

«كيف لكتاب أن يقتلني؟!»

فقال:

«ليس كتابًا عاديًا، أنهُ العرين مطلب السحرة وهدفهم الأول. ولكنهُ لا يأتي لأي أحد وإن أتاه بمحض الصدفة لن يظهر قصصه إلى ناظره»

أشرت بيدي إليه أن يقترب ويجلس أمامي فاقترب وفعل ما طلبته منه عندها قلتُ له:

«أخبرني كلِّ ما تعرفه عن هذا الكتاب»

صمت قليلًا وكأنهُ يفكر من أين يبدأ ثُمَّ قال:

«الكتاب مصنوع على يد الساحر مدعي الروحانيّة (عليَّ الأفرهاني) قبل خمسمئة سنة. جلد الكتاب مصنوع من جلد بشري أسود اللون كان عبدًا للكاهن (علي) فأمر بسلخه. وتلك الرسومات المحفورة على الكتاب ليست سوى رموزٍ للشياطين المكفولين بحمايته.

انظر إلى رمز الفتاة الحاملة للكتاب وترفعه للأعلى بيديها، إن دقَّقت بالنظر ستجد الكتاب مقلوبًا وإن دققتَ أكثر ستجده كتاب الإنجيل المقدَّس، قلب أي كتاب في العالم يعني إهانته.

صاحبة هذا الرسم شيطانة لا تعترف بالرَّب بل تظن أن الجميع مخلوق بسبب تصادم مجرَّتين ببعضهما البعض. اسمها (سُليمى) وهي من الجن الطائر.

وفي الأعلى رسمة لثلاث أفاعي ملفوفة ببعضها البعض وفوقهم شُعاع الشمس. هؤلاء هم الثلاث أخوات (منهل، همندل، عنزتل).

من نوع الأفاعي الشيطانية.. يصعب بل يستحيل على أحد أن يجعلهم يخدمونه وإن كان من أقوى السحرة فهم لا يمتلكون نقاط ضعف ولا يمتلكون أيضًا طلاسم خاصَّة بهم. إن خدموا شخصًا يخدمونه طواعية وهم أيضًا من الشياطين الوفيّة لشخص واحد. ويبدو أن (عليَّ الأفرهاني) قد استطاع أن يجعلهم بين يديه بطريقة ما.

وعند النظر للأسفل تجد عينين حمراء وكأنهم يرتكزون بالنظر إليك. هم رمز (الودهود) وهو شيطان مائي ذو العلامة الحمراء وهذا النوع لا يوجد في العالم منه سوى اثنين. واحد على وشك الموت و(الودهود) الحارس لهذا الكتاب.

من صفات (الودهود) أنهُ ذو لون أسود بالكامل وعندما يظهر للساحر يتشكّل بجسد عملاق أسود يرتدي قلادة من الياقوت الأحمر في عنقه تشبه لون عينيه الحمراء، ولا يرتدي أي شيء عدا ذلك.

قوي ولا يخاف شيئًا في هذه الدُّنيا ولكنه مؤمن بالإله..

هؤلاء هم حراس العرين والذين لا يمكن أن يفتحوا قصص الكتاب لأي شخص. فهنالك شروط وضعها (عليَّ الأفرهاني) لحامل الكتاب.

قلتُ متسائلًا:

«وما هي الشروط؟»

قال:

«لا أعلم ولكن أنظر لنفسك، لم يختارك الكتاب إلا وأنت تحمل شروطه»

صمت ثُمَّ قلتُ:

«هل فعلت ما أمرتك أن تفعله؟»

هزَّ رأسه إيجابًا وقال:

«كل شيء تريد معرفته جلبته لك يا سيدي»

فابتسمت وطلبت منه إخباري كلِّ شيء لا أعلمه عن المكان وطاقمي.

فقال:

«طاقمك قريب جدًّا من هنا وهم يعلمون مكانك من الأساس ولكنهم لا يريدون الدخول بل يفضلون انتظارك خارج حدود هذه الجزيرة»

رفعت حاجبي وقلتُ بسخرية:

«لماذا؟!»

قال:

«هذه الجزيرة تظهر مرة واحدة كلِّ مئة سنة وبعدها تختفي لمكان حتّى الجن لا يعلمون عنه شيئًا، يقولون بعضهم أنها تغرق في قاع البحر ومنهم من يقول إنها تقذف للسماء.. ومنهم من يقول إنها تصبح مخفية لا تراها عين الجن والبشر على حد سواء. ولكن الأمر الذي يجب أن تعلمه أنها قد تختفي في أي لحظة وأي شخص موجود فيها سيختفي معها».

قلتُ بدهشة:

«وسكان هذه المدينة يختفون أيضًا!»

هزَّ رأسه وقال:

«يختفون معها أيضًا لذلك يجب أن نخرج من هنا قبل حدوث الاختفاء»

نهضت من مكاني وأردت الخروج ولكن شخصًا ما فتح بوابة الغرفة فظهرت (عُمق) واقتربت منّي رغم وجود (المأمون) وكأنَّها لا تراه وقالت:

«هل أخذت قسطًا من الراحة؟»

قلتُ بتوتر:

«نعم أشكرك على حسن ضيافتك»

ضحكت بدلال وقالت:

«لم ترَ شيئًا بعد فاليوم سوف نقيم لك مأدبة عشاء ونُريك عادات مدينتنا، سوف تكون سعيدًا»

أردت الاعتذار وطلب الرحيل ولكنّها لم تعطيني المجال لذلك وظلَّتْ ترجوني أن أقبل.

نظرت للمأمون فرأيته يهزَّ رأسه يمنة ويسرى بمعنى كلّا ولكني لم أستطع رفض طلب هذه الملكة الجميلة فقلتُ:

«بكل سرور سأقبل دعوتكن لي»

قالت لي:

«أرجوك خُذ جولة في المدينة ونتقابل في الليل»

ودعتني وخرجت من الغرفة مع خدمها لأبقى وحيدًا مع (المأمون) الذي ظلَّ يطلب منِّي الخروج وعدم البقاء ولكني لم أعطِ ما قاله أي أهمية وقلتُ له:

«لا تنسَ أنك خادم لديَّ، سوف نحضر هذا المهرجان ثُمَّ تأخذني لمكان طاقمي»

صمتٌّ وهزَّ رأسه موافقًا ثُمَّ اختفى..

خرجتُ من القصر الموضوع لي وأصبحتُ أتجول في المكان والسَّعادة في وجهي. الأطفال يلعبون والنساء يرقصون ويتهامسون عند رؤيتي. الجميع ينظر إليَّ بالكثير من الإعجاب، شعرتُ أني ملك يمتلك من المزايا الكثير أمام أعينهم. ولكن عندما أتذكر أني الرجل الوحيد في المكان أعود للواقع وأعلم سبب نظراتهم هذه.

بعد وقت من التجول في المدينة الأسطورية في نظري فلون الذهب الذي يغطي البيوت والقصور وملابس النساء عاكسًا للون الأرض والَّتي تحتوي على مئات الأنواع من الأحجار الكريمة ممزوجة مع أصداف البحر ولآلئه.

خرجت من المدينة وأصبحت أتجول في الجزيرة بالتحديد ناحية تلك الشجرة والَّتي تشبه النساء وظللت أتأمَّلها ثُمَّ بلا شعور أخذتُ ثمرة من ثمراتها وتناولتها.

كان المذاق غريبًا ولكنه لذيذ في نفس الوقت، أخذت ثمرة ثانية وتناولتها ثُمَّ ثالثة ورابعة حتّى ظننت أني لن أشبع.

ولكن يد (المأمون) منعتني وقال:

«توقف عن الأكل»

قلتُ بغضب:

«ما شأنك؟ »

قال بهدوء:

«أنظر إلى شكل الشجرة»

شاهدت الشجرة والَّتي كانت كشكل امرأة شابة جميلة قد تحول ليصبح عجوزًا مليئًا بالتجاعيد والقليل من البياض انخلط بالأغصان. نفس الشيء حصل للفواكه المنتشرة فيها، أصبحت منكمشة وكأنَّها قد ذبلت فجأة.

ابتعدت بعيدًا عنها وقلتُ:

«ما بال هذه الشجرة الغريبة، لم أشاهد في حياتي شجرة تحزن عند أكل شخص لثمارها»

قال (المأمون):

«قد لا تكون ثمارها وقد لا تكون شجرة من الأساس»

لم أفهم ما يعنيه ولكني ابتعدت عن المكان وذهبتُ إلى الشاطئ أنظر للبحر بعمق وهمست مواعدًا نفسي:

«عند انتهاء المهرجان سوف أخرج من هذه الجزيرة»

غربت الشمس سريعًا لتبدأ المدينة بدق الطبول والغناء بكلّمات لم أسمعها قبلًا:

(تحت الفناء وعند الوداع نجلب لكِ قربان الكسوف ليُعلن الحداد.).

لم أفهم شيئًا ممَّا يقولونه ولكني ذهبت مسرعًا إلى المدينة للمشاركة في المهرجان ورؤية ما سوف يفعلونه. المدينة بأكملها أصبحت مزينة بإنارات حيوانات (البهرج) وهم حيوانات بحرية يمتلكون جسدًا رخوًا وخمسة أقدام تحت أجسادهم. كلِّ شيء في البهرج يُضيء عند خروجه من البحر ليُشكل منظرًا غريبًا ومبهرًا في ذات الوقت.

ابتسمت بسعادة وشكرت الرب على فرصة النظر إلى هذا الجمال ولو لمرة واحدة. النساء يرقصن حول نار كبيرة جدًّا وبأيديهم سلال من طعام بعد كلِّ دائرة يكملونها تقذف واحدة منهم سلة الطعام من يديها إلى النّار.

وعند مد النظر إلى نهاية بنيان طويل متدرج مصنوع من الذهب تجد فوقه كرسيين من الذهب وأحجار البحر النّادرة. تجلس على إحداهم الملكة (عمق) والكرسي الآخر فارغ لا أحد فيه.

ظننت أن أحدًا من أفراد عائلتها سيجلس فوقه بعد قليل ولكن ما جعلني مصدومًا هو سحب العديد من النساء ليدي وأخذي إلى أعلى ذلك البنيان، أشارت الملكة بيدها باتجاه الكرسي الفارغ على شمالها أن أجلس فجلستُ لظني أن ما يفعلونه إكرامًا لي وقلتُ:

«هذا كثير جدًّا أيتها الملكة، يبدوا أنكم تبالغون جدًّا في إكرام الضيوف»

قالت بعد ابتسامتها لبرهة:

«الرجال منهم فقط»

لم أفهم ما تعنيه ولكن شعرت بشيء غريب وكأن الجزيرة تتحرك ووجوه الجميع أصبحت شفافة فخيل لي أني رأيت العظام من تحتها.

فركت عيني عشرات المرات لظني بأن هنالك بلاء فيها نتيجة أكل ثمار تلك الشجرة ولكن ما زالت الرؤية لا تتضح.

ظهر (المأمون) عند أذني اليسرى وقال:

«يجب أن نذهب.. الجزيرة بدأت بالاختفاء»

نهضت من مكاني ولكن يد شخص ما أمسك بي فألتفت لأجد تلك الملكة تحولت لهيكل عظمي ويديها متشبثة بيدي بكلِّ قوة وقالت:

«سوف تأتي معنا»

صدمتي ممَّا رأيت جعلتني لا أستطيع حتّى مقاومة ما تفعله فظللت أنظر إليها والصدمة على وجهي. تلفت إلى الفتيات والأطفال في الأسفل لأجدهم يرقصون رغم تحولهم إلى هياكل عظمية مرعبة.

صرخ (المأمون):

«أنظر إلى جسدك وجسدي، يجب أن نهرب من هنا »

نظرت إلى أجسادنا لألقاها بدأت بالانحلال والتقرب من أشكالهم. فضربت تلك المرأة بكلِّ قوتي وركضت مبتعدًا وأنا أصرخ طالبًا من (المأمون) أخذي من هنا فقال:

«لقد ضعف جسدي ووهن بطريقة غريبة ولكن أمسك بي»

أمسكتُ به بكلِّ قوتي فأصبح يركض بي بكلِّ سرعة ثُمَّ يتوقَّف ويتنهد وكأنهُ قد شارف على الموت ويعيد ما فعله حتّى وصلنا إلى شاطئ الجزيرة الغربي وقفز بي إلى البحر لعله يكون الأمل في خلاصنا من هذه الكارثة.

أصبحنا ننظر إلى الجزيرة وأولئك النساء الذين وقفوا في آخر حد لها وظلوا ينظرون لي بكلِّ حقد حتّى تلاشت الجزيرة عن عيني رويدًا رويدًا فأصبح مكانها خاليًا وكأنَّها لم تكن هنا قبل لحظات.

لم أستطع تصديق ما حدث فقلتُ للمأمون:

«هل شاهدت ما شاهدته توًّا أم أن عقلي بدأ بالهذيان؟ »

هزَّ رأسه وقال:

«شاهدتُ»

تذكرتُ ما حصل لجسدي قبل لحظات في الجزيرة فنظرت ليدي وأخرجتُ قدمي للنظر إليها ثُمَّ أخرجتُ الهواء من فمي معبرًا عن راحتي وحامدًا للربّ على حمايتي وقلتُ:

«عادت أجسادنا إلى ما كانت عليه »

ثُمَّ نظرت باتجاه (المأمون) راغبًا بالسؤال عن الطاقم ولكني شاهدتُ السّفينة قادمة إلينا من العدم حتّى وصلت بكلٍّ من فيها من (ملائك) والآخرين. أمسك بي (المأمون) وقفزنا إلى السفينة فقالت (ملائك) بسخرية:

«يبدو أنك نجوت أيها البشري»

تجاهلت ما قالته لدقائق رغم غضبي وأصبحت أعصر ثيابي من بقايا مياه البحر ثُمَّ قلتُ:

«تتركونني في ذلك المكان وتبقون خارجًا، هل هذا من الوفاء؟»

قالت (نافعة) والَّتي ما إن ارتكزت عيناي عليها حتّى نسيت كلِّ ما عانيته من ألم وعذاب:

«أرجوك لا تغضب منا، فنحن أردنا مساعدتك ولكن تلك الجزيرة تختفي بلمح البصر.. أن يختفى شخص واحد خير من الكثير من الأشخاص يا (أحمد)»

قلتُ بتوتر:

«لا عليك لقد نسيت كلِّ شيء »

ابتسمت وقالت لي:

«إذًا أخبرنا من هذا الذي أحضرته معك؟»

علمتُ أنها تقصد (المأمون) فقلتُ لها:

«الخادم الذي حصلت عليه من كهف (أرابينسا)، في الواقع لقد حصلت على أربعة وعشرين خادمًا غيره ولكنهم لم يظهروا حتّى هذه اللحظة، ولا أعلم لماذا؟!»

قال (المأمون):

«لن يظهروا أبدًا، لقد قتلتهم»

نظرت إليه بغضب مدموجًا بالدَّهشة وقلتُ:

«لماذا؟!»

قال:

«أنا لا أخدم شخصًا يمتلك العديد من الخُدَّام، بعد خروجنا ووصولنا إلى الجزيرة معك حصل بيننا نزاع عمن سوف يبقى معك وقد حصلت على ذلك الشرف يا سيدي»

رغم حزني ممَّا حدث ولكني لم أتفوَّه بأي كلمة إليه وقلتُ للجميع:

«دعونا نبتعد عن هذا المكان فأنا لا أحبه»

تحركنا في طريقنا إلى وسط بحر (لاروي)..

في الليل أصبحت أتأمل النجوم كعادتي وبين يدي كتاب العرين أتأمله وأتلمس غلافه والرموز المحفورة فيه وأنا أفكر. هل يعقل أن حراس الكتاب معنا في هذه السفينة الآن، ينظرون إليَّ.

سمعت صوت الطفل (هُبير) وهو يقول لي:

«يا عم، أتريد بعض الحساء؟»

هززتُ رأسي موافقًا فناولني بعضًا منه وذهب ليعطي باقي الطاقم نصيبهم. شعرت وقتها برغبة عارمة بفتح الكتاب وقراءة ما سوف يُسمح لي بقراءته.

بنات الماء

لا تنظر إلى السَّماء بل انظر إلينا

وشاهد جمالًا لم يخلق سوى لنا

هبة من خالق الهِبات

ومكيدة للمارين في عُمق البحار

انظر إلينا لتغرق.. مبتسمًا

فالغرق في حرم الجمال جمال

أتعلم يامن اختارك العرين لتقرأ ما في جعبته أن البحر يحمل من الأسرار ما يُبيض له الشعر. ذلك البحر المبهر للعين برونقه وجماله. عندما تراه من اليابسة تظن أن السّلام مغمور في كلِّ قطرة فيه.

عند الحزن تنظر للبحر وكأنهُ طوق النجاة، فالسّلام للجميع مربوط بالجمال. ولكن الحقيقة غير ذلك، البحر هو الوجه الآخر للشر وتقابل الخصوم فيما بينهم.

البحر مرآة الشياطين فما أن تتعمق فيه حتّى تجد العجب العُجاب من مخلوقات الله والَّتي قُدّر لها أن تكون مخفية عن أولئك القانعين بما أعطاهم الخالق.

أما عنا نحن! نحن الذين لم نتقبل حدودنا والقيود في أجسادنا. أصحاب الأحلام المحرمة والَّتي لا تأتي إلا بطريق واحد، طريق الاستعانة بالمطرودين من رحمة الرب. ستنكشف عنا الرؤية لمشاهدة الشر بشكله الحقيقي. وسنبكي، سنبكي كالأطفال تمامًا عندما تصبح الأحلام لنا هي النّجاة فقط، النجاة من الموت ومقابلة أعمالنا.

أتعلم ما هو الشّرُ الأعظم في هذا البحر !

(بنات الماء)

الكثير من الخزعبلات عن بنات الماء المتناقلة بين البشر تحمل الصدق والكذب في ذات الوقت. ك أشكالهم وطريقة عيشهم وما الذي يتناولونه للبقاء على قيد الحياة.

هُنالك من آمنوا بأن بنات الماء ناتجات عن تزاوج رجل من بني البشر وسمكة البحر الشيطانية (آمون).

سمكة البحر الشيطانية تندرج من نوع شياطين البحر المتشبهة بالأسماك من الأسفل ولكنّها بالجزء العلوي تمتلك هيكلًا عظميًا يشابه هياكل البشر. ولكن رغم ذلك لم تمتلك الشكل الخارجي المشابه للبشر بل وجهها يشبه وجه أسماك البومة على هيكل بشري، لك التخيل كيف كان شكلها.

عند تزاوجها مع بشري وأكله، أنتجت بنات الماء بأشكالهم الشبيهة شبهًا تامًّا للبشر من الأعلى والأسماك الأسطورية من الأسفل. لقب بنات البحر ليس محصورًا على النساء من هذه السلالة الحديثة بل يشمل الجنسين الذكور والإناث على حدٍّ سواء.

جميعهم وإن اختلفت جيناتهم إلا أنهم في نهاية المطاف جميعهم مندرجين تحت أنواع الشياطين المستوطنة للبحر.

وهنالك من قال إنهم ناتجون من أبناء مدينة (مراقند) الملعونة والَّتي أغرقها الرب نتيجة استمرارهم بالذنوب والتفاخر بما يفعلون من محرمات وإنكار للخالق. تلك المدينة الَّتي يستمر فيها العزف والغناء وشرب المحرمات من المياه المخمرة بجلود الثعابين.

أتتها اللعنة فغرقت وخسف بها في البحر الأسود وتحول سكانها إلى بنات الماء عند امتناع الخالق عن أخذ أرواحهم عقابًا لهم فأصبحوا هائمين في البحر كـ الغريب في غير وطنه.

الأقاويل عنهم كثيرة بسبب كثرة ظهورهم للبحارين في عمق البحر. فيجلسون بطريقه أنثوية على إحدى الأحجار أو يقفزون بجانب السفينة حتّى يلفتون النظر ويتبعهم طاقمها فتذهب بهم إلى مسلك لا يصلح للمرور به لكثرة الأحجار والمخلوقات المؤذية فيه. عندها يفقد طاقم السفينة التحكم بها فتقذف بهم ناحية البحر بعد اصطدامها وتحطمها، ليكونوا وجبة جيدة لبنات الماء وباقي الأسماك الآكلة للحوم.

هذه الأقاويل هي الأقرب من الصحة رغم بعض الأخطاء في كلٍّ واحدة منهم وإن جمعت الاثنتين معها تكتمل الحقيقة لسكان اليابسة.

فالبشري الذي تزاوج من السمكة الشيطانية (آمون) يكون من كهنة مدينة (مراقند). وفعله لما فعله نتيجة الرغبة للقوة العظمى الَّتي تقدمها هذه السمكة ممن يقترب منها على حسب كهانته. فكانت النتيجة تلك اللعنة الخاسفة بهم إلى أسفل البحر فأصبحوا أمواتًا وروحهم ذهبت إلى بارئها.

بنات الماء لم يكونوا بشرٌ يومًا ولكنهم السبب الحقيقي لتلك اللعنة الخاسفة لمدينة والدهم ووالدهم نفسه.

فتحتُ الصفحة الَّتي تليها لأشاهد الفراغ منتشرًا بداخلها فعلمتُ أن هذه هي نهاية ما أراد منِّي العرين وحراسه أن أعرفه.

لم أعلم من هو الكاتب لهذه المعلومات فهذا الكتاب يحتوي على قصص ومعلومات الكثير من الكهنة الذين لمست أيديهم غلافه وفتح لهم بدوره قصص الآخرين قبلهم.

وكأن هذا الكتاب يمتص المعلومات من عقل الكاهن ويسجلها بطريقة لا أفهمها بداخله لتبقى للآخرين من بعده فيصبح وكأنهُ يمارس الأخذ والعطاء لمن يحمله.

أصبحتُ أتخيل أن حياتي وقصتي ستكون في صفحات هذا الكتاب يومًا ما ليقرأها من يحمله بعدي. ثُمَّ هززتُ رأسي بكلِّ قوة وقلتُ:

«أنت مختلف يا (أحمد)، ستكون الأقوى والأعظم من كلِّ هؤلاء وعندما تصل لما أردته أتلف الكتاب بكلِّ من يحرسونه»

ابتسمت من فكرة إتلافه ووعدت نفسي أني سأتلفه حالما أصل للمجد والعلو في هذا العالم.

اقتربت منِّي (نافعة) وأصبحت تتحدث عن الحياة بقولها:

«أتعلم يا (أحمد)! الحياة كالبلاء على الروح»

سألتها مبديًا اهتمامًا لما قالته:

«وكيف يكون ذلك؟»

قالت بعد مد يدها إلى البحر رغم استحالة التلامس بينهما:

«عندما نُخلق يوضع على عاتقنا الأمرين جميعًا والخيار بينهما، الشر والخير ومسلك كلِّ واحد منهم واضح والعواقب أيضًا واضحة. عند رؤيتك للحياة خلف ستائرها تجد المرور داخلها سهل جدًّا، فالوضوح يعني السَّلام. ولكن وبعد الدخول وفتح كلِّ الطرق لك برفقة أشد الأعداء لروحك (نفسك) لتزيد الرغبة في داخلك بكشف الغموض، فالطريق المظلم المحضور بقولها: (الطرق الجيدة دائمًا ما تكون مملة لا حياة فيها ولا شغف) فتستسلم لنفسك وفضولك وتمضي في طرق الهلاك. الحياة مؤلمة جدًّا عند نهايتها أيضًا فتجد كلِّ ما لمحته قد مر عليك بلمح البصر لتدرك أنك من القوم الخاسرين وأنّ النّار هي الملاذ»

صمتتْ ثُمَّ أكملت:

«كبدايتك لهذه الرحلة، كنت تظن أن الأمور ستكون ميسرة ما دامت تلك الشيطانة بجانبك ولكن ها أنت الآن تغرق في عالم أشد رعبًا من توقعك وتلك الَّتي توقعت أن القوة هي منبعها أصبحت لا شيء تجاه ما تراه عينيك»

استمعت لها بكلِّ إنصات وقلتُ بعد توقفها عن الكلام:

«أنتِ محقة يا (نافعة)، نغترُّ بالأشياء عند نظرتنا السطحية لها ولكن وما إن نتعمق بها حتّى ندرك أن الحمل ثقيل علينا وما بيننا وبين الموت سوى بضع شعرات لا أكثر. ولكن هذه هي الحياة فإن مشينا على نهج واحد لا اختلاف فيه سنصبح نسخًا متكررة من بعضنا البعض وهذا الأمر صدقيني سيدفع الكثير للانتحار بأبشع

الطرق الممكنة. الفضول نعمة، فالفضول هو السبب لاكتشاف العديد من العلاجات لأشد الأمراض فتكًا، وهو السبب لصناعة أنواع جديدة من الأطعمة. الفضول رغم مساوئه إلا أنهُ يدفع بنا نحو التقدم والعلو بإنجازاتنا».

ابتسمتْ وقالت:

«أنت محقٌ، ولكن لماذا لا تفكر أن كلّ هذه الأشياء الّتي نفعلها لمعرفة المجهول قد تصيبنا بلعنات السَّماء وعذابها؟»

قلتُ لها بصوت خافت وقد اقتربت منها قليلًا لتسمعني:

«إن كنتِ خائفة من الموت إلى هذه الدرجة لماذا أنت الآن على متن سفينتي!»

فقالت بعد وقت طويل من السكوت:

«قد يكون فضولًا مدعومًا من نفسي وقد يكون..».

انتظرتُ أن تكمل جملتها ولكنِّها غيَّرت مجرى الحديث بقولها:

«الجو بهذه الليلة عليل جدًّا أليس كذلك»

علمت أنها لا تريد البوح عما في داخلها فجاريتها بقولي:

«هذا صحيح»

ثُمَّ بحثتُ عن (ملائك) للاتفاق معها على وجهتنا الثانية وأيضًا لسؤالها عن قصتها الَّتي قرأتها في كتاب (العرين) عندما كنتُ بكهف (أرابينسا).

وجدتها جالسة بمفردها تنظر للنجوم بتأمل شديد. اقتربت منها وأصدرت صوتًا يعلمها أني هنا فقالت:

«ماذا تريد؟»

قلتُ بهدوء:

«أردت التحدث معك عن وجهتنا الَّتي سنذهب إليها»

قالت وعينها لا زالت تنظر للنجوم:

«لا وجهة محدّدة لنا»

قلتُ بتعجب:

«وكيف لنا أن نسير في البحر بلا هدف، كيف سنحقق ما نسعى إليه»

وجهت وجهها إليَّ وظلَّتْ تتأملني قليلًا ثُمَّ ابتسمت وقالت:

«وما الذي تسعى إليه يا(أحمد)؟»

صمت قليلًا لعدم استعدادي لهذا النوع من الأسئلة ثُمَّ قلتُ:

«أريد أن أكون أعظم كاهن عرفته هذه الأرض»

عندها ضحكت بطريقة هستيرية وأشارت بيدها عليَّ وكأنَّها تسخر منِّي ثُمَّ توقفت كالجماد وتلك الضحكات تحولت لوجه بائس لا فرح فيه وقالت:

«لقد تغير حديثك وتغيرت أهدافك، تسللت إليك بذور الظلام كالسّابقين».

سألتها بصوت خافت مليء بعدم الثقة بالنفس:

«كيف ذلك؟»

فقالت:

«جميعكم في بداية دخولكم إلى خفايا العالم المظلم تنظرون إلى الأمر على أنهُ فضول وطلب للعلم ومجرد تجربة لا أكثر، وتعتقدون أنكم في أي لحظة قررتم فيها التوقف والعودة تستطيعون ذلك. في الواقع، نحن لا نمنع الكاهن من الرجوع إن لم يكتب على نفسه شيئًا يتنافى مع رجوعه. ولكن نفسه الجشعة والَّتي تهوى العلو على الغير هي الَّتي تمنعه، يريد المزيد والمزيد كالنار.. لا تشبع. فإن كبر وكوَّن عائلته الخاصَّة ثُمَّ زهد الدُّنيا وأصبح طمعه محصورًا لما بعد الممات، عندها فقط يريد الرجوع عما بدأه، فيموت على يد من احتكرهم لخدمته سنين طوال».

ابتسمتُ رغم غضبي المحصور في صدري وقلتُ:

«ألستِ أنتِ من أتيتِ لي من صغري وهدمتِ كلَّ حياتي لتقنعيني بالرحيل معك، واليوم تنظرين لي على أنني شخص لا أملك ذرة بيضاء في داخلي»

اقتربت منِّي وهمست في أذني:

«هذا عمل الشياطين يا عزيزي، وأنت أعطيتني المجال لفعل ما فعلته بك»

أردتُ ضربها بكلِّ قوتي ولكنَّها اختفت بلمح البصر عندها صرخت وقلتُ:

«أتظني أني لا أعلم عنك شيئًا أيتها الشيطانة الهاربة، لقد تركتِ أختك عند احتياجها لك وهربتِ كالجرو الصغير. وأعدتِ الكرّة عند رؤيتك لمن قتلوا والدك بأشد أنواع القتل ألمًا. أنتِ لا تمتلكين من الشجاعة ذرة لتواجهي من قتلوا عائلتك فكل ما تفعله شيطانة ضعيفة مثلك هو البكاء، البكاء كالأطفال تمامًا»

شعرتُ بها قادمة إليَّ بكلِّ سرعة من جانبي لضربي ولكن يدًا ما أمسكت يدها قبل أن تمسّ جلدي. قلتُ وابتسامة الخبث والانتصار في وجهي:

«(المأمون)، شكرًا لك، أنت فقط من أستطيع الاعتماد عليه هنا»

قال لي:

«ماذا تريدني أن أفعل بها؟»

نظرت إليها وإلى وجهها الباكي وقلتُ:

«أريد حبسها في زجاجة صغيرة جدًّا ورميها في البحر، فأنا لن أسمح لأي يكن أن يكون حجرة عثرة في طريق المجد الخاص بي»

قالت بغضب بعد أن بصقت في الأرض:

«ستكون نادمًا صدّقني»

ثُمَّ ابتسمتْ وقالت:

«لقد قتلته، أنا الَّتي قتلتُ والدك وأنت كالمعتوه لا تعلم شيئًا»

على عكس ما كانت تتوقعه بأني قد أثور وأصرخ ولكني ضحكتُ كضحكات الشياطين في عتمات الليل واقتربت من أذنها وهمست:

«أعلم ذلك»

فتحت عينيها على مصراعيها من هول المفاجأة ولكني لم أبالِ بردة فعلها بل قلتُ للمأمون:

«افعل بها ما قلتُ لك واقذفها في بحر (لاروي) لتكون عبرة لغيرها»

ثُمَّ نزلتُ إلى أسفل السفينة (إلى غرفتي) وذهبت في سبات عميق وكانني لم أفعل شيئًا على الإطلاق. في الواقع كنت أعلم بأنَّها تكذب

بهذا الأمر فمهما كانت تلك الشيطانة مليئة بالشر ولكن قتل شخص بلا سبب أمر لايمكن لها أن تفعله.. هي فقط تريد إثارة غضبي والبرود كان افضل شيء استطيع اظهاره لها.

نهضت في اليوم التالي وخرجت إلى سطح السفينة لأشاهد أول خيوط أشعة الشمس. وكأنهم يبثون لي رسالة بأن هنالك بداية جديدة لكلِّ شيء وإن كان حجر الأساس في حياتك.

عندها تذكرت (عُمير) قرين (صالح) وقلتُ في داخلي (قد تكون المعلومات الَّتي أحتاجها موجودة في عقله) ناديته ثلاث مرات وقلتُ: «اظهر»

ليظهر بالمقلوب متعلّقًا بإحدى الأشرعة الموجودة فقلتُ:

«تعال يا (عشير)، أريد التحدث معك»

قذف نفسه ناحية سطح السفينة وبلمح البصر أصبح واقفًا أمامي وقال:

«ما الذي تأمر به يا سيدي؟»

فقلتُ له:

«أنت القرين للكاهن (صالح)، هذا يعني أنك كنت مرافقًا له بكلِّ شيء يفعله حتّى عند خلوه مع ذاته»

هزَّ رأسه واتضح التوتر على وجهه قربت على كتفه وقلتُ:

«أخبرني كلَّ شيء تعرفه عنه»

قال بصوت متردد:

«ولكن أنا.. لا أعلم شيئًا»

نظرت إليه نظرة حادة وقلتُ:

«أتجعلني أفعل بك ما فعلته بالَّتي قبلك»

قال بخوف:

«لا أرجوك يا سيدي سوف أخبرك كلَّ شيء تريد معرفته ولكن لا تفعل بي شيئًا»

ابتسمت وقلتُ بعد جلوسي على حافة سطح السفينة:

«ابدأ بسردك»

فقال:

«(صالح ابن ياقوت)، هكذا يخاطبونه من حوله والسبب في ذلك أن (ياقوت) جلبت ابنها بطريقة محرمة، فهو ابن زنا. لك التخيل كيف يكون حال طفل مولود بهذه الطريقة بين عرب يحرمون هذه الأفعال ويكرهون من يفعلها. عند علمهم أن (ياقوت) فعلتها وحملت بطريقة غير شرعية من إحدى أقيال مدينة (عدن) بعد ولادتها قاموا برجمها حتّى الموت. فظل (صالح) وحيدًا محرومًا من

حليب أمه قبل فطامه فأخذته امرأة عجوز تسمى (ملكة). ربته حتّى أصبح عمره اثني عشر عامًا ثُمَّ وافتها المنيَّة لتتركه وحيدًا كما تركته والدته قبلًا. لم يتقبّله أحد من سكان المدينة وظلوا يطلقون عليه كلما رأوه (صالح ابن ياقوت) وأحيان عند غضبهم من رؤية وجهه يقولون أتى (صالح) غير الصالح حتّى ظن أن هذا هو اسمه.

تلك الحياة المأساوية الَّتي عاشها الطفل بسبب ما فعله (قيل) مدينته جعلته يتمنى الموت لنفسه ويصرخ كلَّ ليلة:

«لتأخذ روحي يا إلهي وتُحررها من عذاب هذه الحياة»

ولكن لم يستجب له، عندها كره عقيدته وجميع من في هذه الأرض من بشر فقرر الانتقام ولكن.. كيف لطفل لم يتجاوز الثانية عشرة أن ينتقم من كلِّ هؤلاء البشر حوله! هذا أمر مستحيل. بدأ بفقدان الأمل وظل على حاله حتّى لفت انتباهه عند تنظيف إحدى الأرفف الخاصَّة بمنزل (العجوز ملكة) أن هنالك صوت عندما يقوم بنفض الغبار عنه، والجدار لم يكن ثابتًا أيضًا. علم فورًا أن هنالك غرفة ثالثة في هذا المنزل خفية عن أعين المتطفلين. فضغط على الجدار بكلِّ قوته ليُفتح الجدار على مصراعيه مشرعًا أبواب تلك الغرفة لصالح وكأنهُ ينتظره منذُ وقت طويل.

على عكس تلك الغرف فهذه الغرفة نظيفة وخالية من الغبار رغم أن موت (العجوز ملكة) قد أكمل أربعة أشهر في هذا اليوم. فدخل للغرفة وشاهد رفوفًا مليئة بالكتب على مد البصر وطاولة كبيرة

بالمنتصف ممتلئة بالخرائط الغريبة مكتوب فوق كلِّ خريطة كلمات لا تمتُّ للكلمات العربية بأي صلة.

علم مع مرور الوقت والاطلاع أن كلِّ الكتب الموجودة في هذه الغرفة ليست سوى كتب مرتبطة بالشياطين والعالم المظلم، كُتِبت على يد أشهر الكهنة على مر التاريخ بأكمله. لم يفهم ما حدث وما شاهدته عينه، هل يعقل أن تكون العجوز ملكة كاهنة! ثُمَّ هزَّ رأسه نافيًا ما جاء في عقله وقال ليبعد الشك من قلبه:

«قد يكون السبب لحفظها كلِّ هذه المخطوطات والكتب المحرمة أنها مغرمة بالاطلاع والمعرفة ولا شيء غير ذلك»

فحبّه لتلك العجوز بسبب عطفها وشفقتها عليه منذُ صغره جعله يبعد كلِّ الشبهات الَّتي تُدينها؛ لكيلا تسقط من نفسه. فهو دائمًا ما يتّخذها مثالًا يُقتدى به بكفاحها وبقائها رغم وحدتها. وخط عهدًا ورقيًا مع نفسه أن لن يفتح هذه الغرفة أبدًا وستبقى مجهولة حتّى يموت، ولكن النفوس البشرية تهوى الغموض والغوص في وقائع المجهول. لقد هزمته نفسه في حدود يومين فقط ليعاود فتح الغرفة من جديد وينهمر بقراءة كلِّ ما تلمحه عينه.

عشرة سنوات غارقًا بين الكتب والخرائط حتّى أصبح يعلم كلِّ شيء محفوظ بين أهداب صفحاتهم وحفظ الأسطر حفظًا من كثرة القراءة. (كشمس المعارف وهذرائيل والملوك الأربعة والكاظمية والعزيف) وغيرها من الكتب القيمة والَّتي لا يمكن أن تتواجد أكثر من نسختين منها في العالم أجمع.

أخذ من كلِّ كتاب ما يريد من فنون الجلب والتحضير وأخذ العهد والصرف وغيرها من الأسرار الَّتي لا يعلم عنها إلا القلة.

بعد عشر سنوات بدأ بتطبيق ما قرأه فجمع الكثير من بني الشياطين باختلاف أنواعهم كالجن الطائر والأرضي وشياطين البحر والغيلان المعروفة أنها لا تأتي لأي شخص.

ولكن النوع الوحيد الذي لم يستطع الحصول على عهود تُقيده هم شياطين الخسوف والَّتي تندرج من تحتهم (ملائك). فشياطين الخسوف من الصعب جدًّا استخدامهم تحت الضغوط السُّليمانية.

أتعلم ما تعني العهود!

هي عهود كشف عنها الشياطين على أنفسهم لأطماع في نفوسهم أو تحت تأثير التعذيب والضغط من الكهنة، والمعروف عن شياطين الخسوف أنهم يفضلون الموت على كشف ثغرات تجعلهم تحت رحمة البشر وشرور أنفسهم. فما إن يُسعد الكاهن بالإمساك بواحد منهم حتّى يلقاه ميتًا نتيجة قتله لنفسه.

ومن مميزات شياطين الخسوف أنهم يتميزون بالذكاء الحاد والقدرة على الصعود لأكثر الأماكن حرارة في العالم دونما أن يتأثر شيء في أجسادهم. ومن المعروف لدى الكهنة أن أكثر المواد المهيجة للسحر تكون متوفرة بكثرة في تلك الأماكن الحارة كفوهة البراكين، وهذا ما جعل (صالحًا) يستبدل معك ثلاثة من أهم شياطينه بتلك الشيطانة».

عضضتُ على فمي نتيجة الغضب في داخلي وقلتُ:

«لماذا لم تقل لي عن أهميتها، لكنتُ استخدمتها في الكثير من الأشياء مستقبلًا»

قال بخوف:

«ولكن يا سيدي هي لن تصنع لك شيئًا، ذلك واضح من تصرفاتها مؤخرًا»

سألته بتعجب:

«وما الذي يجعلك متأكدًا إلى هذه الدرجة»

قال:

«شياطين الخسوف إن توحّدوا مع إحدى الكهنة يحرصون على أخذ المغفل منهم ليُجندونه لخدمتهم، وهذا ما كانت تريد فعله بك، ولكن وعند علمها أنك لم تكن مغفلًا كما توقعت قبلًا وشعرت بالتغير بتصرفاتك علمت أن كلِّ ما خططت له قد ذهب أدراج الرِّياح. وفي هذه الحالة إن بقيت معنا ستكون سببًا في جلب المتاعب لنا لذلك أفضل شيء عملته يا سيدي هو التخلص منها. فشياطين الخسوف كالأفاعي يلدغون عند شعورهم بالخطر».

صمتُّ ولكني تذكرت فورًا (رُمير) وأخت (ملائك) (غزل) وكيف أن (رُمير) استطاع الإمساك بها فقلتُ:

«في كتاب العرين علمت أن شخصًا أمسك بواحدة من شياطين الخسوف. كيف يمسك بها وأنت تقول لي أن لا أحد يستطيع ذلك»

«وهل قال لك الكتاب بأن (غزل) أخت (ملائك) قد قتلت نفسها قبل عودة أختها لإنقاذها»

لم يكن الصوت خارجًا من (عُمير) قرين (صالح) بل خرج من تلك الحسناء صاحبة الخمار الأسود (نافعة). قلتُ لها بدهشة:

«وكيف تعلمين أنتِ ذلك؟ ثُمَّ أني لم أقل اسم الفتاة ومن تكون، كيف علمتِ؟»

قالت بعد قربها منّي:

«(ملائك) أخبرتني بذلك عند انتظارنا لك بينما كنت في جزيرة الوقواق مترفها بخيرات كاذبة»

سألتها ما قالته بالتفصيل فقالت:

«قالت لي: إنها حزينة بسبب وحدتها، فقلتُ لها: أليس لديك عائلة، عندها قالت: لدي، ولكنهم جميعهم أموات الآن»

«وسردت قصَّة (غزل) وكيف أنها جاءت لإنقاذها ولكنِّها لقيتها ميتة نتيجة الانتحار بسم (نبتة العنقروت). والسبب الرئيسي لقيامها بهذه الرحلة كي تجلب كاهن يستطيع الانتقام من (رُمير) والذي

أصبح بهذه اللحظة شخص متدين بعد تركه الكهانة، وهذا ما جعلها لا تستطيع الاقتراب منه ولا من عائلته بسبب تحصينه لهم».

في الواقع، لقد حزنت لما حصل لتلك المسكينة وعائلتها، فالظلم الَّتي تلقته أختها من بشري قد ساعدته للنجاة أمر محزن حقًا، ولكني قلتُ:

«أمر (ملائك) قد انتهى في تلك اللحظة الَّتي قذفها (المأمون) إلى البحر»

وبعدها نظرتُ إلى (عُشير) وقلتُ:

«أحضر لي الكتب والخرائط الَّتي قلتَ لي عنها من تلك الغرفة بمنزل العجوز ملكة فأنا أريد قراءتها»

أراد الاعتراض ولكني أكملتُ جملتي بقولي:

«فإن لم تستطع جلب ما أريده، لِتَقتُل نفسك مثلما قتلت (غزل) نفسها»

عندها صمت وبلمح البصر اختفى فابتسمت لشعوري بأن القوة الَّتي أحتاجها ستكون بين يدي قريبًا.. قريبًا جدًّا سأكون الأقوى من جميع بني البشر، الأموات منهم والأحياء.

مرَّت أربع ساعات قضيتها في النقاش مع (نافعة) و(نمر) حول أمنياتهم. فقال (نمر):

«أريد أن أكون أمهر ملاح على سطح البحار أجمع»

بينما قالت (نافعة) بعد وقت طويل لتتفكر:

«أريد أن تلتقي روحي جسدي يومًا ما»

قلتُ لها باندهاش:

«وهل هم مفترقان الآن؟»

اتضح الارتباك على عينيها ولكنّها قالت:

«لا تأخذ الأمور حرفيًا، قد تكون روحي لم تفارق جسدي يومًا في الواقع ولكن الالتحام بينهم ليس جيِّدًا وهذا ما عنيته بأمنيتي»

قلتُ لها بعد ابتسامتي من غرابة تفكيرها:

«غريبة أنتِ، لم أشاهد في حياتي مثلك قط. في عينيك سحر يأخذني لعالم غريب لم أمر به يومًا، وها هو أسلوبك أيضًا يدخلني في عالم أشد عمقًا من الذي قبله. هل أنت ساحرة؟! أرجوك أخبريني لأعلم ما هو السر في انجذابي إليك لهذه الدرجة الغريبة والمخيفة في نفس الوقت».

قالت بعد وقت من تركيز عينها على عيني:

«أتريد القول بأنك وقعت في حبي بسبب عيني وطريقة كلامي»

هززتُ رأسي نفيًا وقلتُ:

«عزيزتي الأمر أعمق ممًّا تتخيلين، قد لا يكون حبًا ولكنه أمر لم أعيشه قبلًا هذا كلّ ما في الأمر».

فقالت بغرور:

«وماذا عن (رماح)، تلك الَّتي وقعت في حبها منذُ طفولتك ولم يكتبها القدر لك. أتعلم أن هذه الليلة تكون ليلة عرسها».

(رماح) عند نطقها لاسمها شعرت بدقات قلبي تعود لتنبض مئات الدقات في الثانية الواحدة، ولكن عندما سمعت بأمر زفافها وكأن سهمًا مغمورًا بسموم عشرات الأفاعي ليستقر في قلبي.

ولكني لم أصرخ أو أظهر ما في قلبي بل ابتسمت بكبرياء وقلتُ:

«المرأة الأولى في حياة الرجل لا تكون من نصيبه»

ثُمَّ ابتعدت عنها وذهبت إلى الجهة الأخرى محاولًا نزع الألم في داخلي وقذفه بعيدًا، ولكن ورغم كلّ ما فعلته لم أشعر سوى ودمعة قد سقطت من عيني لتعلن الحداد على من أحببت لسنين طوال.

حداد الفراق بين أرواحنا لأسلمها بيدي إلى ذلك الذي اختارته لها الظروف.. ووالدتها طمعًا في المال.

مددت يدي باتجاه القمر لعليَّ أمسكه، لعل معجزة تحصل فيكون ملكًا لي. ألم يقولوا قبلًا (عندما تريد الحصول على المستحيل من الأشياء الراحلة لتُمسك القمر). فالقمر وهجُ الأمنيات.

سمعت صوتًا من خلفي جعلني أبتسم رغم غرقي ببحر من الدموع

«سيدي لقد أحضرت ما أمرتني أن أحضره من منزل (صالح)»

اقتربت منه وربت على كتفه وقلتُ:

«أنت كنز يا (عُشير)، أنت كنزي الثمين. والآن انصرف»

رحل فبقيت مع تلك الكتب والمخطوطات والَّتي جعلتني أنسى كلِّ ما مررت به توًّا. بل أخذتني من عالم البؤس والحزن إلى عالم مليء بالقوة والتفاؤل. تأملت الكتب والمخطوطات وظللت أنظر إليها وألمس كلِّ واحدة بحذر، وكأنهم شيء ثمين جدًّا لا أريد حتّى جرحه.

(شمس المعارف الكبرى والصغرى، وهذرائيل، والملوك الأربعة، والكاظمية، والعزيف)

جميعهم بين يدي، جميعهم عبيد لرغباتي..

هذا ما فكرت فيه عند قلب صفحات أول كتاب: (شمس المعارف الكبرى) فضولًا لمعرفة ما يحتويه من كنوز وأسرار.

بدأ الكاتب بسرد نبذة عن نفسه ك اسمه واسم عائلته وما هي الكتب الَّتي ألفها قبل هذا الكتاب. ثُمَّ انتقل لحمد الله وشكره على نعمته وبعدها قال:

قد أُدرِجنا جميعنا من رحم واحد، الأم الكبرى (حواء) فجميعنا إخوة رغم نزاعاتنا واستمرارنا المتكرر بنكران الحقيقة. الحرب ليست سوى بركان منثور على فوهته همسات الشياطين؛ ليثور بلا شعور ظنًا منه أن ما يثيره هو الكبرياء وسهام الشجاعة.

هيهات هيهات يا من تَتُوقون إلى الحرب كتوقكم إلى حليب أمهاتكم صغارًا. فنحن من الأساس في حرب، حرب بين عالمين، البشر والشياطين. ولكنَّها خالية من السيوف وتهديدات الموت، بل أعظم من ذلك بكثير. فالسّلاح هنا هو اللسان الذي فسر منذُ قرون أنهُ سلاح منقور.

سأمشي بدوري على خطى من لا خطى لهم وأهدي البشرية ثمرة اجتهادي (شمس المعارف الكبرى) ليضيف في داخلك شمسًا ساطعة تحميك من مكائد حَمَلةِ المكائد.

تحذير:

لا تقرأ الصَّفحات التالية إن كنت تخشى التقاء بصرك بهم

اللهم هل بلغت اللهم فاشهد

بسم الإله المحبَّ والمحبوب

الجن مخلوقات مثلنا تمامًا فيهم الطَّيِّب والملتزم بدينه وتقرُّبه من الخالق بالأعمال الحسنة ومنهم من يفسُق في الأرض كبعض الفاسدين من الأرض.

فإن عادينا وجب أن نعادي الفاسدين ذوي القلوب السوداء من جنسنا وجنسهم. فلا يحق الميل لأحد منهم دون الآخر لأسباب كثيرة، الفساد إن تُرك سينشر نفسه بن الصَّالحين فيفسدهم.

لا يحب الفاسد أن يراك صالحًا بينما جسده وروحه غارقان في الفساد. كشارب المسكرات المحرمة، لن يرضوا عنك ويشعروا بالقرب منك حتّى يرونك تفعل ما يفعلونه؛ ليكون مصيرك ومصيره على حدٍّ سواء.

وهذا الأمر ينطبق على الشياطين من الجن أيضًا. في الواقع، الجن الصالحون يعانون ممَّا نعاني منه تمامًا. ففاسدهم لا يتمنى لغيره الصلاح وإن كان من الجنَّ لا البشر.

لنتحدَّث أيضًا عن تلك العهود الموجودة في أكثر الكتب المتحدثة عنهم. عهود تجلبهم قصرًا وإن كانوا في آخر الدُّنيا، فيأتون مكرهين رغم إظهارهم الطاعة لمن استخدمها.

إن سألت نفسك وفكَّرتَ قليلًا ستعلم علم اليقين بأن هذه العهود لم تظهر لنا من خلف السّراب، بل هنالك من سربها لنا. قد يكون

شخصًا طائشًا منهم وقد تكون ألاعيب يتلاعبون بها علينا لاستدراجنا إلى معصية الخالق والإشراك به.

البشري مخلوق ضعيف في نظر نفسه ولديه حدود لا يستطيع تجاوزها، كالطيران أو التحرر من الوعاء الذي يغلف الروح.

فالجسد في نظرهم ليس سوى سجنٍ مقيِّدٍ للروح.

والأن سأقول لك سرًا صغيرًا يجعلك تستحضر كلَّ جني أو شيطان يحوم حولك وإن لم تره.

قلبت الصفحات وظللت أبحث عن ذلك السر ولكني لم أجده، وكأن صفحات من الكتاب قد مُزقت واختفت عن الوجود. بدأت أقرأ وأقرأ ولكن... كلّ ما في هذا الكتاب معلومات عامة يقولها لنا الكاتب ولكن الطلاسم والعهود مقصوصة.

لا أعلم السبب ومن الذي تلاعب بالكتاب فناديت (عشير) بقولي:

«اظهر أمامي يا (عُشير)»

ظهر بلمح البصر رغم التوتر على وجهه وقال:

«أمرك يا سيدي»

فقلتُ له:

«كتاب (شمس المعارف الكبرى) الذي أحضرته لا أثر للعهود والطلاسم فيه، مجرد أحاديث تافهة يقولها الكاتب متأخرًا بنفسه وعلمه».

قال بعد أن مسح رأسه بيده دلالة على الخوف:

«لقد رأيته بهذا الشكل وأحضرته لك»

قلتُ متسائلًا:

«هل يكون (صالح) هو المتسبب بهذه المأساة في الكتاب»

قال لي:

«لا أعلم ولكن قبل حصولك عليّ لم أشاهده يتلف شيئًا من الكتب الخاصَّة بتلك العجوز بل يهتم بهم ويعاملهم معاملة الأب لأولاده».

لا أعلم وقتها، لماذا شككت ب(عُشير) نفسه، ولكن لا دليل يجعلني أدينه الآن وأنا لا أريد أن أخسر أحدًا آخر من خدمي بعد (ملائك) فقلتُ:

«لا عليك، اذهب الآن »

فعاد بالاختفاء ليبقى سطح السفينة خاليًا وكأنَّها مسكن للجن والشياطين. ضربت بيدي رأسي بخفة دلالة على النسيان وقلتُ معاتبًا ذاتي:

«ومن هم معك الآن يا (أحمد) ماذا يكونون، بشرًا مثلًا!»

ابتسمت نتيجة غبائي ونسياني ثُمَّ جمعت بعدها الكتب المتواجدة متوجها إلى غرفتي للنوم ولكني لمحت خريطة غريبة للبحر مرسومة على يد شخص لا يتقن فنون الرسم ولا أساسياتها. في الخريطة سبعة بحار هم ((بحر العرب) الذي سلكناه قبلًا، و(بحر لاروي) الذي نحن عليه الآن و(هركند) و(كلاهبار) و(سلاهط) و(كردنج) و(صنجي))

كل بحر مرسوم عليه جزر، وعند كلِّ جزيرة اسمها وتاريخها وما الحقائق المتعارف عليها عنها. كلّ هذه الأشياء لم تثر اهتمامي ما عدا بقعة كبيرة موجودة في منتصف بحر (هر كند) فوقها موجات البحر ومكتوب عليها (مملكة بُلمار) العظيمة (الأرض الثانية).

لم يُكْتب عليها شيء غير ذلك، فظللت أتأمل تلك النقطة في الخريطة متجاهلًا كلّ شيء آخر. ولكني في نهاية المطاف استسلمت وقلتُ:

(قد تكون مدينة كالمدينة المتواجدة في جزر الواقواق بجمالها رغم غرابتها، ولهذا سميت بهذا الاسم).

ولكني لم أجد أي حل لفك رمز موجات البحر عليها فظننت أن الرسّام قد رسم الموجات بالخطأ أو أن هنالك رمزًا للبحر على قمتها. هذا ما أقنعت به نفسى وجمعت كلّ الكتب والخرائط المتناثرة للذهاب إلى غرفتي والغوص في ملذات النَّوم.

ليلة سوداء

مُتجمهرون حول جسدي كتجمهر الجنود على الغنائم

فينهشون نهشات الشَّابعين منه...

حتّى أصرخ راجيًا

ليأتي الفناء... ولكن!

لا فناء بعد اليوم

عذاب دائم

وجسد واهن

وروح قد فارقت أعماقها الرُّوح

فتحت عيني في مكان غريب، وكأنني قد نُقلتُ من سريري إلى إحدى القرى الخالية من السكان. بيوت من طين ونوافذ يتوسّطها الظلام. مشيت وظللت أنادي:

«هل من أحد هنا؟»

ولكن لا مجيب، وكأن الأرض قد ابتلعت كلّ صوت قد كان هنا مع أصحابها، فأصبحت صماء لا تنطق. بعد وقت من تجولي هنا وهناك بحثًا عن أحد يخبرني عن هذا المكان، نظرت للسماء فوجدتها سوداء بالكامل نتيجة الغيم الأسود وفي منتصفها شقّ بلون البرق.

تخرج منه غربان سوداء في منتصف عينيها شق كشق الضوء.

أصبحت تخرج تباعًا حتّى امتلاء المكان بها فلم تعد هنالك نقطة فارغة للنظر بها. انتشر السواد رغم السواد، وبثانية واحدة نطقت الأرض بعد صمت طويل بصرخة جعلتني أضع يداي الاثنتين على أذناي لأمنع صوتها من الدخول.

ولكني لم أستطع منع أذني من سماع صرخات الأرض المخيفة، والَّتي جعلت قلبي يدق بدقات متسارعة من شدِّة الخوف وشعري تحول للون الأبيض بالكامل.

عندها سمعت صوتًا لم أتوقع أن أسمعه في هذه اللحظة.. لقد كان صوت أمي:

«اخرج يا (أحمد) من شرور نفسك»

ثُمَّ صرخت بكلِّ قوتها ليمتزج صوتها مع صرخات الأرض وأصوات الغربان العائمة في السَّماء.

«أخرُج يا (أحمد)، اخرُج يا بني... أخرُج ممَّا وضعت نفسك فيه»

صرخت بكلِّ قوتي حتّى فتحت عيني فوجدت نفسي في غرفتي الواقعة أسفل السفينة. علمت أن ما حدث لي لم يكن سوى مكيدة صنعها عقلي للتغلب على شيء تسلل إلى داخلي. أو قد يكون تحذيرًا من الخالق نتيجة مسلكي الذي سلكته.

معلومة:

الكوابيس الآتية في ساعات الليل الثلاث تأتي نتيجة دفاع العقل عن نفسه بسبب شخص قد تسلل داخلك. قد يكون جنيًا أو شيئًا مرسولًا من السَّماء. فالكثير من الممسوسين بمس شيطاني قبل مسهم بأيام يشاهدون الكثير من الكوابيس المفزعة حتّى يفقد العقل قواه ويتحكم بهم الشيطان تحكمًا كاملًا. فتختفي الأحلام الناتجة عن العقل وتبدأ أحلام الشيطان نفسه لمن يتوسّط جسده.

لم أهتم بكلِّ هذا ولكن شيء واحد فقط جعلني أبكي ك بكاء الطفل في لحظة فطامه. صوت والدتي الَّتي لم أعد أعلم عنها شيئًا، لا أعلم هل هي حية الآن أم أن الموت قد قرع بابها كما قرعه عند أخذ والدي.

أردتُ بشدِّة معرفة خبرها وفتحت فمي لطلب (المأمون) للذهاب إلى مدينتي ولكن حدث شيء جعلني أنسى كلِّ ما أردت فعله وأركض بكلِّ سرعتي ناحية سطح السفينة.

هزّات عنيفة بسبب أمواج البحر والرِّياح جعلت سفينتي تتّجه بسرعة مرعبة للأمام، فشعرتُ أنّ الموت آتٍ لا محالة.

عندها صرخت لركاب السفينة لفعل ما يستطيعون فعله لإنقاذنا من هذا الموقف ولكن لا أحد يتحرك بل أشاروا لي بأياديهم أن انظر للبحر.

فركضت إلى سور السفينة للنظر لما ينظرون إليه، لأجد المئات.. بل الألوف من بنات الماء (ذكور وإناث) يحملون السفينة على ظهورهم ويسبح بعضهم من جوانبها بكلِّ سرعتهم. لم أعد أقوى على الحركة أو النطق بل كلِّ ما فعلته هو النظر برعب لهم.

بنات الماء رغم أشكالهم الَّتي تشبهنا إلى حد بعيد من فوق إلا أن أحجامهم تعادل حجم خمسة رجال طوال من بني البشر، وأعينهم وكأنَّها قد خُلعت من مكانها ورُكّب بدلًا منها حجر الياقوت بلون الأسود النّادر.

قفزت واحدة منهم من الماء وللحظة واحدة، ثانية واحدة فقط أصبحت أمامي بجسدها كله. لا يفرق بيني وبينها سوى بعض الإنشات. تلك اللحظة الَّتي ظننتها لن تنتهي أبدًا رغم أنها لم تتجاوز الثانية فقط. ابتسمت لي بخبث الشياطين ومكرهم، وبدوري لم

أحرك من وجهي شيئًا واحدًا سوى عيني الَّتي أصبحت متسعة على آخر مدى لها.

مددتُ يدي للمسها ولكن شيء ما من خلفي سحبني بكلِّ قوته؛ لأسقط على الأرض وعادت هي إلى البحر لتمتزج ببني جلدتها.

بحثث عمّن فعل بي ما فعل فشاهدتُ (المأمون) بيديه الممتدتين إلى جهتي، علمتُ عندها أنهُ الفاعل فقلتُ في غضب:

«لماذا فعلت هذا بي؟ هل جلبتك لإهانتي أيها الخادم؟»

قال لي مبررًا فعلته:

«لا تثق ببنات الماء يا سيدي فهم أخبث مخلوقات البحر»

أردت الاستمرار بتوبيخه ولكن الوضع في هذه اللحظة لا يسمح أبدًا. نحن بين الحياة والموت وفي أي لحظة قد نترك كلِّ شيء في هذه الأرض ونرحل إلى الخلود.

ولكني قلتُ لنفسي:

«لن أسمح بأن تنتهي رحلتي بهذه الطريقة»

فصرخت قائلًا:

«جميعكم، أريد كلِّ هذه الشياطين البحرية أن تتحول إلى جثث أمام عيني»

ولكن (أهريمان) قال:

«لا نستطيع، هم كثر ونحن قلة وأيضًا البحر يكون موطنهم، إن ذهبنا للعدو في موطنه فسنهزم وإن كنا أقوى منه بمئات المرات»

أردت صفعه بكلِّ قوتي ولكن قبل أن أفعل ذلك شاهدت الكثير من بنات البحر يتطايرن بلمح البصر وتقذف الواحدة تلو الأخرى لتسقط وقد فارقت روحها جسدها.

لقد كان (المأمون)، فقد فعل ما أمرته به رغم خطورة الأمر.

عندها علمت يقينًا أن ذهاب الكهنة إلى كهف (أرابينسا) لطلب واحد من هذه الشياطين أمر يستحق العناء وإن كلف الأمر موتهم.

ظننا أن الأمر انتهى وستعود السفينة لسرعتها الطبيعية ولكنَّها زادت عشرات المرات عن قبل لحظات. لم نكن نستطيع عمل شيء سوى دفع السفينة للجهة المعاكسة عن طريق الشياطين ولكن هذا الأمر لم يجد نفعًا يُذكر.

وقفت عند الواجهة وظللت أنظر للأمام محاولًا معرفة أين تتجه هذه السفينة، فشاهدت حفرة كبيرة جدًّا حولها إعصار مائي يجذبنا إليه. بسرعة البرق ذهبت للبحث عن الخريطة الَّتي تفحصتها قبلًا للتيقن ممًّا أشك فيه.

ولكن الأمر كان صحيحًا، مؤكدًا شكوكي. فهذه البقعة موجودة في الخريطة على أنها مملكة (بُلمار).

ولكن ما أشاهده الآن بقعة خالية داخلها حفرة بحرية تسحب الأشياء إليها بما فيها نحن. لم يكن الوضع يسمح بالتعجب والتفكر بل كلّ ما أريده بهذه اللحظة أن أنجو.. وتنجو معي سفينتي وركابها.

قالت (نافعة) وقد اقتربت منّي وعينها لنفس المكان الذي أنظر إليه:

«ما الذي يجب علينا فعله؟»

تجاهلتها وبحثت بعيني عن (المأمون) وعندما شاهدته قلتُ:

«أخرجنا من هنا»

ولكن اقترب منّي وقال:

«لم نعد نستطيع فعل شيء، يجب علينا أن ننتظر مصيرنا»

ولكن وبلمح البصر جميع الشياطين الموجودين على ظهر هذه السفينة قد اختفوا. وطاقمها بدأ بالتحول إلى عظام متناثرة.. عندها نظرت إلى نافعة لأشاهد هل سوف تتحول مثلهم ولكنّها ركضت إليَّ وهمست في أذني:

«لتواجه بلائك بمفردك»

ولم تمر سوى ثوانٍ معدودة حتّى لحقت بهم وأصبح مكانها خاليًا سوى بعض العظام المتآكلة.

لم أستطع تصديق ما حصل ولكنَّ يدًا ما أمسكت بي وقال صاحبها:

«سأبقى معك يدًا بيد حتّى ننجو أو نموت سويًا»

لقد كان (المأمون)..

عندها أغمضنا أعيننا في يأس، وكأننا نفتح للموت أبواب روحنا ليأخذها بلا جهد ولا قوة. أكثر النَّاس تشبّثًا بالحياة هم الذين يستسلمون للموت عند أول مواجهة معه... وهذا ما حصل معي تمامًا.

دخلت سفينتنا بالإضافة إلى الكثير من حيوانات البحر وبنات الماء إلى تلك الفجوة وهنا علمت أن بنات الماء عند إمساكهم بسفينتي قبل لحظات لم يكن بدافع سحبها إلى هنا بل لأجل إنقاذ نفسهم ظنًا منهم أن الإمساك بهذه السفينة سيجعلهم آمنين من السقوط بها.

لقد فتحت عيني قبل نزع روحي وحطام سفينتي وابتسمت ابتسامة غريبة لم أكن أنا نفسي أفهم ما تعنيه. أهي الكرامة الموجودة في أنفسنا وعجز النفس على تقبل الضعف والانكسار في نهايتها.

لا أعلم، كلٌّ ما أعلمه أني أردتُ فرد وجهي وطبع تلك الابتسامة الكئيبة وعيني تنظر للسواد الداخلين إليه ببطء.

نحو الموت نسير وكأننا سائرون إلى الحياة

أبِكل هذا الشغف تهوى أرواحنا عُمق الفناء

فأبتسم. بكلِّ ما أوتيت من قدرة أبتسم مُكرهار

لطبع نهايتي وفخري بأن في داخلي كبرياء

أصوات غريبة تسمعها أذني دون استطاعة عيني على النظر..

وكأن عيني قد فارقها البصر. وألم غريب جدًّا يجعلني أشعر بأن الموت قد نزع روحي انتقامًا بكلِّ ما يملكه من قوة.

تحدث صوت غريب:

«لقد استجاب الجسد لعملية بناء العناقيد بدلًا من القلب التالف»

فأجابه شخص ما:

«ابدؤوا بعملية العين اليسرى بعد ثلاث ساعات وضخُّوا في الجسد أربعين نوعًا من المضادات البنَّاءة»

لم أستمع لصوت أخر يتحدث ولكنني شعرت بأيادٍ كثيرة تعبثُ في جسدي. أردت النهوض ولكن وكأن شيئًا يكبلني فبقيتُ كالصنم تمامًا. أسمع وأشعر بكلِّ ما يفعلونه ولكني لا أعلم شيئًا ممَّا يحدث ومن هم هؤلاء القوم.

صرخت بكلِّ قوتي عند شعوري بشيء حاد يقطع ساقي اليمنى فقال نفس الصوت الذي أصدر الأوامر قبل قليل:

«لا تهتموا للصرخات فقط استمروا بما تفعلون»

صمتَ قليلًا ثُمَّ قال:

«لا تعطوه أي مسكن للآلام»

قلتُ برعب:

«من أنتم؟ وماذا تريدون مني؟»

لم يتحدث أحد وكأن السكون قد عم المكان سوى تلك الأيادي المستمرة بالعبث في جسدي وإصدار الألم لكلِّ ركن فيه. توالت صرخاتي لساعات طويلة جدًّا حتّى ذهب عقلي وفُقد تركيزي وذهبتُ في عمق النَّوم أو الموت.. في الواقع لم أعد أفرق بينهما.

مرَّت أيام طويلة وأنا على حالي، كلما أنهض من سباتي الطويل حتّى ألقى نفسي مكبّلًا لا أبصر شيئًا وتلك الأيادي الَّتي وددت لو أستطيع قطعها تعبثُ بي.

تلك الآلام الَّتي كنت أصرخ منها في بداية فعلتهم بي لم تعد تهمني الآن فعندما أشعر بها أضغط بكلِّ قوتي على شفتي السفلى لأشعر بعدها بطعم الدم يتسرب إلى حلقي.

كنت أود لو التقطني الموت وأراحني من هذه الكُربات الَّتي تحيط بي ولكن.. تفكيري بدأ للاتجاه بطريقة غريبة. هل يعقل أنني قد مت من الأساس وما أشعر به الآن يكون عقابًا نتيجة ما فعلته في حياتي!

فكرت أن تكون تلك الأيادي ستكون عقابي الأبدي يجعلني أتمنى الفناء حرفيًا وأن أكون نسيًا منسيًا في الدارين.

لقد حسدت الكثير في تلك اللحظات الَّتي أكون بها بين أيديهم. الحيوانات، الجمادات.. حتّى الأرواح الساكنة كالأشجار وغيرها، لقد

حسدتهم جميعًا ورغبت لو كنت مثلهم في حياتي. لأموت بعدها في سلام وأفنى وأنا راضٍ كلَّ الرضا عن فنائي.

بعد مرور الكثير من الأيام والَّتي لا أعلم عددها، تم قذفي في مكان لم أكن أعلم عن ماهيته شيئًا حتّى بدأ البصر يعود إليَّ رويدًا رويدًا في عيني اليمني. لقد كنتُ سعيدًا، أتلمسها كلَّ دقيقة وأقول لذاتي: «عاد بصري إليَّ، لقد عاد»

رغم عدم إبصار عيني الأخرى ولكن أن تعود لي إحدى أعيني سالمة خير من اثنتين تالفتين.

بدأت أركِّز في المكان والذي كان كالكهوف المتقابلة بين بعضها بعضًا ولكنِّها لم تكن من أحجار ورمال بل كانت من حديد. وفي نهاية كلِّ كهف هنالك أعمدة من الحديد نفسه تغلق الفتحة فتجعلك حبيسًا داخلها. وكأنَّها سجون ولكن بطريقة غريبة.

لقد كان المكان مظلمًا بعض الشيء ولكن عند تركيز نظري على الكهف المقابل لي حتّى شاهدت بشري متكوِّر في زاوية المكان ويده على وجهه. أنين خافت يخرج منه وكأنهُ يبكي أو يتألم، لا أعلم بالضبط ما الذي يحصل له فقلتُ بصوت عالٍ:

«يا رجل هل أنت بخير؟»

ولكنه لم يجب بل استمر في أنينه متجاهلًا ما قلتُه...

اقتربت من فتحة الكهف الخاصَّة بي وأمسكت بالحداذة حتّى أصبح ربع وجهي خارجًا وقلتُ:

«أخبرني هل أنت بخير؟ وأين نحن؟»

عندها أزاح يديه عن وجهه ونظر إليَّ فعدت للوراء بضع خطوات وعيني مفتوحة على مصراعيها نتيجة ما شاهدته. لقد كان أشبه بالمسخ، عينه اليسرى مخلوعة من مكانها وثلاث أرباع جلد وجهه لا أثر له. أردت النطق وسؤاله عمن فعل به هذا الأمر ولكني لم أستطع حتّى النطق بحرف واحد.

سمعت صوتًا من الأعلى فاقتربت بخطوات حذرة عند نفس النقطة الَّتي كنت واقفًا فيها قبل قليل، ورفعت رأسي للأعلى حتّى وجدتُ المئات من هذه الكهوف منتشرة بكلِّ مكان وكأنَّها أقفاص تحمل في داخلها بشر كالذي أمامي.

تذكرت وقتها نفسي وركضت بكلِّ سرعتي باحثًا عن مرآة أو أي شيء أنظر به على ذاتي. فلم أجد سوى كوب من الماء. عندها قذفت به إلى الأرض ونظرت إليه لعله يعكس جزءًا بسيطًا من شكلي؛ ليريحني.

ولكني لم أشعر بالراحة أبدًا بل صرخت كالمجانين وابتعدت حبوًا على أرجلي ويداي إلى الوراء وقلتُ بكلِّمات متقطعة أشبه بالهمس:

«لقد فعلوا بي... ما فعلوا بهم»

ظللتُ في المكان محبوسًا بين أسواره لأيام أو ربما أسابيع لا حصر لها. وكل يوم يؤخذ شخص من إحدى هذه الكهوف بالقوة هم صراخه و طلبه منهم أن يرحموه ويقتلوه بدل ما سيفعلونه بهم.

نبتعد جميعنا بلا صوت للوراء خائفين، إن أصدرنا صوتًا واحدًا سنلحق به، ليعلو صوته وحيدًا في المكان وكأنهُ هو وحده المحبوس هنا.

لقد يئستُ كثيرًا وأصبحت كالجثث رغم تشبث الروح بي. وأولئك الغرباء بأشكالهم المفزعة يجلبون لنا وجبة واحدة كلِّ فترة عبارة عن حساء مقزز الطعم والشكل في آنٍ واحد وكوبين من الماء ويرحلون وبأيديهم إحدى السجناء رغم مقاومته وصراخه.

في بداية الأمر لم أستطع تقبل الحساء وظللت على أكواب الماء القادمة معه ولكن عندما لم أستطع تحمل الجوع في داخلي حتّى تناولته مرغمًا لأجل العيش الذي أتمنى الخلاص منه.

نحن متناقضون حقًا، عند أنسب الأوقات لترك الحياة نتشبث بها رغم عذابنا فيها. نتشبث كالمتشبثين بكنز ثمين، رغم أنها لا تريدنا.. ولا تريد لنا البقاء على سطحها. فتفعل كلِّ ما تستطيع فعله لنصب البلاء في مسلك أقدامنا حتّى تدفعنا للموت بأبشع الطرق، ورغم ذلك نتمسك بها كإمساك الجنين بحبل والدته.

بدأ شخص وراء شخص بالاختفاء تدريجيًا فلا يعود ويبقى المكان خاليًا حتّى يجلبون شخصًا جديدًا؛ ليعاني ما عاناه من هو قبله.

أولئك الغرباء كم وددت لو أستطيع قتلهم بيدي وإحراقهم كما حرق (يوسف بن شراحيل) أصحاب الأخدود.

عندها عدت للوراء وكأنني أتذكر شيئًا يخص ما جلبته لي الذكرى بهذه اللحظة.

ابنة النار (مياسيم) تلك الَّتي يتغنَّى بها كلٍّ شخص من مدينتنا عندما يتحدث عن الشجاعة والفخر..

ابنة النَّار (مياسيم)

تلك النِّيران الَّتي تنهش جسدي تدريجيًّا تُريحني

تُريحني من الخطايا وكُربات العيش الضَّاني

فما أنا إلا عبدة بكماء قد جاء وقت رحيلها

على يد روحٍ سوداء لا تجيءُ قدر حذائي..

فإن لبثتُ قالوا كالنساء الخاضعات تدنو لنا

وإن قذفتُ ذاتي فما ذنبُ ذاتي.. !

ابنة النار (مياسيم)

في ذلك الوقت الشنيع على مدينة (نجران) قبل مئات السنوات وقبل الحدث الأعظم الذي تناقلتُه عنهم الكتب والأحاديث بين جيل لآخر، كانت هنالك امرأة شابة في عمر السابعة عشرة تدعى (مياسيم). تشع من وجنتيها زهور ندى الشمس الرائعة بشكلها ورائحتها.

تلك الفتاة غريبة الطباع فرغم جمالها الملكي وعينيها الَّتي تدخلك إلى عالم لا حد له لم تكن كباقي النساء في شيء. بل كانت مختلفة جدًّا وكأنَّها قد قُطفت من زهرة نادرة بعيدة كلِّ البعد عن الزهور المعتادة للأعين. وكأنَّها بين كلِّ النساء تلك الزهرة وهم زهور متشابهة لا تلتفت الأعين لها.

كانت تقول دومًا لأبناء مدينتها:

«هذه أرضنا وترابها مرتبط بدمائنا، نحن من علينا حمايتها ونحن من علينا الموت في سبيل علوِّها»

لم تكن تهوى محادثات النساء وأنوثة حديثهن بل كلِّ ما تريده تعلم فنون القتال مع أولئك الرجال ممن يتجهزون ليكونوا جنودًا في المستقبل للدفاع عن المدينة وشعبها.

قالت لوالدها:

«أريد أن أسلك مسار القوة لا الضعف ف الضعف في هذا العالم يكسر رقاب الشُّجعان»

قال لها والدها مازحًا رغم صرامته:

«ولكن قدرك أن تكوني فتاة جميلة لا ينشغل عقلها بالسيوف وسفك الدّماء بها»

كاد الحزن أن يعتمر قلبها حتّى جاءت فكرة غريبة في عقلها وقالت:

«سأفعل ما أؤمن به وإن كلف الأمر أن أعصي قوانين المدينة»

فتنكرت برداء رجل ووضعت اللثام على وجهها ثُمَّ سرعان ما انخرطت بالمتدربين. في تلك المدينة ميزة قد تكون هي السبب الرئيسي لنجاح ما فعلته. فالمدينة تسمح لأي شخص يريد التدرب في مدينتهم أن يحضر وإن كان من مدينة أخرى.

عند أول مواجهة لها مع شخص تعرفه جيِّدًا، لقد كان أخاها (كُثيب) والمعروف بالمدينة على أنهُ صاحب الضربات القاتلة، بالإضافة إلى بنيته الَّتي تفوق بنيتها ثلاث مرات.

وبعد تدريب قاسٍ بينهما حتّى أنهاه بقوله:

«رغم شكلك الذي يوحي بالضعف إلا أنك تمتلك مهارة عالية لا يمتلكها الكثيرون، المراوغة الَّتي تتبعها تشتت تركيز الخصم وتجعله يخطأ في إصابتك وهذا ما يسهل عليك الهجوم عليه. من النادر جدًّا أن ألتقي بشخص يستطيع التحكم بعقله و وجسده في آنٍ واحد، أهنئك يا.. ما هو اسمك؟»

كتبت على الرمل بيديها اسم (حمزة):

فقال لها «لقد فهمت الآن، لا تستطيع الحديث»

ثُمَّ سرعان ما ربتٌّ على كتفها وقال:

«صمت اللسان خير من نطقه في كثير من الأحيان»

ورحل بعدها تاركًا تلك الصغيرة تلتقط أنفاسها من شدِّة الفزع والسَّعادة في آنٍ واحد. لم يمر على اندماجها مع الرجال الكثير من الوقت حتّى كشف أمرها بواسطة إحدى المبارزين ضدها عند محاولته فك لثامها بسيفه فقُطع من المنتصف مشكِّلًا جرحًا غير مقصود على وجهها.

صرع الجميع من المنظر بما فيهم والدها (العامر) وأخيها (كُثيب). فنالت من الضرب الكثير ومن العقاب الأكثر لتصبح حبيسة المنزل بعد أن كانت تتنعم بالحرية المطلقة في الذهاب أينما كانت.

قال لها والدها يومًا:

«وثقت بك وأردتك أن ترفعي رأسي للأعلى، أتعلمين أمرًا ! ابن الحاكم أراد الزَّواج بكِ ولكنه وعند علمه بما فعلته قد غير رأيه بلا أسف».

قالت له بثقة رغم خوفها منه:

«ومن ذا الذي يقول إني أهتم بالزَّواج كباقي النساء هنا»

فصفعها بكلِّ قوته وهمس لوالدتها (مينا):

«هذه الفتاة لا يجب أن تخرج من عتبة المنزل وإلا سأقتلع رأسها وأطعمه للكلاب الضَّالة عقابًا على فعلتها».

ثُمَّ رحل تاركًا خلفه ابنته ودموعها المنهمرة على خدها كسيل الأنهار من فوق جبال (زعوم). ظلَّتْ في عقابها والذي لا يمكن أن ينتهي من تلقاء نفسه، فالعرب إن عاقبوا شخصًا وإن كان فلذة كبدهم سيستمر العقاب مدى الدهر خصوصًا النساء منهم.

ولكن أتى شيء أنهى عقابها وأنسى النَّاس فعلتها ولكنه وضعها ومن حولها جميعًا في عقاب أكبر وأعظم من كلِّ هذه المهاترات.

(ذو نواس) أو (يوسف بن شراحبيل) (كما يردد أهل مدينتي) هو أحد ملوك حمير حسب قصص الإخباريين العرب ويروى عنه أنهُ قتل نصارى (نجران)؛ لأنهم رفضوا الدخول بالديانة اليهودية.

الكثير من أهل مدينتي ربطوا عهد (مياسيم) الملقّبة بابنة النّار بعهده. وأن هنالك لقاء مخيفًا حصل بينهما رغم أن التاريخ لم يقصهُ تفصيليًّا وركز على ما فعله (بن شراحبيل) بالسكان أجمع.

كانت اليمن منقسمة ما بين يهود ووثنيين، فمنذ القرن الرابع الميلادي بدء الأحباش بالمساعدة بشن حملات عسكرية نحو اليمن للتّبشير بالمسيحية. إلا أنهم قوبلوا بمقاومة من قبائل اليمن. كان الأحباش مسيحيين أرثوذكسية شرقية ويتركزون في ساحل (تهامة) و(المخا) وقد احتلوا ظفار (يريم) عاصمة مملكة (حمير)

بينما كان الحميريون يهوديِّي الديانة وهم من قبائل سبئيَّة، وبقيت الوثنية في بعض القبائل البدويّة.

شن (ذو نواس) ومعه كبرى قبائل اليمن حملات عسكرية على الأحباش المسيحيين الغزاة في (نجران) وظفار (يريم)، وأشهر وقائعه كانت في (المخا).

الكثيرون حاولوا الربط بين (يوسف) أو (ذي النواس) وبين حادثة أصحاب الأخدود. بظهور (يوسف) كانت المملكة الحميرية قد أعيدت على أرض الواقع وكان (يوسف) يلقب نفسه بلقب (ملك كلِّ الشعوب). ساندته في حملاته العسكرية كبرى قبائل اليمن مثل (همدان، كنده، مذحج، ومراد وأعرابهم، وأبناء منطقة غيمان بشرق صنعاء، وبيت ذي يزن، وجميع خولان).

هدم (يوسف) كنيسة الأحباش في ظفار (يريم) عاصمة مملكة (حمير) وشنَّ حملات مشابهة في (نجران) وعلى طول الساحل الغربي في تهامة حتّى وصل باب المندب؛ ليعيق وصول الإمدادات للقوات الحبشية المسيحية.

صنع نارًا لا يطفئها شيء وقال:

«من يريد التمسك بدينه فليسقط داخلها ومن يريد الرجوع عن دينه وإتباع دين اليهودية الشريف ليبقى آمنًا تحت حمايتنا».

ظل الجميع واقفًا مترددًا فتقدمت (مياسيم) بكلِّ شجاعة وقالت له:

«لتنهش النار روحي قبل جسدي ولتبقى صرخاتنا عارًا يتوسط كلِّ من عاونك. نحن نصارى (نجران) نعلن رحيلنا قربًا للرب وأنت يا من غرتك أسراب الأمنيات فلتبقى متمسكًا بمجدك الواهن»

ابتسم وقال:

«غريبون أنتم يا معشر النصارى، تصمتون وتجعلون فتاة لم تتجاوز بضع سنين تُخاطب ملك الشعب الأعظم. أهكذا يكون الذل والهوان لديكم، أهكذا تكونون ضعافًا وقلوبكم ترجف من شدِّة الخوف. ولم تتحرك منكم سوى هذه الطفلة متلبسة ثوب الرجال».

ثُمَّ نظر إلى (مياسيم) وقال لها:

«تقدمي إلى النار وإن سقطتِ بنفسك قبل أن تلمس أيدي أتباعي جسدك سأعلن أني ملكٌ ظالم وأنك قد تفوّقتِ عليَّ أمام هؤلاء المتواجدين في المكان، وأيضًا! سأجعل كلِّ نصارى (نجران) آمنين من بعدك.. صدقيني فالملك لا يكذب».

ابتسمت وقالت بكلِّ كبرياء رغم صوت والدها آمرًا لها أن تعود:

«سأفعل ما تقول أيها الملك الظالم الذي لا تساوي ثمن حذائي ولكني لا أرغب بوعدك لي. اتعلم لِمَ!، عشيرتي تعشق الكبرياء وتفضله على الحياة بأسرها. والعيش تحت جناحيك يُعد ذُلًّا ومهانة لنا؟»

صرخ ذو نواس لأحد التابعين له:

«اقذف بها بيديك هاتين»

فركضت بكلِّ ما تملك من قوة ناحية الإخدود حتّى قذفت بنفسها وعلى وجهها ابتسامة جعلت الملك يحترق من قهره قبل تلامس النار لجسدها.

صرخ جميع عشيرتها لبعضهم البعض:

«لنذهب إلى الرب كما ذهبت ابنة النار (مياسيم)»

فركض الجميع دونما أن تلامس أيدي الملك وأتباعه لأجسادهم..

عند العرب يُعد هذا عيبًا وعارًا على صاحب العقاب، أن يموت المُعاقب بإرادته، أمر يجعل في سيرة الملك عارًا وخزيًا له ولعشيرته ولكل من اتبعه.

وبسبب هذا الأمر تمَّتْ تدليس الحقائق واختفت قصَّة ابنة وبسبب النار (مياسيم) وشجاعتها الَّتي جعلت جميع عشيرتها يقفزون إلى النيران بإرادتهم والابتسامة نفسها الَّتي وضعتها في شفتيها قد وضعوها قبل رحيلهم عن هذه الحياة.

لا يوجد الكثيرون ممن يعلمون عن قصتها ويتداولونها بل إن القليل فقط هم من يعلمون ما حدث نتيجة التوارث فيما بينهم جيلًا وراء جيل. ورغم معرفتهم أن قصتها تُدينهم وتجعلهم يضعون العار في وسط سُلالاتهم حتّى آخر الزمان ولكن حب العرب للحديث وقص القصص جعلهم يتناسون عارهم ورثاء حالهم.

ابتسمتُ عند تذكري لقصتها وقلتُ لنفسي:

«سأكون قويًّا مثل تلك الفتاة بقوتها ورباطة جأشها وإن قُدر لي الموت على يدي هؤلاء القوم سأضع في شفاهي ابتسامة كابتسامتها تمامًا».

سمعتُ وقع خطوات فعلمت أنهم آتون لأخذ شخص منا. من قد يكون المختار بهذه الليلة لا أعلم ولكن دقات قلبي وكأنَّها في سباق لا نهاية لسرعته.

قلتُ لذاتي لأطمئنها:

«لا يهم إن اختاروني فالحياة بهذه الطريقة لا تناسبني من الأساس»

توقف الأشخاص بجانب قفصي وظلوا ينظرون بيني وبين الذي أمامي بالقفص المقابل لي. وكأنهم محتارون عمن يكون الأول في الرحيل عن هذه الحياة. ولكنهم في نهاية المطاف وقع اختيارهم عليه فأصبح يصرخ راجيًا أن يتركوه يعيش ولو لليلة واحدة فقط.

ضممتُ يدي من شدِّة الغضب فهذه الحياة لا يمكن أن نهديها الحيوانات فكيف ببشر مكرمين من عند الخالق. عندها أمسكت ب وعاء الحساء وقذفته بكلِّ قوتي ناحية شخص منهم وقلتُ في شموخ وكبرياء:

«اتركوه وخذوني إن أردتم أيها الحمقى»

بدأوا بالهمس فيما بينهم وكأنهم يتناقشون عني، وبعد لحظات أعادوا ذلك الشخص إلى مكأنهُ وفتحوا باب زنزانتي وتقدموا نحوي ببطء شديد.

أصبحت أتأمل أشكالهم عن قرب، تلك الأشكال الغريبة والَّتي تقشعر منها الأبدان. جسد عارٍ وثلاث أعين منتشرة بعشوائية في وجوههم وأيديهم بلا أصابع، واحدة طويلة والأخرى أقصر منها. لقد كانوا أشبه بالوحوش الَّتي يقصونها علينا ذوينا في طفولتنا.

ولكني لم أخف بل ابتسمت بكلِّ كبرياء ومددت يدي إليهم مستسلمًا. بدل إمساكهم بي شعرت بشيء خفي يشدني بكلِّ قوته للخروج من الزنزانة. وأولئك القوم أصبحوا يصرخون ويركضون خلفي محاولين إمساكي.

لم أعلم في بداية الأمر من منقذي ولكني أعدت الابتسام وهذه المرة كانت الابتسامة مختلفة، ابتسامة الانتصار عندما علمت أن (المأمون) هو الفاعل. وقلتُ بكلِّ قوتي:

«أنت بطل، أنت أشجع الأشخاص في حياتي أيها (المأمون).. انطلق»

خرجنا، ذلك الكهف المحتوي على المئات منه بداخله وانتقلنا إلى غرفة كبيرة جدًّا وبداخلها صناديق من زجاج. في كلِّ صندوق إحدى حيوانات البحر ومنهم بنات البحر المأخوذ من أجسادهم كما أخذ

منا. وفي الواقع لم أعلم السبب وراء أخذ تلك الأجزاء منا فقال (المأمون):

«يصنعون تجاربهم على أجسادنا لمعرفة من نكون»

قلتُ متسائلًا:

«من نكون! بل من يكونون هم؟»

فقال:

«لا أعلم ولكن الذي علمته حتّى الآن أن تلك الحفرة في البحر الَّتي سقطنا منها، قد جعلتنا نسقط إلى سمائهم بنفس اللحظة».

بدأنا بالتسلل في المكان خشية أن يرانا شخص منهم فأصبحنا نتجول بين الغرف وفي كلِّ غرفة نجد شيئًا يجعل قلوبنا تدق من شدِّة الرعب. ففي الغرفة الأولى وجدنا صناديق مملوءة بالماء وبداخلهم مخلوقات البحر. وفي الغرفة الَّتي تليها وجدنا أعضاء للكثير من المخلوقات بما فيها أعضائنا الَّتي تم أ أخذها منا.

جميعها تتجه عن طريق مسار يسير بمفرده إلى فوهة كبيرة جدًّا، فيوضعون فيه جميعهم. وبعد امتلائه يعصرهم بأداة ثابتة فوقه فيصبحون كالعجين اللين.

نظرت إلى ما تم فعله وأنا لا أستطيع التحرك وقلتُ للمأمون:

«أيأخذون أعضاءنا لصنع هذا العجين الغريب، أهذا ما يحصدونه بعد كلِّ هذه القسوة والأفعال الشيطانية الَّتي يفعلونها بنا».

قال (المأمون):

«لا أعتقد أن الأمر بهذه التفاهة، سأرحل للبحث عن معلومات وأعود إليك بعدها. ابقَ آمنًا».

هززتُ رأسي موافقًا وقلتُ:

«حسنًا ولكن عُد سريعًا»

ثُمَّ بلمح البصر اختفى فبدأت بدوري أتجول هنا وهناك باحثًا عن شيء يفيدنا للخروج من هنا. سمعت وقع خطوات فركضت باحثًا عن مخبأ حتّى استقريت خلف إحدى الصناديق المليئة بجلود البشر والحيوانات. وقلتُ في نفسي:

«هؤلاء لم يتركوا شيئًا في أجسادنا إلا وأخذوه».

سمعتُ شخصًا يقول لآخر معه:

«هل وجدتموه؟»

فقال ردًّا عليه:

«ليس بعد ولكنه لن يستطيع الهرب من هذا المكان»

أمسكتُ فمي بيدي الاثنتين مانعًا نفسي من إصدار أي صوت يذكر حتّى رحلوا واختفت أصواتهم عن أذني، فتنفست الصعداء وقلتُ:

«حمدًا للرب»

خرجت من هذه الغرفة بعد إظهار حزني ورثائي على الجثث داخلها.

ولكن وعند فتحي إحدى البوابات الموجودة في المكان حتّى شاهدت ارتفاعًا كبيرًا جدًّا يغطي أسفله الكثير من الشحب الزرقاء. فظننت نفسي في ارتفاع كبير جدًّا وإن سقطت من هنا سأموت لا محالة.

تراجعت للوراء ولكن صوت ورائي قال:

«توقف مكانك وارفع يديك».

فعلمت أنهُ قد تم القبض عليَّ ولكن.. لن أجعلهم يفعلون بي كما فعلوا بالآخرين هنا، فأنا أفضل الموت وتحطيم كلِّ إنش في داخلي على أن أكون جزءًا من هذه العجينة الغريبة.

نظرت للخلف وأشرت بيدي كسلام الجنود لبعضهم:

«إلى اللقاء أيها القوم الأنجاس»

وقفزت بكلِّ ما أوتيت من قوة لأغمض عينيَّ وأدعو الرب أن يأخذ روحي قبل حطام جسدي. ولكن الشيء الغريب في الأمر أنني لم أشعر بأي شيء.

فظننت أن المسافة بين تلك البوابة والأرض كبيرة لدرجة أن السقوط منه يستغرق مدة كبيرة. بقيت مغمضًا عيني ويدي تمسك بنفسها بين صدري مستعدًا لقبض روحي في أي لحظة.

فتحت عيني بعد سماع أصوات صرخات من حولي لأجد جسدي يقفز في بركة زرقاء اللون ذات ملمس لزج. نظرت يمينًا ويسارًا فشاهدت الكثير من أولئك القوم كمثل الذين قابلتهم قبل قليل ولكنهم يبدون هنا مدنيين أكثر. فهنالك الأطفال والنساء وكبار السن منهم. أصبحوا ينظرون إليَّ ويتضح على وجوههم الفزع، فقلتُ بعد إلقائي التحية عليهم:

«أتعرفون أين يكون مسلك الخروج من هنا».

حتّى صرخ الجميع وركضوا هاربين وكأنهم قد لقوا وحشًا مفزعًا... وضعت يدي على رأسي لأعبث بشعراته المتناثرة وقلتُ:

«هل أنا مخيف لهذه الدرجة! ألا يجب أن ينظروا إلى وجوههم أولًا»

ثُمَّ تجاهلتُ ما حدث وأصبحت أتجول المدينة محاولًا الكشف عن ماهيتها. كنت أتوقع بل متيقنًا أن هذه المدينة تكون تحت البحر حسبما تقول الخريطة وحسبما شاهدتُ عيني. فنظرتُ للأعلى لأجد الكثير من الغيوم الزرقاء تُغطي المجال للرؤية.

سمعت صوت (المأمون) من ورائي يقول:

«لقد علمتُ كلِّ شيء يا سيدي»

ابتسمت وقلتُ بدون النظر إليه:

«أخبرني»

فقال:

«هذه المملكة، بل هذا الكوكب ليس موجودًا في عالمنا، وليس تابعًا للمجرة الَّتي نتبعها أيضًا».

التفت إليه بهذه اللحظة وقلتُ بتعجب:

«ما الذي تقصده، لقد شاهدت بنفسك سقوطنا إلى حفرة بوسط البحر. هذا يعني أن هذه المدينة متواجدة داخل البحر».

هزَّ رأسه وقال:

«الأمر ليس كذلك، تلك الحفرة لم تكن حفرة في الواقع بل بُعدًا زمنيًّا ينقلنا بنفس اللحظة إلى هذه المدينة».

صمت ثُمَّ أكمل قائلًا:

«هم يظنونا أقوام مقدسة قادمة من السَّماء، فيصنعون من جلودنا وأعضائنا مرهمًا للعلاج به من كلِّ الأمراض على حد قولهم».

ضحكت بسخرية وقلتُ:

«وكيف لنا أن نرحل من هذا المكان»

قال بهدوء:

«علينا البحث عن بعد زمني آخر قبل قبضهم علينا.. أو بالأصح عليك أنت، فأنا أستطيع التخفي متى ما أردت ذلك»

سمعت صوتًا عندها وبلمح البصر تمت محاوطتنا منهم وصرخ واحد منهم قائلًا:

«ابقَ مكانك ولا تتحرك»

ففعلتُ ما يقول تمامًا ولكني همست للمأمون:

«ارحل واعثر لنا على تلك الأبعاد الزمنية ثُمَّ أنقذني من هؤلاء»

هزَّ رأسه واختفى، لم يعلق أحد منهم فعلمت أنهم لم يشاهدوه أساسًا. أمسك بي الكثير منهم وظننت أنني سأعود إلى تلك الزنزانة أو سأقذف إلى ذلك الشيء الغريب الصانع للعجين.

ولكنهم عوضًا عن ذلك أخذوني على مرأى من شعبهم إلى أرض مرتفعة بها شيء غريب لم أشاهد مثله قبلًا. يمثل شكلًا لأجسادنا مصنوعًا من الحديد وبين أجزائه فتحات كثيرة. أدخلوني داخله بالقوة حتّى أصبح ملتصقًا بي.

رغم أني لم أفهم ما هذا الشيء وماهي طريقة فعله إلا أنني أعلم جيِّدًا أنها ستكون طريقة لقتلي. فصرخت ونازعت محاولًا الإفلات ولكن

دون جدوى، لقد أصبحت مكبّلًا بهذا الشيء الذي لا أعلم حتّى اسمه.

قال شخص منهم:

«اليوم سنقتل ثالث كائن غريب ظهر لنا من السَّماء و(المانكويين) مصنوع خصيصًا لهم».

أصبح الشعب يهتف من السَّعادة مشجعين على قتلي والحماس يكاد يخرج من أجسادهم. بدأت أفهم الوضع الحاصل هنا جيِّدًا فابتسمت بخبث وقلتُ:

«تقولون إنّني ثالث مخلوق قد سقط من السَّماء إلى أرضكم أليس كذلك»

فصمت الشعب عن الهتاف وأصبحوا ينصتون لما أقوله، عندها قال نفس الشخص الذي قال تلك الجملة:

«هذا صحيح فأنت الغريب الثالث واليوم ستكون في عداد الموتى كسابقيك»

فضحكت بهستيرية على غباء القوم هنا وسهولة استغفالهم ثُمَّ قلتُ:

«إن كنتُ أنا الثالث فما أولئك المتواجدون في ذلك البرج الكبير، أليسوا من فصيلتي! أم أنهم قد سقطوا عليكم من مكان غير الذي سقطت أنا منه.. السَّماء»

لم يتحدث بل صرخ للجند قائلًا:

«ابدؤوا بسلب روحه منه»

فبدأوا بسحب شيء في هذا الشيء الذي يدور حول جسدي ثُمَّ وببطء بدأ في التضييق عليَّ. سأكون ميّتًا بهذه الطريقة بعد كلِّ الأفعال الَّتي فعلتها في حياتي إذًا، في الواقع أستحق ذلك.

ولكن بدلًا من البكاء أو الصمت على الأقل بدأت في الضحك الهستيري عند كلِّ شعور في داخلي بالألم نتيجة ضغط هذا الشيء بي والذي يدعونه بالمانكويين.

ظل الجميع صامتًا ينظر إليَّ بتعجب لدرجة أن بعضهم صرخ قائلًا:

«هذا الشيء لا يفيد للقضاء عليهم»

وقال آخر:

«يبدو أنهم لا يشعرون بالألم مثلنا»

بينما أنا لم أكن معهم، كنت متقوقعًا على ألمي الذي أشعر به يمزق كلِّ جزء داخل جسدي. ودقات عظامي تصل إلى مسمعي بعد كلِّ ثانية من ضغط هذا الشيء عليَّ.

شعرت أن الموت قادم وأنني في دائرة الموت أصبحت سائرًا.. ورغم أني أعلم جيِّدًا أنني لن أكون من أصحاب الجنة وأن الجحيم ينتظرني بفارغ الصبر لحرقي بتكرار أبدي.

إلا أنني كنت مبتسمًا وتلك الضحكات لا تفارقني، فالموت بوجه مليء بالانكسار وصوت يصرخ راجيًا من يعذبه أمر لا يمكن أن أقبل به. فكما قلتُ سابقًا الكرامة أهم من الجسد والروح والأرض وجميع ما نمتلكه بهذه الحياة.

كرامتي وإن رحلت عنها وتركتها في هذه الأرض وحيدة إلا أنها ستجعل منِّي رجلًا لا يُنسى. فهنالك الكثيرون من عديمي الكرامة والشجاعة يتكررون أمام أعيننا يوميًا ولكن أصحاب الشجاعة الممتزجة بالكرامة قليلون.. قليلون جدًّا. ومنذ الصغر تعاهدت مع (يوسف) و(هزيم) أن نكون نحن الثلاثة منهم.

(لا تسأل الشُجاع ما سبب موتك بل اسأل الجبان عن سبب تمسكه بالحياة)

بدأ جسدي يستسلم وصوت ضحكاتي أصبح لا أثر له.. حتّى أغلقت عيني فلم أعد أشعر بأي شيء.

دع الرُّوح تتنفَّس بعيدًا عن تقيُّدات الجسد

وطِرْ في باطن السَّماء بجناحيك الخفيَّتَيْن

فتحتُ عيني وشاهدتُ نفسي في مكان آخر بعيد كلِّ البعد عن أصوات شعب تلك المدينة وضغط ذلك الشيء المدعو ب المانكويين.

كان المكان مظلمًا لدرجة أني لا أرى حتّى وقع أقدامي، سوى صوت أمواج البحر الَّتي تقرع أبواب أذني كلِّ لحظة. نهضت من موضعي وفركت عيني لعليَّ أشاهد أين أنا. على الأقل أردت معرفة إن كنت في عالم البشر أو تجاوزت تلك الأرض منذُ إغلاق عيني في تلك اللحظة.

سمعت صوتًا دون أن أشاهد صاحبه رغم أني عرفته قائلًا:

«لا تخف، فأنت لا زلت هنا.. حتّى الآن»

قلتُ بعد أن ابتسمت رغم الألم الذي بدأ جسدي مجددًا بإشعاري به:

«وكيف أتينا إلى هنا أيها (المأمون)»

قال لي:

«لقد أخرجتك من ذلك الكائن الملتف حولك بعد اكتشافي لوجود بُعد أخر قد فُتح في نفس السَّماء الَّتي سقطنا منها. يدعون تلك الأبعاد بالثقوب ذات البابين، والسبب في ذلك أن شكلها يكون دائرة سوداء كبيرة تمتص كلِّ شيء يجوب حولها وتفرزه في مكان آخر

بواسطة دوائر بيضاء تشبهه سوى في لونها وأنها تقذف الأشياء لا تسحبها».

ثُمَّ صمت منتظرًا منِّي تعليقًا ولكن عندما لم يجد سوى الصمت أكمل قائلًا:

«تلك المملكة في مجرة أخرى أو قد تكون في كون أخر، فالأكوان قد تكون متعددة وليست واحدة كما نظن. وقد يعيش في الكون الواحد ملايين المخلوقات منتشرين في الكواكب أجمع».

قلتُ بعد تفكير:

«كنت أظن أن الكواكب لا تحتوي الهواء الأساسي لعيش المخلوقات ولا السبل الجيدة للعيش، هذا ما سمعته من المطلعون في مدينتنا».

قال لي:

«قد يكون كلامك صحيحًا ولكن هذا لا يعني زوالهم، فالمخلوقات تتعايش مع وطنها. مثال على ذلك إن أخذت سمكة من بحر معين ووضعتها في بحر آخر، رغم أنك لم تغير طريقة عيشها بل كلِّ ما فعلته هو أنك أخذتها من بحر ووضعتهارفي بحر آخر. ستجدها ميتة بعد يوم واحد بسبب اختلاف نسبة الملوحة وغيرها من العناصر بين البحرين. فاستنادًا إلى هذا المثال تستطيع قياسه مع المخلوقات إن كانت في أرضنا هذه أو في أرض أخرى بمجرة أو كوكب أو كون آخر. إن احتياجاتنا للهواء هنا لا يعني احتياج المخلوقات

الأخرى في إحدى الكواكب المعدومة منه. وإن احتياجنا لجاذبية أجسادنا بالأرض لا يعني احتياج المخلوقات الساكنة في أراضٍ معدومة الجاذبية لذلك».

هززتُ رأسي وقلتُ:

«صحيح، قد يكون كلامك صحيحًا وقد يكون عارٍ من الصحة».

فقال مستفسرًا:

«ما الذي تقصده يا سيدي؟»

قلتُ له:

«بالنسبة لي، فأنا أستبعد أن تكون تلك المملكة (بُلمار) في مكان آخر خارج هذا الأرض لسبب واحد لا أكثر. لغتهم كلغتنا بالتمام وهو الأمر الذي لا أفهمه حتّى الآن. كيف تكون لغتنا متشابهة رغم أنهم بعيدون عن أرض العرب».

صمت قليلًا ثُمَّ قلتُ:

«أين نحن الآن؟»

قال:

«نحن في جزيرة خالية صغيرة لا يوجد أي مخلوقات فيها سوى بعض الطحالب الَّتي تغطيها والَّتي تكون في بحر الجنوب العظيم».

قلتُ له متسائلًا:

«وما هو بحر الجنوب هذا؟»

فقال:

«بحر كبير جدًّا ويكون أكبر مسطح مائي على سطح الأرض يمتد من الشمال إلى الجنوب، كنتُ أسمع عنه كثيرًا وقد مررتُ منه عدة مرات ولكني لم أقطعه بأكمله بسبب أنهُ يحتوي على عرش الشيطان الأعظم إبليس».

فقلتُ:

«وما الذي أتى بنا إلى هذا البحر؟»

قال:

«ذلك الثقب الذي دخلنا منه أخرجنا إلى هذا البحر».

شعرت بأن الجزيرة تهتز فنهضت من مكاني بعد اتضاح الرؤية نتيجة ضوء القمر وقلتُ له:

«هذه الجزيرة تتحرك»

بدأ على وجهه التعجب أيضًا واختفى لدقائق فظننتُ أنهُ قد هرب. عندها أخرجتُ الهواء من فمي وقلتُ:

«كنت أتوقع أني أستطيع الاعتماد عليه دائمًا»

لم أعد أهتم لأين رحل فهذه الجزيرة الغريبة هي مصدر اهتمامي بهذه اللحظة. لقد تحركت بسرعة غير طبيعية وبدأت بالغرق ببطء خلال مسيرها. حتّى أصبحت بعد لحظات غارقًا في أعماق البحر معها؛ لأفتح عيني داخله وأجد ما لم أتوقع في حياتي أن أشاهده بعيني يومًا.

تلك الجزيرة الصغيرة على حد قول (المأمون) لم تكن من الأساس جزيرة بل لم تكن شيئًا سوى ظهر حوت عملاق كحجم أربعمئة شجرة في آخر عمرها. اقترب منِّي وأصدر صوتًا مرعبًا ثُمَّ فتح فمه بأكمله استعدادًا لدخولي. ولكني سُحبت بكلِّ قوة مبتعدًا عنه بواسطة امرأة.

بدأت بسحبي ناحية مكان له بوابة ضخمة جدًّا موجودة تحت الأرض. فظننت أني غارق لامحالة نتيجة انتهاء الهواء من فمي وسحبها لجسدي إلى الأسفل.

حاولت بكلِّ قوتي الابتعاد عنها والعودة لسطح الماء رغم أني أعلم بأني لن أصل إلا وقد فاضت روحي إلى بارئها. لم أستطع الابتعاد بسبب قوتها الَّتي لم أعهدها على امرأة قبلًا، فاستسلمت لما تفعله وأين تريد أخذي.

فُتحت تلك البوابة المصنوعة من الزجاج المضيء بواسطة قناديل البحر حوله على مصراعيها وعند دخولنا من خلالها أغلقت أبوابها من جديد.

فور تركها لي أصبحت أكح بكلِّ قوة لإخراج المياه المتسللة إلى جسدي خلسة، وعند إفراغي ممَّا أفعله قالت:

«من أنت؟»

فنظرت للمكان لأجد مئات السّهام تحاوطني، فقلتُ وأنا أتأمل أشكالهم الغريبة:

«أدعى أحمد ابن سالم بشري تائه»

ثُمَّ صمت قليلًا وظللت أنظر إليهم ثُمَّ قلتُ:

«ومن تكونون أنتم يا معشر الغرباء؟»

بدأوا يتهامسون فيما بينهم حتّى أبعدوا تلك السهام عني ومدت تلك المرأة يديها لمساعدتي على النهوض ثُمَّ قالت:

«اعذرنا أيها البشري ولكننا نخشى الغرباء»

قلتُ لهم وأنا أنظر بتعجب إليهم:

«وهل أنا من أتيت إليكم طواعية أم أنتِ من أخذتني إلى هنا بكلِّ قوة؟»

بدأ الغضب على وجهها يظهر وقالت:

«إن لم أفعل ما فعلته لكنت في بطن ذلك الحوت مودعًا أعتاب الحياة»

رفعت حاجبي ونظرت إليها بكلِّ سخرية ثُمَّ تجاهلتها وبدأت أتفحص بعيني كلِّ شبر في هذا المكان. مدينة تحت الأرض ولكن لا وجود للماء هنا والهواء وفير أيضًا. فسألت:

«ما هذا المكان؟ »

قالت المرأة:

«يدعى (سراديب) سجن الشياطين المغضوب عليهم»

لم أفهم ما تعنيه بكلِّمة سجن، كيف يكون سجنًا وهم يستطيعون فعل ما يريدون فعله. غير أني لم أتفاجأ بأن يكون هؤلاء القوم من الجن فأشكالهم لا تمت للبشر بصلة. أشكالهم كالزنج تمامًا ويرتدون رداء مصنوعًا من أوراق البحر غير القابل للبلل ويخزنون المجوهرات في وجوههم. أما عن شعورهم فهي تختلف من شخص لآخر، فمنهم من يضع المجوهرات أيضًا في شعره المتشكل على شكل عناقيد والآخر يتركه بلا أي شيء والحال كذلك بالنسبة إلى النساء منهم.

أعينهم سوداء بالكامل وطولهم أطول من أجساد البشر بثلاث أشبار تقريبًا. بنيتهم ليست متناسقة فاليدين طويلتان زيادة عن اللزوم والأرجل كذلك والعكس يكون للوجه والبطن والرقبة.

سألت:

«لماذا تم سجنكم هنا؟ »

فقالت:

«بسبب عدم انصياعنا لأوامر (عزازيل) ومخططاته».

سألتها مستفسرًا عن صاحب هذا الاسم فقالت:

«تسمونه الشيطان أو إبليس.. ولكنه لا يحب هذا الاسم فبقي على اسمه القديم قبل النزاع بينه وبين خالقه».

قلبي بدأ بالدق بسرعة جنونية عند علمي أن هذا المكان ليس سوى سجن يستخدمه إبليس أو (عزازيل) كما تقول لعقاب أتباعه. فقلتُ لها وعلى وجهي علامات الخوف:

«هل تعلمين طريقة أستطيع بها الرحيل من هنا؟»

فنظرت إليَّ لوقت طويل ثُمَّ ضحكت كالمجانين وهي تشير إلى وجهي. أصبحتُ خجلًا من معرفتها بأمر خوفي ولكني لم أنكر ذلك أبدًا بل قلتُ معبرًا على أن الخوف أمر طبيعي:

«يا عزيزتي يجب عليك ان تعرفي بأن الخوف نصف الشجاعة، فإن لم يكن هنالك خوف في أعماقنا لن تصمد سُلالتنا لعدة سنوات حتّى تنقرض»

توقفت عما كانت تفعله من سخرية بي وقالت:

«أرجوك اعذرني ولكن وجهك عند علمك لما قلتُه لك كان مضحكًا، فنحن لم نشاهد شخصًا خائفًا منذُ زمن بعيد»

ثُمَّ قالت لتغيير الموضوع:

«اسمي (نهر ابنة آرام) من الجن الطيار ولكن للأسف لا نستطيع الطيران منذُ أن وضعنا في هذا المكان».

أردت مواساتها ولكنِّها أمسكت يدي وأخذتني بين الجميع وهي تقول:

«سأريك المكان، ستنبهر يا (أحمد)»

فذهبت معها رغم رغبتي بالخروج من هذا المكان بأسرع ما أستطيع.

المدينة كانت وكأنَّها على جبل رغم أنها في البحر حسب ما شاهدت وفوقها سماء تملؤها الطيور وأشعة الشمس، فبدأتُ لا أفهم شيئًا حقًا. كيف لمدينة تحت الماء أن تحمل كلِّ هذه المناظر الخلابة والَّتي تكون في سطحه وليس في قاعه.

قلتُ لها ما يدور في عقلي فقالت:

«ومن الذي قال لك أننا تحت الماء؟!»

فقلتُ:

«عند دخولنا أنا وأنتِ فُتحت البوابة في عمق البحر فظننت أنها كذلك».

قالت لي:

«لا يا عزيزي فالبوابة تحت الماء هذا صحيح ولكن مدينتنا على سطح البحر، في الواقع هي ليست مدينة كما تردد أنت بل جزيرة عائمة في الماء تتحرك ببطء شديد».

لم أستوعب ما تقوله فأمسكت بيدي مجددًا وركضنا إلى أعلى قمة في الجزيرة. عندها قالت لي:

«انظر الآن جيِّدًا»

فنظرتُ لأجد البحر برونقه وجماله، تتراقص على سطحه الأسماك فتارة تقفز وتارة تعود للماء لتضيف جمالًا إليه فتجعله أجمل رسمة قد يرسمها رسام ماهر.

والشمس عند استقرارها في السَّماء عكست نورها على البيوت الزجاجية المتواجدة في هذه الجزيرة (سراديب) فأصبحت البيوت تتلألأ بألوان متعددة كألوان قوس قزح.

لم أستطع النطق بل ظللت أنظر لهذا المنظر وأعطيه حقه في التمعن والسكون. وهي بدورها لم تقاطعني بل ظلَّتْ تنظر لنفس النقطة الَّتي أنظر إليها رغم علمي أنها قد تكون شاهدت هذا المنظر مئات المرات حتّى ملّت منه.

سألتها بعد وقت طويل:

«هل أنتِ سعيدة هنا؟!»

فابتسمت وقالت:

«لا أحد يسعد في سجنه، فالسجن وإن كان جميلًا كما تراه الآن إلا أنهُ في نهاية المطاف يكون سجنًا مظلمًا وكئيبًا في أعين الماكثين فيه رغمًا عنهم».

فقلتُ لها بعد التفاتي إليها:

«ولكنك تستطيعين الخروج متى أردتِ أليس كذلك».

هزَّت رأسها ثُمَّ قالت:

«الأمر ليس أني أستطيع الخروج والعودة متى ما أردت، فأنت تشاهد المكان وتعلم جيِّدًا أن ليس هنالك مخرج إن لم تكن تمتلك القدرة على الطيران أو على الأقل تمتلك قاربًا يحملك. ونحن لا نملك الاثنتين، رغم أننا من الجن الطائر إلى أن هذه القدرة قد سُلبت منا عند معارضتنا لما يقوم به (عزازيل). فهو لا يريد فقط التخلص من البشر بل يريد أيضًا التخلص من الجان المؤمنين وقتلهم واستباحة دمائهم. لقد رفضنا بكلِّ قوة وإصرار فهؤلاء المؤمنون يكون منهم إخواننا وأقاربنا ورابط الدم بيننا لا يمكن أن يصدأ إلى هذه المرحلة.. فوضعنا هنا عقاب لنا وعبرة لتابعيه».

قلتُ لها مؤيدًا ما قالته:

«أتفق معكم بكلِّ شيء فعلتموه، أن تُسجن لأجل أمر تؤمن به خير من الحرية في ظل قيدك لعقلك وإيمانك».

فقالت بعد أن ابتسمت لتظهر صفًّا من الأسنان البيضاء كحبات من اللؤلؤ المرصوص بتناسق:

«صدقني يا (أحمد)، نحن فخورون بأنفسنا رغم كلِّ شيء فالجبن صفة مكروهة لدينا كحال العرب الذي تندرج أنت منهم).

صمت قليلًا ثُمَّ قلتُ بصوت خافت وأنا أنظر للبحر متأملًا ظاهره:

«صحيح»

لفت نظري قصر كبير مصنوع من البلور يطفو على البحر فظننتُ أنني قد أُصبت بالهذيان فسألت (نهر):

«أتشاهدين ما أراه يا (نهر)؟»

قالت لي بلا مبالاة:

«أتقصد القصر العائم؟ »

هززتُ رأسي إيجابًا فقالت:

«أراه كلِّ حين ولكني لم أذهب إليه قبلًا».

فسألتها متعجبًا:

«لماذا؟! انظري إلى جمال شكله وغرابته في آنٍ واحد، وكأنهُ يدعوك للذهاب إليه».

ثُمَّ نهضت من مكاني راغبًا بالسّباحة إليه ولكنِّها أمسكت يدي وقالت:

«لا تذهب»

لم أهتم لما تقوله فعيني وعقلي عند ذلك القصر وشدِّة فضولي لرؤيته عن قرب جعلني أبعد يدها وأركض إلى البوابة للذهاب إليه.

قفزتُ في الماء وصعدتُ للأعلى وعيني تتمنى رؤية ما في داخله بتعجل، لا أعلم ما هو السر لكلِّ هذا الحماس والرجوع للبحر رغم المخلوقات المخيفة والَّتي قد تبتلعني في لحظة واحدة دون أن اشعر بذلك.

ولكن رغبة في داخلي تشدني إليه وكأن روحي معلقة في ذلك المكان. عند وصولي إلى ذلك القصر العائم وبشق الأنفس نظرًا إلى عدم ثباته فهو يتحرك ببطء كجزيرة (سراديب).

عند وصولي وخروجي من الماء أمسكت بأطراف القصر لأصعد إليه، فسمعت صوت ضحكات لفتاة. تلفّت يمينًا ويسارًا ولكني لم أجد أحدًا. عندها قلتُ:

«هل هنالك أحد؟!»

ولكن بدلًا من الإجابة عادت الضحكات مجددًا فتلفّتُّ لليسار لأجد إحدى بوابات القصر مفتوحة ولمحت امرأة شابة دخلت منها.

مشيت ببطء وقلتُ في نفسي:

«إذًا، يبدو أنك تحبين لعبة الاختفاء، ولكني لا ألومك عزيزتي فيبدو أنكِ مسجونة بهذا القصر كسكان جزيرة (سراديب)».

لم ترد فمشيت حتّى وصلت إلى البوابة ودخلتُ منها، عندها وبسرعة أقفلت البوابة. وقد أصدر صوت وقعها رنينًا في أذني.

لم أهتم بأمر البوابة ولم أحاول من الأساس فتحها، فكل ما أريده الآن هو مشاهدة هذا القصر ومعرفة من هم سكأنهُ وما هي قصتهم.

المكان من الداخل أيضًا مصنوعٌ من البلور وكذلك الأثاث من لوحات وأرائك وزينة ومفروشات، حتّى السّلالم قد صنعت من البلور أيضًا.

ظللت أتجول في المكان وأنادي بعد كلِّ حين:

«هل من أحد هنا؟ لقد مللت من هذه اللعبة (الاختباء) فلتخرجي»

ولكني لم أشاهد أحدًا سوى صوت الضحكات ولمحات لنفس الفتاة تركض كلِّ حين في اتجاه مختلف. كنتُ أتتبع سيرها ولكني شعرت بأن قوتي بدأت في الزوال، فتمسكت ب جدران القصر للتحكم بتوازني، فشعرتُ بأن عيني تفقد بصرها ببطء.

شاهدتُ بباقي بصري الذي يوشك على الرحيل تلك الفتاة تمشي متقدمة نحوي ثُمَّ سرعان ما تحولت لامرأة عجوز وكلما تقترب خطوة منِّي كلما تملؤها التجاعيد حتّى لم أعد أبصر شيئًا ورحل وعيي فلم أعد أدرك ما الذي يحدث.

بعد وقت طويل لا أعلم مدَّته بالتحديد فتحت عيني لأجد نفسي عائمًا بالبحر بواسطة شخص توقعتهُ قد تركني ورحل بعيدًا. لقد كان (المأمون) وعند نظري للقصر وجدته يبتعد عنا حتّى رحل عن أبصارنا فلم نعد نشاهده.

قلتُ للمأمون:

«ما الَّذي حدث؟»

فقال:

«لا أعلم ولكني شاهدتك مغمىً عليك في داخل القصر فأخرجتك بسرعة خصوصًا عندما شعرت ببعض الدوار وأنني قد أصبح طريحًا مثلك بعد وقت قصير».

سمعنا صوت ضحكات فتلفتنا للخلف لنجد نهر وإحدى أبناء قومها معها يتضاحكون ثُمَّ قالت:

«هل أشبعت فضولك أيها البشري؟ في الواقع كنت آتية لإنقاذك ولكني علمت الآن أنك لا تحتاج لمساعدتي في شيء فهنالك من يحميك»

«تقصد (المأمون).».

فقال لها (المأمون) بغضب:

«إن كنتِ تعلمين أن القصر خطر، لماذا لم تقولي له بأمره؟»

قالت بعدم مبالاة:

«هذا الأمر لا يعنيني، إن أراد الذهاب يستطيع ذلك. فالفضول في بني البشر من الصعب بل من المستحيل قمعه».

ثُمَّ قالت لنا:

«تعالا الاثنين إلى الجزيرة قبل أن تبتعد هي أيضًا كابتعاد القصر وسأقول لكم كلِّ شيء عنه».

ثُمَّ نظرت إليَّ وقالت:

«لو أنك انتظرت قليلًا فقط لعلمت كلِّ شيء عنه دون خوض التجربة الَّتي كادت تودي بحياتك للهلاك».

قبل أن أقول شيئًا غطست في الماء مع ذلك الرجل من قومها ففعلنا أنا و(المأمون) نفس الأمر لنذهب إلى بوابة جزيرة (سراديب).

بعد دخولنا للجزيرة أبعدتنا عن قومها وأدخلتنا إلى إحدى الحدائق المليئة بأشجار بيضاء اللون تدعى الكافور الأبيض بحسب قول صديقها والذي يدعى (زيفارا).

بعد طلبها منا أن نجلس وتلفتت في جميع الاتجاهات ثُمَّ همست ل (زيفارا) أن يتفقد المكان وكأنَّها تهُم بفعل محرم لديهم. بعدها بدأت في قصٍّ ما في جعبتها عن ذلك القصر الغريب.

فتاة البلُّور

ال(قمراء)

لا تنظرْ إلى الجمالِ بعينيك الَّتي تُبصر بها

فكم من جمالٍ يتخفَّى بين أهدابِ قُبحٍ ظاهر

قبل مئات السنوات كان لقصر البلُّور موطن يستقر فيه، يسكن نفس الجزيرة ملك يُدعى (مالابار العظيم)، على عكس اسمه بلغتنا السريانية (صاحب من العفة والوقار) لم يكن والذي يعني وقورًا ولا يمتلك من العفة شيئًا. في الواقع، لقد كان قاسيًا ويهتم باقتناء الكنوز والجمال أكثر من أي شيء في العالم. عند زواجه من ابنة إحدى ملوك الجزر القريبة منه، كان قد اختارها بعناية فهو كما قلتُ يهتم بالجمال كثيرًا، فالجمال لدى (مالابار) يعني كلَّ شيء.

ظن أنهُ إن تزوج بامرأة فاتنة الجمال بالإضافة إلي أنهُ هو أيضًا يمتلك من الوسامة الكثير فسيمتلكون أطفالهم وجوهًا لا توصف من شدَّة جمالها.

الكثير من شعبه كان ينتقده خصوصًا أنهُ إن تجول في جزيرته والَّتي تُدعى (الأرجوان) لا يحب أن يلتقي بأي شخص قبيح الشكل في طريقه. فأصحاب الوجوه القبيحة يختبئون في المنزل ولا يظهر أمامه سوى الوسيمين والجميلات من الشعب.

مرت السنوات وشعب جزيرة الأرجوان يعانون من غرابة ملكهم وسذاجة تفكيره، ولكن ما باليد حيلة فهم لا يستطيعون نزع الحكم منه نظرًا إلى أن سُلالته هي الَّتي عثرت على هذه الجزيرة منذُ ألوف السنوات. فمن يعثر على شيء ما يكون له ولسلالته الحق في التحكم به، هذا ما كان يردده أهل الجزيرة لبعضهم البعض.

ولكن وبعد سنتين من زواجه جلبت زوجته (اسمها مجهول لا أحد يعلم عنها شيئًا سوى ما يتداولونه الجان جيل بعض جيل). لقد

جلبت زوجته ابنتين من بطنها وهذا الأمر أسعد الملك كثيرًا، وأراد بكلِّ سرعة رؤية وجوه ملائكته الصغار. أحضروا إليه الكبرى وعند نظره لها سُر بوجهها الذي يشبه القمر بحسنه وجماله فأسماها (قمر) تيمُّنًا به. وبعدها طلب رؤية الصغرى، فتردد الخدم في ذلك وقالوا له:

«ولكننا نخشى عليك من صدمة الرؤية»

ظن أنهم يقولون ما يقولونه من شدِّة جمالها الذي قد يفوق جمال أختها كثيرًا فقال:

«أروني ابنتي حالًا»

استأذن الخدم لجلبها وعند انتظاره ظل يبحث في مخيلته عن اسم يليق بجمالها الذي قد يتجاوز جمال أختها (قمر) كثيرًا. فقال مخاطبًا نفسه وهو يتجول يمنة ويسرى:

«لقد حظيت أختها الكبرى بصفة الجمال الدائم لدى الشعراء (قمر) إذًا يجب أن تمتلك الصغرى اسمًا يليق بجمالها الذي قد طغى على القمر فقال (ال(قمراء)) وال(قمراء) هو شعاع القمر والذي يضفي للقمر رونقًا وجمالًا وضوءًا أخَّاذًا. فبدون ال(قمراء) لن يكون للقمر أي جمال ولن يكون في ذات الوقت مضربًا للغزل عند العرب».

فقال بعد عثوره على الاسم الذي يناسب ابنته الصغرى:

«متحمّسًا لأراكي أيتها ال(قمراء) فأنا متأكد أني لم ولن أشاهد كجمالك يومًا في هذه الدُّنيا».

جلبوا له ابنته الصغرى ووجهها مغطى بالوشاح، وصراخها قد كان مزعجًا على عكس أختها (قمر) الكبرى فقد كانت مبتسمة بين يدي أبيها تنظر إليه بكلِّ حب ودلال.

لم يُبالِ بصراخها بل كان يسمعه طربًا وهو الذي لم يحب يومًا أصوات الأطفال فكيف ببكائهم. قال للخدم:

«ارفعوا الوشاح عنها لأشاهد وصف ضوء القمر على صغيرتي»

ففتحوا الغلاف ويديهم ترجف من شدِّة الخوف ليظهر وجه من شدِّة قبحه يخيل إليك أنهُ قادم من الجحيم نفسه. أصبح ينظر إليها كالصنم، ولم يستطع نطق حرف واحد:

(عينيها جاحظة وتكاد تخرج من وجهها وفمها كبير يسع أربع حبات من العنب بكلِّ سهولة. وأنفها كبير وبلا عظمة بالمنتصف ورغم كلِّ ذلك كانت تمتلك جلدًا مبقّعًا).

وكأن الكبرى قد سحبت جمال الصغرى بأكمله فأصبحت بلا أي جمال بل قد تُعد من فئة المغضوب عليهم في عقل الملك.

حرك يديه ببطء نحوها وهي ترجف، فظلَّتْ الملكة تراقبه من بعيد بسبب خوفها من ردة فعله وعلى ابنتها في ذات الوقت. فور تلامس يديه ووجهها حتّى قام بسرعة قصوى بخنقها وهو يصرخ:

«فلتموت أيها المسخ»

عندها ركضت الملكة رغم آلام ولادتها إليه وبقوة سحبت ابنتها منه وضمتها ثُمَّ قالت بصوت عال:

«أتريد قتل ابنتنا أيها الملك؟»

قال لها وفي عينيه الشرر:

«من أين أتت هذه المسخ؟! أخبريني، من أين جلبتها؟»

نظرت إليه بصدمة ثُمَّ قالت وقد أوشكت عيناها على البكاء:

«رغم كلِّ شيء هي ابنتنا ويجب عليك أن تتقبلها وتحبها»

صرخ وأراد ضربها بيديه ولكنه توقف في آخر لحظة وقال لها:

«إن لم تريدي موتها فلا تظهر أمامي أبدًا»

ثُمَّ تركها وولى مبتعدًا عنها.. ظلَّتْ تنظر في وجه ابنتها وتبكي حتّى عمَّ صوت بكائها الجزيرة بأكملها.

كبرت (ال(قمراء)) وظلَّتْ حبيسة غرفتها بأمر من والدتها رغم أن أختها يسمح لها أن تذهب أينما شاءت وفي أي وقت تريد الملابس بأغلى الأقمشة كالحرير المنسوج بخيوط من ذهب من نصيب (قمر)، بينما ال(قمراء) لم تكن تحصل سوى على الأشياء الَّتي لا تريدها قمر. تساءل جميع أهل المدينة عن الابنة الصغرى فهم رغم

أنهم يعلمون أن الملكة قد جلبت ابنتين ولكنهم لم يشاهدوا سوى واحدة وهي (قمر).

فانتشرت إشاعة أن قد تكون ال(قمراء) فائقة الجمال وقد تكون أجمل من أختها فلك أن تتخيل أن تكون هنالك فتاة أجمل من قمر بمراحل عديدة. ستكون كالحور في أعينهم، عندها أصبح الشعب بأكمله يصرخ عند ظهور الملك مع زوجته وابنته قمر باسم الابنة الصغرى ال(قمراء) طالبين برؤيتها ولو لمرة واحدة.

اتّضح الغضب على وجه الملك وأدار ظهره باتجاه شعبه ثُمَّ رحل بخطوات سريعة إلى قصره وبالتحديد إلى أسفل غرفة في القصر ليختلي بنفسه من هذا الهم الذي أصابه عند ولادتها.

ظل يردد كلِّ لحظة (ال(قمراء)) اسم ابنته بدون شعور وكأنهُ يريد الخلاص من اسمها بكثرة النطق به.

بينما في عقل آخر هنالك من تستفيض غضبًا من تهميشها وذكر أختها رغم قبحها. فأن تكون جميلًا وترى نفسك تمتلك من الجمال الكثير جدًّا ورغم كلِّ ما تملكه يتجاهلونك الآخرون ويبدون الاهتمام لمن هم أقل منك في كلِّ شيء يجعلك تكره حتّى نفسك.

في بداية الأمر كانت (قمر) تحن على أختها ولكن ب المقارنات بينهم اصبحت تكرهها وكأنَّها قد سلبت أهم صفة موجودة فيها، الجمال.

في نظرها أن الجمال لا يمكن أن يكون جمالًا إن لم يشاهده الآخرون. وبسبب أختها فالجميع يرونها قبيحة بالنسبة ل (قمراء) الَّتي لم يشاهدوها ولا مرة.

عندها خطرت في بالها فكرة، قد تجعلها تتلقى العقاب ولكنِّها أرادت وبشدِّة أن يشاهد الجميع (ال(قمراء)) وبشاعتها ليرددوا أن الملك قد خبئها بسبب القبح في وجهها لا الجمال الذي تتميز به (قمر). ولكنِّها وعند مشاهدتها ل(قمراء) وبراءتها حتّى تغير رأيها كليًا وقالت لنفسها لن أضع أختي في هذا الموقف أبدًا.

بعد عدة أيام من هذا الحدث وانطفاء نار الغيرة في قلب الكبرى لبعض الوقت. أقام الملك احتفالًا كبيرًا جدًّا بغرض تزويج ابنته الكبرى لإحدى أبناء ملوك إحدى الجزر الَّتي تبعد مسافة قصيرة عن جزيرته.

في ذلك الاحتفال ارتدت قمر فستانًا أبيض مصنوعًا من الحرير الطبيعي مطرزًا، في داخله رسومات لزهور (ال(زيزفون)) الصفراء. فأعطى الرداء لصاحبته منظرًا جميلًا ومبهرًا للعين في ذات الوقت. ظلَّتْ تنظر للمرآة محاولة اكتشاف أي عيب لتقوم بتعديله ولكن وعند معرفتها بأن لا عيب فيها ابتسمت بغرور وكبرياء. من زاوية أخرى ظلَّتْ تنظر ال(قمراء) لأختها وفي داخلها أمنية واحدة فقط، أن ترتدي فستانًا شبيهًا بما ترتديه أختها ولكن لا يمكن أن يحدث ذلك، فهي تعلم أنها لن تحصل إلا على الذي لا يناسب ذوق (قمر)، وما من شيء لا يناسب (قمر) إلا القبيح حقًا..

قالت بارتباك:

«هل أستطيع رؤية شكلي بالمرآة، فأنتِ تعلمين أن المرآة ممنوعة عليَّ يا (قمر)»

هزَّت (قمر) رأسها بمعنى كلّا وطلبت من إحدى الخدم حمل المرآة بعيدًا عن هنا ثُمَّ رحلت بلا أي كلمة توجهها لأختها.

عند نزولها انبهر الجميع من شكلها فشعرها الحريري المتموج وكأنهُ يداعب بعضه بعضًا ملامسًا بعضًا منه ثغرها اللؤلؤي الباسم فتظن أنها ملاك قد تم إنزاله إلى الأرض ليلقى عقوبته فأوقع مخلوقات الأرض في شباكه ليكون هو العقوبة عليهم.

ظل ابن الملك المتوقع أن يتزوجها (عُزيف) ينظر إليها بتأمل وكأنهُ يدرس كلِّ شبر فيها ثُمَّ ما لبث أن قال:

حوريةُ سلبت عقلي بلحظةِ

فكيف تُسلب عقول الأحرار

وما إن تهاوت بأقدامها نحونا

حتّى تلاشت مميزاتُ الجمال

بدأت الهمسات تتعالى بعد قصيدته وابتسم الملك وزوجته ظنًّا منهما أن زواج (عُزيف) من ابنتهم (قمر) سيتم لا محالة. فإعجاب

الشخص بشريكة حياته هو الخيط الأقوى لهذه العلاقة القائمة على المصالح أوّلًا وأخيرًا.

عند اقترابها منه واقترابه منها بخطوات بطيئة حرك الملك يديه للأعلى ليقوم العازفون بالعزف الهادئ. فرقصا سويًا بكلِّ انسجام والأميرة ذهبت بين الغيوم من شدِّة افتتانها بوسامة (عُزيف) فأدركت أنهُ هو المكمل لها في هذه الحياة.

ولكن ما جعل عقلها يتوقَّف في عمق أحلامه هي جملته الَّتي قالها بعفوية:

«أتكونين (قمر) أم ((قمراء)) يا تُرى؟»

فقالت بابتسامة رغم حزنها وغضبها في آنٍ واحد:

«قمر»

بدأ يتلفت في جميع الاتجاهات وكأنهُ يبحث عن شيء ضائع منه، فقالت له:

«عما تبحث؟!»

ابتسم وقال:

«أبحث عن أختك فأنا حقًا شغوف برؤيتها»

توقفت عن الرقص وابتعدت عنه خطوتين بينما وجهها ينظر إلى الأرض وكأنَّها تفكر بشيء ما.. فسألها بتعجب:

«ما بك الآن؟!»

نظرت إليه والابتسامة في وجهها وقالت:

«قلتُ تريد رؤية (قمراء) أليس كذلك؟! انتظر قليلًا ستظهر بعد لحظات»

وخرجت من قاعة الاحتفال، بسرعة غير آبهة لمنادات والدتها لها. صعدت الدرجات للأعلى وبالتحديد لغرفة أختها وقلبها مليء بتجمعات الأحقاد منذُ الصغر. لقد انعمى الحنين في داخلها وأصبحت كبركان ثائر لا يهدأ إلا عندما يحرق كلَّ ساكن حوله.

عند فتحها للبوابة وعيناها ممتلئة بحبات اللؤلؤ الساقطة على خديها، قالت لها أختها وقد أغلقت الكتاب الذي تقضي هذه الساعات وحيدة بقراءته:

«ماذا حدث لك؟ ولماذا كلِّ هذه الدموع؟»

ظلَّتْ تتأملها لبُرهة وسرعان ما مسحت دموعها بكفها وقالت:

«هل تريدين حضور الاحتفال؟»

نظرت إليها وكأنَّها لا تستوعب ما قالته فأعادت (قمر) إلى مسامعها الكلمات نفسها:

«هل تريدين حضور الاحتفال يا (قمراء)؟»

هزَّت رأسها والابتسامة تتوسّد ثغرها بكلِّ براءة، عندها بدأت (قمر) بتزيينها وأخذ أغلى الثياب من الخزانة ليكون من نصيب جسد (قمراء). قالت لها (قمراء):

«هل أستطيع رؤية المرآة ولو لمرة واحدة قبل نزولي؟»

اعترضت على ذلك وقالت لها:

«جمالك الفاتن لا يحتاج أن تنظري إليه ولكن هناك في واجهة القاعة ستجدين مرآة كبيرة جدًّا، عندها تستطيعين رؤية وجهك وسط انبهار الشعب به».

بعد ساعة من تزيين قمر لأختها وإظهارها للطيبة رغم الخبث في داخلها وتلك الابتسامة الخبيثة الَّتي تظهر منها رغم محاولتها إخفاءها تجعلها كالشياطين الملازمة للبشر بغرض الإيقاع بهم. قالت لها بعد الانتهاء

«انزلي يا (قمراء) فاليوم بأكمله لك»

همت بالنزول ولكنِّها أدارت وجهها باتجاه (قمر) وقالت لها:

«ألن تأتي معي؟» ا

بتسمت وقالت بكلِّ براءة كاذبة:

«سآتي بعد لحظات، هيَّا انزلي فاليوم لك»

اقتربت منها وحضنتها بكلِّ قوة وقالت لها:

«أنتِ أحنُّ إليَّ من والداي، أحبكِ جدًّا يا (قمر)»

ثُمَّ نزلتْ بكلِّ ثقة إلى الأسفل، عند رؤية الخدم لها أرادوا منعها ولكنِّها لم تستمع لهم بل ظلَّتْ تنزل الخطوات خطوة تلو الأخرى حتّى أصبحت في مقدمة القاعة.

صرخ أحدهم عند الانتباه لها:

«هنالك مسخ يرتدي زيَّ فتاة»

بدأوا ينظرون لها ويتهامسون وعلى وجوههم علامات التقزز، بينما الملك عند انتباهه لها أمسك بقبضة يده بكلِّ قوة محاولًا عدم التهور وهمس لزوجته:

«سوف أقتلها صدقيني»

لم تستطع الملكة قول شيء فكل ما فعلته هو الركض باتجاه ابنتها لحمايتها ممَّا سوف يحدث، شعرت ال(قمراء) بأن المتواجدين يسخرون منها فنظرت للأمام باتجاه المرآة واتضح على وجهها علامات الفزع. صرخت برعب:

«لا يمكن، لا يمكن أن تكون هذه أنا»

أمسكتها والدتها بقوة وهمست لها:

«يجب أن نرحل من هنا»

نظرت لأمها وقالت برجاء:

«أرجوكِ أخبريني أن هذه المرآة كاذبة ولا تعكس حقيقة شكلي»

اقترب (عُزيف) منها، وقال لها وعلى وجهه علامات الدَّهشة:

«هل يعقل أن تكوني ال(قمراء)؟!»

هزَّت رأسها بالإيجاب عندها بدأ جميع من في القاعة بالضحك والصراخ قائلين:

«انظروا إلى فاتنة الجمال، الملك يخفي القبح في قصره»

صرخ الملك على زوجته بكلِّ قوته

«أخرجيها من قصري، بل أخرجيها من مملكتي بأكملها»

هزَّت الملكة رأسها بخوف وسحبت ابنتها بكلِّ قوة محاولة إخفاءها عن عيني الملك. وعند خروجهم من القصر قذفت ب(قمراء) بكلِّ قوة وقالت لها:

«ما الذي فعلته، لقد كسرت أهم قواعد والدك، لن يغفر لنا ما حصل توًّا»

لم تكن (قمراء) مهتمة بما تقول فما تشعر به مختلف جدًّا عمَّا تهتم لأمره والدتها، شكلها الذي منعت منذُ الصغر من رؤيته كيف تتقبله الآن، نظرات النَّاس واستحقارهم لها بينما كانت تقول لها والدتها دومًا سبب منعك من الخروج هو جمالك الذي لا يُضاهى. قالت والغضب في وجهها:

«لقد كذبتِ عليَّ، قلتُ إن في وجهي جمال البدر ونوره واليوم قد رأيته، رأيت القبح مزروعًا في وجهي كالبستان الأسود».

لم تقل والدتها شيئًا بل ظلَّتْ تنظر إليها ثُمَّ سرعان ما اخفضت جسدها إلى مستوى ابنتها وقالت لها:

«لم أكذب عليكِ يومًا، فجمال داخلك يفوق جمال العالم أجمع، وأنت يا (قمراء) اسم على مسمى وإن لم يستطيعوا رؤية ما أراه الآن فهم لا يمتلكون نعمة النظر».

بدأتا الاثنتان في البكاء بانكسار ثُمَّ أشارت الملكة لإحدى خدمها المخلصين فسحب (قمراء) رغم رفضها إلى إحدى الأماكن السرية والَّتي جهزَّتها منذُ زمن لهذا الأمر.

قصر من بلور في نهاية الجزيرة محجوب عن نظر سكانها بسبب إحدى طلاسم كاهنة القصر. وُضِعت الأميرة في ذلك القصر وظلَّتْ بداخله لأيام، الغريب في الأمر أن القصر يخدم ساكنيه بلا حاجة للخدم ففي الصباح تلقى الطعام جاهزًا والأنوار مشتعلة وكل شيءتحتاجه تجده في المكان.

رغم أن القصر تحت أمر الأميرة الصغرى ووالدتها إلا أن المتحكم الفعليَّ به هي الكاهنة (موج) والَّتي صنعته بأمر من الملكة منذُ ولادة الطفلتين بمساعدة شياطينها الخمسة: ((كُثيب) ملك الفرق الأحمر، (مُرضاء) الملازمة للتائهين في الأسفار بغرض موتهم، (هرمونيا) صاحبة الشرور، و(كاسم وكُسير) والدا الطفل الصغير (مرقندم) جالب الحبيب في القبور (بعض الشياطين يتزاوجون الإخوة منهم ببعضهم البعض لأسباب عديدة منها عدم اختلاط دمائهم بدماء الأقل منهم فهم درجات فهنالك الدماء الصافية كإبليس وبعض من أولاده وليس كلهم فالدرجات لا تأتي بسبب الجينات فقط بل هنالك عوامل أخرى يقيسون عليها)).

أصبح الشعب يتحدث عن (قمراء) وجمالها الكاذب والذي لا يغطي سوى قبح لا أكثر وقد كان الملك غاضبًا جدًّا لدرجة أنهُ قد قتل خادمهُ الشخصي بلا أي سبب. أصدر أمرًا بالقبض على الملكة والأميرة الصغرى وأصبح الجند يبحثون عنهما في كلِّ مكان.

عند عثورهم على الملكة بدون ابنتها سألها قائد الجند باحترام:

«أين هي الأميرة الصغيرة؟»

فلزمت الصمت وظلَّتْ تنظر إلى السَّماء والابتسامة في وجهها، أصبح يسألها برجاء ولكنِّها لا تجيب حتّى أتى الملك هائجًا بسيفه وعند رؤيته لزوجته صرخ بغضب:

«أخبريني يا جالبة القبح والعار أين هي تلك القبيحة؟»

لم تجبه فطعنها بسيفه بدون قصد منه فالغضب أحيانًا يجعلنا نفعل الكثير من الأشياء الَّتي تكون لاحقًا أكبر مسبب للاكتئاب وتأنيب الضمير. عند رؤيته لدمائها تصب صبًّا وكأنَّها بركان ثائر وصوت بكائها ونظرات الصدمة في وجهها جعلته كالأعمى الذي ينظر في جهة واحدة متأملًا سوادًا لا ملامح له.

بعد وقت من السكون المخيف، السكون الذي يجعلك تشعر بأن الهلاك آتٍ وأن أبواب التراجع قد فرت هاربة من عمق يديك.

جلس على ركبتيه ليكون وجهه أمام وجهها وتلك الدموع الَّتي سقطت منها بلا شعور قد سقطت منه في نفس اللحظة. ثُمَّ سرعان ما همس بصوت خافت يكاد لا يُسمع ولكنه اخترق كلِّ أركان جسدها المخذول:

«آسف يا ملكتي»

ابتسمت رغم الدموع، وقالت كلحظة وداع قد لا تتكرر بينهما مجددًا:

«لست حزينة فأنا أشعر بأني قد تحررت في هذه اللحظة»

ثُمَّ سقطت لتفترق روحها عن جسدها ويعلن هذا الجسد الملائكي نهاية مسيرته..

أصاب الملك نوبة مخيفة من البكاء وأصبح يصرخ بغضب رغم الألم الممزوج بصوته:

«أحضروا لي (قمراء)، ستموت اليوم ستكون في عداد الموتى»

ثُمَّ قال بصوت مليء بالانكسار:

«وأوقدوا شموع الحُنوات ليُرشدوا روح ملكتنا ضوء الممات»

(الحُنوات مخلوقات صغيرة بحجم عُقْلة الإصبع على شكل إناث البشر ولكنهم يمتلكون في الأسفل كرة ذات فوهة في نهايتها تضيء عند رؤيتها للظلام، يستعملها سكان هذه المدينة عندما يموت شخص ذو قيمة لظنهم أن هذه الحُنوات تعلم أين يكون الطريق للخلود الأبدي).

شاهدت (قمر) موت والدتها، فركضت بذعر وقلبها يدق مئات المرات محاولًا الهرب والابتعاد. وعند رؤيتها ويقين عينيها أن الموت قد حاوط والدتها وسحبها إلى أرض الخلود صرخت بطريقة هستيرية وقالت:

«كل ما حدث لكي بسببي،، أنا السبب في كلِّ شيء، أنانيتي وغروري جعلاني أكشف عن سر (قمراء) للجميع.. أرجوكِ لا ترحلي وخدي روحي ملكًا لكي».

لم تشعر سوى بصفعة قوية قد لامست وجهها لتنظر لمصدرها فتجد الملك بعينيه الَّتي تشع بغضًا وكرهًا في آنٍ واحد وقال:

«إذًا أنتِ السبب بكلِّ شيء حصل هنا»

أشار لإحدى خدمه المخلصين فأمسك بها وقال للملك:

«مولاي ماذا تريد منِّي فعله بالأميرة؟»

فقال رغم الحزن في داخله:

«اقتلوها بإناء مليء بماء العُنقم»

(العُنقم هو مسمى قديم للماء المغلي)

في جهة أخرى من هذه المدينة كانت تشاهد (قمراء) برفقة الكاهنة ما حدث بأكمله عن طريق بلورة بلا زواية في داخلها دخان أحمر اللون كالدم المخلوط بالغيوم.

أصبحت تصرخ عند رؤية مقتل والدتها على يد ذلك الملك الظالم والذي لم تعده يومًا أبًا لها فأمسكت بكتف الكاهنة بيديها الاثنتين وصرخت قائلة:

«افتحي البوابة فأنا لن أبقى هنا بعد كلِّ ما حدث»

رفضت الكاهنة وقالت:

«سيكون العقاب مخيفًا إن خرجتي من هذا المكان يا (قمراء)»

ولكنَّها لم تنصت لها بل أمرتها محاولة إرجاعها لواقعها وأنها ليست سوى خادمة لهم لا أكثر من ذلك ومن واجباتها إتمام أوامر الأميرة. ابتسمت رغم الغضب في وجهها وقالت:

«أمرك سيدتي، لك ما أردتِ»

وفتحت لها البوابة لتخرج راكضة بكلِّ ما تستطيع أقدامها من قوة ولكن صوت الكاهنة ظل يردد بصوت خافت من ورائها:

«سيكون العقاب كوقع السيف على العنق »

عند خروج (قمراء) وركضها بسرعة ناحية قصر الملك، دخلت إلى البنيان واختلطت بالشعب والذي ظل يتهامس بين بعضه البعض عنها بقوله:

«هل هذه الابنة الصغرى؟»

«وجهها مرعب جدًّا»

«يحق للحاكم وزوجته إخفاؤها»

وضعت يديها على أذنها ونظرها في الأرض تعد الخطوات واحدة تلو الأخرى حتّى تبتعد، وعند ابتعادها لم تشعر سوى بسيل من الدموع ينساب من وجنتيها ليعلن أن الحزن قد طغى في القلب حد الفيضان.

مسحت عينيها بقوة وركضت حتّى وصلت إلى قصر الملك (والدها) والذي لم تشعر يومًا بأبوَّتهِ. عند دخولها حاول الكثير من الحرس الإمساك بها ولكنَّها تجاوزتهم وركضت إلى حديقة القصر لتلتقي أعينها الذابلة بعين الملك وقالت له:

«خذني بدلًا منها وأسكب على جسدي غليان قلبك عليَّ»

اتضح الاشمئزاز في وجهه ولكنه تمالك نفسه وقال:

«لكِ ما أردتِ»

أمسك بها الحراس ومدت يديها لهم باستسلام وقالت:

«سأرحل برفقة والدتي حيث النجوم ومواكب الغيوم، وسأترك هذه الأرض ملكًا لكم»

ولكن وعند غليان الماء صدر شيء غريب للجزيرة بأكملها، فالأشجار بدأت بالتحول رويدًا رويدًا إلى أحجار وأصبحت تلك المادة القاسية تمتد في الأرض ببطء وتحول كلِّ شيء يمر بها إلى حجر لا يتحرك.

كان ابن الحاكم (عُزيف) ينظر للموقف وعلى وجهه ابتسامة خبيثة ولكنه شعر بتنمل بسيط وعدم شعوره بقدمه فنظر للأرض ليجد قدمه تتحجر ببطء فصرخ محاولًا تحريكها والابتعاد عن المكان ولكن وكأن الأرض قد تشبثت بيديها وأسنانها به.

انتبه الملك وحرسه إليه وحاول الكثيرون من حراسه الآتون معه من بلاده فكه فجاء التصلب الحجري لأقدامهم أيضًا.

في تلك اللحظة جاءت صرخة من الملك نفسه قائلًا بها:

«ابتعدوا جميعًا عن التصخر المتحرك»

فركض الجميع وأصبحت الصرخات كصرخات المُعذبين في الجحيم.

خلال ساعة واحدة فقط أصاب التحجر مئات الأشخاص حتّى أن الكثير من الشعب سقط في البحر لعل البحر يحميه من غدر هذه الأرض والداء الذي أصابها فجأة. ولكن حلّت عليهم ألوف من أسماك القنقد القاتلة.

(ومن لا يعرف ما هي أسماك القنقد هي نوع من أنواع بنات البحر ناتجون عن تزاوج إحدى ذكور بنات البحر ب حبار مصاص الدماء الأفعواني. وبسبب هذا التزاوج الغريب فبنات البحر الذكور منهم والإناث لا يتزاوجون مع مخلوقات البحر الأخرى والَّتي تكون أقل منهم على حدِّ قولهم وهذا هو السبب الرئيسي لانعزال القنقد عنهم.

أشكالهم غريبة إلى حد الرعب، فهم يمتلكون ثمانية أذرع، كلِّ ذراع بها أشواك داخلية وإن كان في حالة هجوم أو دفاع عن النفس يخرج تلك الأشواك فتحيط الذراع وتكون كدرع يحميها وسم قاتل لمن تعرض لها.

أسنانهم حادة تستطيع قضم جلود الحيتان من شدتها، وأعينهم طويلة على حد الوجه ولديهم أنف في المنتصف صغير لا يكاد يُرى. رغم أنهم من بنات البحر إلا أنهم لا يمتلكون الذكاء الذي يتميزون به بنات البحر عن مخلوقات البحر الأخرى. وهم في العادة يتواجدون على عمق ثلاثة آلاف متر ولكن في بعض الحالات كهذه الحالة يخرجون لسطح البحر. ويقول كثيرون إن خروجهم يعد دليلًا على سحر قد حصل في المكان).

عند سقوط الشعب إلى البحر حتّى التقطتهم أسماك القنقد فتحولت تلك المساحة المحيطة بالجزيرة إلى بحر من الدماء. علم الباقون أن الموت آتٍ في جميع الحالات وأن النجاة لا يمكن أن تأتي فظلوا يدعون الإله والذي يكون تمثالًا من الشمع الأبيض لسيدة ترقص وعلى يدها وشاح (أحمر) ممتلئ بالدماء وتدعى (الآلهة أندرومين) مالكة البحر ومن يسكن بجواره.

لهذه الفتاة قصَّة قد لا تخطر على عقل بشر ولكن ونتيجة لما حدث لها قام النَّاس بتعظيمها وأتت الأجيال فتوارثت هذا التعظيم حتّى تحول مع مرور الزمن إلى تقديس بدعي ووضعوها في منزلة لا تستحقها.

أصبحوا يدعون تحت تمثالها مغمضي الأعين على أمل أن تخلصهم من كرباتهم ولكنهم وبلمح البصر أصبحوا جزءًا من تصلبات هذه الأرض الغاضبة على ساكنيها.

شعرت (قمراء) بطريقة لا تعلمها بأن كلِّ ما حدث هي المتسببة به وتذكرت فورًا حديث الكاهنة بأن الخروج يعني الهلاك. فركضت إلى القصر متجاوزة بصعوبة لعنة الأرض لتصل فتلقى الكاهنة تنتظرها بجانب بوابة القصر ووجهها مبتسم بخبث وقالت:

«أهلًا بكِ في منزلك الأبدي أيتها الأميرة»

وأشارت بيدها ناحية البوابة كتلميح لدخولها فدخلت ببطء ودقات قلبها تعلو شيئًا فشيئًا. ثُمَّ توقفت قبل أن تلمس قدمها أرض القصر وقالت:

«ما الذي حدث لهذه الجزيرة؟»

ابتسمت الكاهنة وأجابتها:

«والدتك سلمت هذه الجزيرة للشياطين كجزاء لهم إن هربت من هذا القصر بعد دخولك إليه».

نظرت بصدمة وقالت:

«وكيف تفعل والدتي ما فعلته؟»

قالت لها:

«كله لأجلك، فهي أرادت حمايتك فقط لعلمها أن الهرب من الملك لا يمكن أن يحدث إلا بمساعدة شياطين الجن ومردتهم»

فقالت (قمراء) بشيء من الريبة:

«إن دخلت للقصر هل سيعود كلِّ شيء لوضعه؟»

عادت يديها لتشير إلى بوابة الدخول وقالت:

«فلتجربي»

فدخلت وأغلقت البوابة مجددًا عليها وسمعت صوت ضحكات الكاهنة وهي تقول لها:

«ستبقى روحك في هذا المكان حتّى وإن ذبل جسدك وولى لتفرحي فأنت في منزلك»

وهذه هي قصَّة فتاة القصر (قمراء) وتضحيتها لأجل شعبها الذي لم يُعط لها أي قيمة تذكر. عند دخولها إلى القصر عادت الحياة بالجزيرة وكل من تحجر فيها عاد لأصله حيًا ما عدا من حاول الهرب منها والتهمته أسماك القنقد.

فُصل القصر البلوري عن الجزيرة وأصبح هائمًا في أرجاء البحر بروح صاحبته (قمراء). ندم على ما فعل والدها وأدرك أن الجمال الداخلي أعمق بكثير من جمال الشكل وأعلن جائزة ضخمة وهي الحكم من بعده لمن يستطيع دخول القصر العائم وإنقاذ (قمراء).

حاول الكثيرون فعل هذا الأمر ولكن لم يفلح أحد فالقصر يمتلك لعنة لكلِّ من يدخله بأن يرحل في سبات عميق حتّى يتحول جسده إلى قطع البلور فيُزين بجسده القصر ويضيف له جمالًا فوق جماله.

خسر مئة شخص من جزيرة الملك أرواحهم بسبب ذلك القصر فقرر الذهاب بنفسه إلى القصر وإنقاذ ابنته الَّتي لم يعتبرها يومًا كذلك. أراد فعل كلِّ شيء وإن لم يُفلح بإنقاذها ولكن لعله يستطيع ضمها لصدره ولو مرة واحدة.

صمتت فقلتُ لها:

«أكملي ما الذي حدث بعدها؟!»

قالت:

«هنالك الكثير من القصص الَّتي تحكم نهاية الحاكم ولكنَّها جميعًا تقول شيئًا واحدًا باختلاف تفاصيلها أن الحاكم (خرج ولم يعد).

هناك من قال أنهُ شاهد (قمراء) تقذف والدها بعيدًا عن القصر فابتلعه البحر داخله. وهنالك من قال أنهُ لم يخرج بعد دخوله وقد يكون حاله من حال المئة قبله ليصبح الضحية الواحدة بعد المئة لهذا القصر»

قال (المأمون):

«وما رأيك أنتِ؟»

صمتت قليلًا ثُمَّ قالت:

«لا أتوقع أن روح (قمراء) موجودة بالقصر أساسًا بل قد تكون قُتلت حال دخولها وتلبست روح شيطانية جسدها لتتحكم به».

فقلتُ بعد تفكر:

«ما السر وراء خيانة الكاهنة لملكتها؟»

قالت:

«هذا الأمر أصبح سرًّا طوته الحياة بين طياتها فلا أحد يعلم سبب خيانة الكاهنة لملكتها رغم أنهما صديقتين منذُ الطفولة وعند زواج الملكة أخذتها معها وجعلت لها حياة مقاربة لحياتها تمامًا ولكن إن وضعت نفسي بموضع الكاهنة سيصيبني الحقد والحسد فهي وإن تلبست لباس الرفاهية وعيشة الملوك والأمراء ولكنِّها لا تكون سوى خادمة تعلمت فنون السحر والشعوذة».

وافقتها الرأي في بعض الأمر واختلفت بالآخر بقولي:

«قد تكون القصَّة أعمق من ذلك بكثير ولكن كما قلتُ أسرار الحياة لا يمكن أن تكشف لنا بكلِّ أسطرها. فالغموض جزء لا يتجزأ من هذا الكون الذي نعيش به فكيف بمخلوقاته السائرة في أعماقه».

تستنزف منَّا الحقيقة سنوات طوال حتّى تتضح أمامنا

فإما أن نتقبَّلها بغيبوبتها الزَّائلة مع مرور الوقت

أو نتجاهل تفاصيلها ونطفو على أسطح الجهل

حتّى يتبيَّن لنا بعد فوات الأوان كلّ شيء بشعاع الندم

انقضى اليوم وطلبت منا (نهر) المبيت في منزلها فنظرت إلى (المأمون) فقال لي:

«لا يبدو أنها مخيفة لدرجة النظر إليَّ، إن أردت البقاء لنبقى وإن أردت الرحيل سنرحل فكل شيء يسير تحت إمرتك»

ابتسمت ونظرت إليها ثُمَّ قلتُ:

«يسعدنا المبيت في منزلك هذا اليوم فقط»

فركضت إلى (زيفارا) وقالت له:

«تجول معهم قليلًا حتّى أقنع والدتي ثُمَّ سأبعث لك إشارة فتحظرهم»

هزَّ رأسه موافقًا فهرعت تجري حتّى اختفى جسدها عن أعيننا..

قال لنا (زيفارا):

«تعالوا معي سأريكم بعض الأشياء الَّتي نفعلها كلِّ ليلة»

فذهبنا معه ناحية منحدر طويل فأصبحنا ننزل حتّى ظننت أننا خرقنا البحر فقلتُ:

«ألم نصل بعد»

قال:

«لقد وصلنا»

فتفقدت المكان لأجد ممرًّا مصنوعًا من خشب الصنوبر الأحمر تحته ماء يبدو كالنهر ونهاية الممر قلعة ذات تصاميم قديمة للمناطق الغربية ولكن المميز فيها أنها تمتلك ثلاثين حجرًا زمرديًا بشكل الدمعة منثورة في أنحاء جدرانه.

فقلتُ ل(زيفارا) باندهاش:

«ما هذا المكان، ثُمَّ هل هذا الماء من تحتنا يكون نهرًا أم أن ثقبًا قد جلب ماء البحر إلى هنا».

ابتسم وقال:

«إن رأيته نهرًا سيكون كذلك وإن رأيته بحرًا سيكون كذلك أيضًا»

فقلتُ متعجبًا:

«أرجو أن تتحدث بلا ألغاز فأنا لم أفهم شيئًا»

قال لي بعد وقت من الصمت:

«انظر إلى تلك الأحجار بلون الزمرد، تلك تكون دموع التنانين المنقرضة منذُ ملايين السنين»

فقلتُ بسخرية:

«وكيف حصلتم على دموعها إذًا»

قال:

«حسبما علمنا فإن التنانين لا تبكي إلا عند قتلها لعزيز لها بسبب خطره عليها وإن بكت تلك الدموع تتحول لأحجار من زمرد قبل وقوعها على الأرض. علمنا هذا الأمر في هذا المكان وبعد دراسات لا أعتقد بأنك ستفهمها. قوة هذه الأحجار مذهلة فهي بالرغم من أنها كأحجار الزمرد الَّتي نعرفها ولكنِّها تختلف بمميزاتها وخصائصها الشيء الكثير. فهي إن وُضعت أكثر من واحدة منها بنفس المكان ستصنع لعقل الذي يراها عالمًا جميلًا جدًّا. أنت الآن تراها منثورة على قصر ويمتد من حوله نهر عذب وأنا أشاهدها مملكتنا القديمة قبل حبسنا هنا. وهنالك من يراها أرضًا قاحلة بداخلها عزيز له، ولكن الشيء الذي يربط الجميع في هذا المكان ويجعلهم يعودون إليه كلِّ فترة هو أنهم يجدون في داخله ما ينقصهم رغم أنهُ بالواقع ليس إلا بقعة كتلك الأماكن الموجودة بالأعلى».

فسألت (المأمون):

«ماذا تراها أيها (المأمون)؟»

فقال:

«أرى فيها المئات منك»

نظرت إليه بدهشة وقلتُ ل(زيفارا):

«لماذا لا يستطيع (المأمون) رؤية ما يسعده بهذه البقعة؟»

فقال:

«لأنك وبكل بساطة مصدر السَّعادة له»

نظرت للمأمون وسألته:

«هل حقًا أكون هكذا بالنسبة إليك؟ »

هزَّ رأسه إيجابًا وقال:

«صحيح، فنحن شياطين كهف أرابينسا نقدس من ينتشلنا من ذلك المكان ونربط أرواحنا ومصيرنا به»

تعجبت منه ولكني قلتُ:

«دعونا نكتشف ما تستطيع هذه الأحجار فعله»

فمشيت على ذلك السور بصعوبة رغم رؤيتي ل(زيفارا) يمشي بكلِّ ليونة وكأن لا يوجد هناك جسر أمامه. وعند وصولنا إلى ذلك القصر حتّى فُتحت البوابة على مصراعيها لأجد الكثير من النساء يرتدين الزي الهندي ويرقصن بتناغم مع موسيقى هادئة وفوق رؤوسهم ثعابين سوداء اللون تمتلك شقًّا في منتصف وجهها وأعين بيضاء بالكامل.

فهمست:

«أتشاهد ما أشاهده؟!»

فقال:

«كل شخص منا يشاهد المكان بمنظور عقله»

فقلتُ:

«ولماذا عقلي يهيئ لي ثعابين مرتكزة على رؤوس نساء حسناوات؟»

فقال:

«إن أصبح المكان غريبًا للشخص وغير مريح في ذات الوقت هذا يعني أن عقله قد تم إجهاده بقسوة مؤخرًا»

فقلتُ:

«هكذا إذًا»

فمشيت لخطوات إلى داخل القصر متجاوزًا النساء اللاتي يرقصن أمامي ويتمايلن كتمايل الثعابين عند استعدادها لمهاجمة إحدى فرائسها.

ولكن وبعد لحظات شعرتُ بأن هؤلاء النساء بدأن حقًا بالتحول لتصبح وجوههن كوجوه الثعابين الَّتي فوق رؤوسهم ولكن على شكل بشري. فابتعدت مرعوبًا وعلى وجهي آثار الهلع والخوف في آنٍ واحد. ولكن وبعد لحظات لا أعلم ما حدث سوى أنهم قد تجمعوا جميعهم حولي وعشرات العضات لامست جسدي فسقطت وغبت عن الوعي.

صحوت على صوت (نهر) و(المأمون) يحاولان إيقاظي وعند فتح عيني شاهدتُني راقدًا على سرير مصنوع من الكريستالات القطنية كما قالت لي (نهر). وغرفة مليئة بالصور لأشخاص بشريّون على ما تبدو أشكالهم. فقلتُ:

«أين أنا؟»

قالت (نهر) لي:

«في منزلي ألم أخبرك بأني راحلة للتحدث مع والدتي بشأن مبيتك أنت وصديقك لدينا»

قلتُ بعد شعوري بألم في جميع أنحاء جسدي:

«وما الذي حدث لي؟»

صمت الاثنان فتقدمت واحدة تمسك بإناء مليء بسائل زهري وقالت وهي تضع قطعة من القماش على السائل ثُمَّ تضعه في أنحاء المكان:

«لقد أصابتك لعنة دموع التنانين».

قلتُ متسائلًا:

«لا أفهم شيئًا أيتها السيدة، ثُمَّ من أنتِ؟»

فقالت بابتسامة:

«اسمي (زيزفون) وأكون والدة نهر»

حاولت النهوض لإبداء الاحترام لها فامسكت صدري بيديها وأعادتني إلى السرير وقالت:

«ابقَ حيث أنت، فالسُّم داخلك لم يخرج بأكمله»

قلتُ:

«أرجو أن يتم إفهامي كلِّ شيء فأنا لم أعد أفهم شيئًا»

فقالت (نهر):

«ذلك المكان نذهب إليه لطلب الراحة هذا الشيء صحيح وما قاله لك (زيفارا) عن أن المكان لا يُعد إلا وهمًا ينتجه عقلك هذا صحيح أيضًا ولكن كلِّ شيء يحدث تحت دائرة هذا الوهم الذي أنتجه يحدث فعلًا. فإن سقطت من فوق جبل ستتعرض في الواقع لنفس الجراح الَّتي تعرضتها في الوهم وقد يكون الموت. وما حدث لك قد يكون إحدى أمرين.. إمَّا أن يكون بسبب إجهاد عقلك هذه الفترة فيبدو أنك لم تدخل هذا العالم قبلًا وإما أن هنالك من دخل إلى عقلك ليتحكم بالوهم ويدخل فيه ما يشاء من المخلوقات.. أي قد تكون تلك المخلوقات الَّتي فعلت بك ما فعلته حقيقية تسعى لموتك وقد تكون غير ذلك، هل فهمت؟»

فقلتُ بعد أن حاولت قدر المستطاع فهم ما حدث لي:

«يبدو أنني قد فهمت ما أحتاج فهمه، هل هذه السموم ستزول قريبًا؟»

ابتسمت (نهر) وقالت:

«ستزول فوالدتي أمهر طبيبة في هذا المكان ولديها من العلاجات المأخوذة من أندر الشُجيرات والأزهار ما يجعلها تستطيع شفاء الكثير من الأمراض فلا تخف وثق بنا»

قلتُ لهم معبرًا عن شكري:

«هذه الحياة رغم قساوتها ولكنِّها قد تجلب لنا أشخاص رائعون امثالكم»

ابتسمت نهر لي وقالت:

«وأنت يا (أحمد) اشجع بشري اشاهده حتّى الآن وسعيدة لمقابلتك»

ثُمَّ خرجت برفقة والدتها وزيفارا خارجًا وأغلقوا الباب فهمست:

«اظهر»

ظهر (المأمون) وعلى وجهه الغضب فقلتُ:

«ما الذي يجري هنا، اشعر بأن في المكان سر غريب»

صمت قليلًا وهو يتأمَّلني ثُمَّ قال:

«لا شيء»

أمرته أن يخبرني أي شيء يعرفه ولكنه ظل يردد نفس الكلمة حتّى يئست منه وأمرته أن ينصرف.

تذكرت كتاب العرين وظننت أنني أسقطته في البحر آخر مرة فتلمست بسرعة جيبي ولكنني وجدته مكأنهُ والأغرب من وجوده رغم كلِّ ما حصل لي هو أن أوراقه لم تتضرر أبدًا وكأن شخصًا يحرسها.. ولكني تذكرت فورًا أمر أولئك الثلاثة، فالأفاعي المترابطة يُعدُّون واحدًا بحسب قول (المأمون).

فتحت الكتاب فوجدت الحبر قد بدأ يكتب عنوانًا غريبًا ثُمَّ سرعان ما سُردت قصَّة عن إحدى عربيات الزمان.

حربٌ تجاهلها التَّاريـخ

اصْمُتْ.. أنتَ في عالمي أسير

فعروبتي لا تهوى النَّظير

.

.

إمَّا العلو فوق الشُّعوب

وإمَّا الفناء تحت الرِّمال

لم تكن تشاهد في المكان سوى براكين من الدماء المتناثرة هنا وهناك. علمتُ أن دورها قد حان والموت لا بد أن يكون مصيرها، فأغمضت عينيها ورفعت رأسها للسّماء ثُمَّ فتحتها ببطء ورسمت ابتسامة على شفتيها وهمست وكأنَّها توجه همساتها لروحها.

«الموت حياة أخرى »

وظلَّتْ تنظر للسّماء متجاهلة أصوات الصرخات من حولها ولكن مر وقت طويل ولم يحدث لها شيء. ودَّت في داخلها لو يقطعون رأسها بسرعة البرق وقبل أن تعلم بذلك ولكن القدر لا يمشي دومًا على أهوائنا.

بعد انتهاء الحرب والَّتي دامت لسبعين يومًا أدت لانتصار قوم البُغال على قبيلة شداد وكان سببها نهرًا من الماء. تم أسرها مع نساء قومها وبيعهم في السوق الكبرى والَّتي تُسمى (سقندره). تلك الحدائد في جسدها شبه العاري والذي تحول من رداء يليق لابنة قائد قومها إلى رداء الجواري والخدم. لم يتم عرضها في بداية المزاد بل تم تأجيل خروجها حتّى يتم بيع جميع النساء؛ نظرًا إلى أن جمالها إن عرض سيُغطي عليهم ولن يلتفت أحد إلى غيرها.

بعد الانتهاء من بيع نساء قومها البؤساء حتّى أخرجها شخص مخيف الشكل إلى الأعلى فهتف الجميع عند رؤيتها وكأنهم لم يروا يومًا فتاة.

بدأ المزاد ب مئة قطعة ذهبية وارتفع نظرًا إلى منافسة الرجال ووجهاء القبيلة على أخذها إلى ثلاثمئة قطعه ذهبية. فتوقف الجميع عن المزايدة بالمبلغ عندها صرخ الرجل مخيف الشكل قائلًا:

«الجارية ابنة قائد القبيلة المنكوبة شداد ملك للحارث بن عُبيد»

تقدم شخص مُخططًا بالتّجاعيد والجروح في وجهه حتّى أصبح بينها وبينه مجرد مساحة صغيرة جدًّا وابتسم لتظهر أسنأنهُ الصفراء والمتآكلة مع الزمن وقال:

«ما اسمك؟ »

لم تجب على ما قاله بل تجاهلته فصفعها بكلِّ قوته وصرخ بصوت عال:

«ما اسمك أيتها الجارية؟»

ولكن وكأنَّها حجر لا يشعر فلم تصرخ ولم يتضح على وجهها علامات الألم بل ظلَّتْ كتمثال وعيناها تنظر إليه كصقر يود التهام فريسة أكبر منه عشرات المرات.

فأجاب الرجل المخيف:

«لا تقسُ على النساء يا (حارث)»

قال له:

«(غُصن)، الجواري والعبيد إن لم تعنفهم وتكسر غرورهم لتوقعهم على أرض الواقع، واقعهم بأنهم أدنى منا في كلِّ شيء ستتعب معهم لاحقًا بل وقد يتمادون عليك»

فقال (غُصن) بعد أن ضحك بصوت عالٍ:

«اسمها رُجينة ابنة قائد قبيلتهم شداد»

«إذًا فوالدها من أباد قومهُ بغبائه» ثُمَّ صمت قليلًا وقال:

«سأهديها للأمير (مُنذر بن الحسن) فهو الأحق بهذه الغنيمة».

ومرر يديه على شعرها المتموج كتموجات نور الشمس على أبصارنا فأبعدت بسرعة رأسها عن يديه ولكنه أقبض يده بكلِّ قوته على شعرها وسحبها معه نحو منزله.

ظلَّتْ تصرخ وتطلب منه تركها ولكنه لا يجيب بل صوت ضحكاته وهو يشاهدها بهذا الوضع أمام قومه الذين ينظرون بأسى عليها جعله يحقق مراده وهو إذلالها وإذلال والدها في قبره.

أوصلها إلى منزله وصرخ على العديد من الجواري وزوجته ليظهرا متفاجئين بما أحضرت يداه فقالت له زوجته والَّتي تدعى سُميرة:

«هل هذه جارية أخرى أحضرتها لنفسك؟»

فابتسم وقال:

«بل هي هدية يجب تغطيتها بالحُلي لإهدائها للأمير منذر بن الحسن» فنظرت إلى رُجينة وقالت:

«النساء دائمًا منكوبات بكم يا معشر الرجال»

فصرخ عليها:

«أتريدين أن أفعل بك ما أفعله بها لتعلمي كيف تكوني منكوبة يا (سُميرة)»

ثُمَّ قذف بالفتاة إليها وقال:

«بعد وقت قليل سأعود لأراها في أحسن شكل ولا تنسي عقد الجواري المذهب والموجود في غرفتنا»

ثُمَّ رحل لتبكي (رُجينة) بين يدي زوجته بكلِّ ضعف وأسى.. فهمست لها:

«لا تبكي وواجهي مصيرك بقلب كقلب الأسود، رغم علمها بسواده إلا أنها تنظر إليه بكلِّ شموخ وكبرياء»

مسحت دموعها بيديها وهزَّت راسها مؤيدة لكلام زوجة الرجل الخالي من شجاعة الرجال، فالرجال لا يضربون النساء إلا الجبناء منهم.

بعد وقت طويل من تجهيزها بأيد العديد من الجواري وسُميرة حتّى أصبحت كالنور في أول ظهوره. جميلة وكأنَّها بدر وحيد في السَّماء،

وتلك الدموع الَّتي أسقطتها عند رؤيتها لوجهها في المرآة تشع وكأنَّها من أعرق الأحجار في العالم بأكمله.

همست وكأنَّها تخاطب نفسها:

«كانت ليلتك يا (رُجينة) فأصبحت ليلة الشيطان بلا حول منك ولا قوة»

ظهر صوت الحارث وهو ينادي زوجته بقوله:

«أين تلك الهدية؟ هل هي جاهزة لمصيرها؟»

فقالت زوجته بازدراء:

«جاهزة»

فابتسم وقال:

«إذًا أحضريها لنشاهد ما فعلت أناملك بحسنها»

ففُتح الباب لتظهر وعلى جسدها رداء حريري من لون فاكهة الخوخ وقلادة مذهبة في منتصفها جوهرة الأوبال البراقة.

(أحجار الأوبال رغم جمالها إلا أن قوم البُغال يضعونها على الجواري والعبيد الأغلى ثمنًا ولا يرتدونها لاعتقادهم أنها تحبس الروح ولا تليق بالأحرار)

تم أخذها مع العديد من الهدايا المتواجدة في صناديق مذهبة إلى قصر (المنذر) بن حسن والمعروف بأشجع رجال العرب وأجشع الرجال بالنساء أيضًا. ففي قصره عشرات الجواري غير زوجتيه الاثنتين وبعض النساء الواقعات في حبّه واللاتي يهدين أنفسهن له بلا أي قيمة تدفع لهم أو لذويهن وهن ما يسمونهم العرب قديما ب

(جواري أنفسهن)

بعد وصوله للقصر والتفات الأنظار لما تكون خلفه بما فيهم (المنذر) نفسه والذي قال له:

«يبدو أن لديك شيئًا تُسر منهُ الأبصار يا (حارث)»

فقال له مبتسمًا:

«وإن سُرت أبصارهم فهم لن يطالوا شيئًا فهذا الجمال لا يليق سوى بك»

نهض (المنذر) من مكأنهُ وبيده عنقود من العنب الأحمر واقترب منها وهو يلتهم حباته رويدًا رويدًا وقال بعد أن تفحصها بعينيه:

«جميلة كجمال القمر الهائم في السَّماء، قبلتُ هديتك يا (حارث) بكلِّ سرور»

وأشار بيديه إلى أحد العبيد الذي اقترب منه بكلِّ خضوع وقال له:

«أحضر من غرفتي ثلاثين كيسًا من الذهب وأنشرها على الشعب تهنئة لنفسي على تملكي لهذا الجمال النادر في هذه الصحراء القاحلة».

فذهب العبد ليفعل ما أمره به مولاه، ثُمَّ التفت على الحارث وقال:

«أعلم جيِّدًا بأنك تمتلك من المال ما يغنيك عن عطاياي ولكني أعلم أيضًا بأن هذه الأشياء من خلفك بما فيها الحسناء لم تعطني إياهم بلا مقابل، فأخبرني»

ابتسم (الحارث) ثُمَّ قال بعد أن أشار له (المنذر) بالجلوس:

«لماذا لا تصدق بأن غلاءك في قلبي هو السبب بكلِّ هذه الأشياء الَّتي جلبتها لك»

هزَّ رأسه وأصدر صوتًا من فمه علامة على عدم تصديقه وقال له:

«أخبرني يا حارث؟ ووعدٌ عليَّ سأجلب لك غايتك»

عندها وقف وقال له:

«منذ زمن وأنا هائم بأختك النورية وأتمناها زوجةً لي وهذا فقط ما أريده منك»

ضحك المنذر علامة على سخريته ممَّا قاله وبعدها وبسرعة البرق اقترب منه وأمسكه من ردائه وهمس:

«كيف تجرؤ على جلب اسم أختي؟»

ثُمَّ ضحك وقال:

«ولكن الوعد وعدٌ أليس كذلك؟ لك ما أردت أيها الرجل المتطلع لما ليس ملكًا لك.»

وأشار لإحدى الجواري وقال لها:

«أحضري أختي النوريَّة وقولي لها قد جاءك رجل مليءُ بالعيوب يطمح بالمجد رغم أن المجد بعيد عنه، ويجيد صف الكلام وكم تهوى النساء معسول الكلام، لديه امرأة وأنتِ الثانية وهل تكون النورية الثانية! ننتظر الجواب»

بعد أن ذهبت الجارية لتنفذ ما أمرها به قال الحارث بتلعثُمَّ للمنذر:

«ولكن أيها الأمير، وإن كانت توافق عليَّ سترفض بعد ما قلتُه عني »

ابتسم (المنذر) وقال:

«عزيزي يا عزيزي إن أرادتك حقًا زوجًا لها لن تهتم بما قلتُه وإن لم تريدك ستحتج بما قلتُه عنك»

صمت الحارث قليلًا ثُمَّ قال:

«سأرحل فما فعلته يكون إهانة لي»

ضحك وأمر من معه بالضحك فامتلأ المكان بأصوات الضحكات وقال بعد أن حل السكون من جديد:

«أيتراجع الرجل عما أقدم عليه؟!»

علم (الحارث) بأن الإهانة ستأتيه لا محالة فانتظر بيأس رد النورية وأصبح يهزَّ قدمه علامة على التوتر. بعد وقت ليس بطويل من الانتظار ظهرت (نورية) بخمارها المليء بالجنيهات الذهبية وردائها الأسود المصنوع من الحرير الطبيعي وقالت:

«لقد ناديتني »

فاقترب (المنذر) من أخته وقال لها:

«انظري يا (نورية) إلى هذه الحسناء وتلك الصناديق المذهبة أتعلمين ما الغرض منها»

هزَّت رأسها دلالة على عدم العلم فقال:

«شراؤك مني، هل تظنين أنني أبيعك لأجل هذه الأشياء؟!»

فهزَّت رأسها علامة على النفي، عندها قال لها:

«ماذا قررتِ؟»

فقالت بشموخ وغرور نساء العرب:

«أنا (نورية ابنة الحسن) وأخت (المنذر) لن أرضى بشخص يمتلك هذه الصفات الَّتي تدل على نقصه»

ابتسم والتفت للحارث وقال:

«قد أتاك الجواب، والآن أحمل هذه الصناديق وارحل من هنا»

بدأ وجه الحارث يصبح أحمر نتيجة هذه الإهانة وأمر عبيده بأخذ الصناديق ثُمَّ تحرك وسحب الجارية من يديها ولكن (المنذر) أوقفه وقال:

«إلا هذه، أتركها»

نظر الحارث للأرض وقال:

«وكيف أترك بعضًا من هديتي وآخذ بعضًا منها»

فقال (المنذر):

«ليست هدية منك بل شيئًا آمرك ببيعه لي»

وسحب الجارية من يدي الحارث وصرخ لأمين أمواله:

«لتعطه قيمة الجارية وبعدها فليرحل من هنا»

دخل (المنذر) ب (رجينة) والَّتي كانت كسلعة نادرة يتقاتل عليها الجميع إلى داخل قصره بلا أن يتحدث أو تمتنع عما يفعله وعند

وصوله إلى إحدى الأجنحة توقف لتظهر امرأة عجوز ترتدي رداء أبيض بالكامل وقال لها:

«اصنعي من هذه الجارية شكلًا يليق بي»

ورحل تاركًا (رجينة) برفقة العجوز والَّتي أمرتها بعينيها أن تأتي معها فذهبت بكلِّ خضوع فهي تعلم أن لاحول لها ولا قوة.

في ذلك المكان المليء بالجواري، وتلك الثياب المتساقطة يمنى ويسرى. عشرات الحسناوات ينظرن في المرآة ويتزين لعل واحدة منهن تفوز ببضع ساعات مع (منذر) أو يضرب الحظ ضربته فتصبح الزوجة الثالثة له.

ظلَّتْ تنظر لهن بلا فهم وشفتاها تبتسم بسخرية لأوضاعهم، يا ترى أيحب الشخص قيوده ويسعى لإرضائها. فهؤلاء النساء راضين كلَّ الرضى على هذه العبودية الَّتي تحوم حولهن بل ويتفاخرن برضاء من يعبدونه لهن. ولكن حوار في الجهة اليمنى من (رجينة) جعلها تلتفت وتنصت إليهم باهتمام أكثر من حوارات الباقية:

الجارية الأولى:

«استمعي لي أيتها السوداء فاليوم يومي لمرافقة الأمير، يجب عليك أن تبقي بعيدًا عنه»

الجارية الثانية باستهزاء وغرور:

«أعلم جيِّدًا أن غيرتك منِّي ومن جمالي تكاد تفتك بك، أتقولين عني سوداء.. ولكن الأمير يقول لي بأن لونك كلون حبات المسك وعناقيد اللؤلؤ النادرة في قاع البحر الأزرق.. اعترفي أني من سأكون زوجته في المستقبل وأبعدي الغيرة عن قلبك»

كادت الأولى أن تفتك بهذه السوداء ولكن تلك المرأة العجوز ذات الرداء الأبيض صرخت بقوة بكلِّمة «كفى» ليعم السكون على المكان بأكمله.

ثُمَّ أكملت العجوز وعيناها متوجهة نحوي:

«هذه الجارية الجديدة ستكون الليلة من نصيبها فالأمير يريد أن يبقى معها الليلة»

سمعت (رجينة) همسات السَّب والسُّخط ولكنِّها ظلَّتْ تنظر إليهم بكلِّ هدوء وتلك الابت الساخرة لا زالت مرسومة على وجهها. فقالت الجارية السوداء بغضب:

«ولكن اليوم يومي والأمير وعدني بذلك»

قالت العجوز:

«الأمير لا يهتم بوعودٍ قطعها مع جارية يملكها»

بدأ الجميع بالضحك وقد حل على وجه الجارية السوداء مثلما حل على وجه الحارث قبل قليل وركضت إلى إحدى الأبواب مبتعدة عن الجميع.

بعد أن تم تزيين (رجينة) بأجمل الحُلي وإلباسها رداء أبيض مليئًا برسومات الأزهار الجميلة أخذت مع العديد من الجواري إلى الحديقة الخاصَّة ب(المنذر) وعائلته من زوجات وأبناء وغيرهم ممن يقربون له.

فور دخولهم حتّى قال موجهًا كلامه للعجوز:

«الفتاة يا ملاك من تتقدم فقط وأرجعي الباقي إلى جحورهن»

فقالت بلهجة المعتذر:

«لقد قلتُ لهم بأن الجديدة هي من تريدها فقط ولكنهم قالوا نريده أن يختار بيننا باعتدال ككل مرة»

نهض من مكأنهُ وظل ينظر إليهن وهن متراصين أمامه وكل واحدة منهن تظهر له ما يميزها، ولكن وبعد وقت طويل من التأمل في كلِّ واحدة توقف أمام (رجينة) وقال «سبحان الخالق».

فعلمت الجواري أن (رجينة) ستكون اختياره لهذه الليلة لا محالة فتحركت كلّ واحدة منهن إلى الخارج ولكنه قال:

«انتظرن»

توقف الجميع ونظر إليه فأكمل:

«لم تستمعن لما أمرتكن أن تفعلن وأصررتن على القدوم بمحاولة فاشلة لإغرائي»

ثُمَّ نظر إلى العجوز ملاك وقال:

«اليوم لا عشاء لهن ولكي أيضًا، وتلك الحُلي الَّتي يتزين بها سيتم سحبها منهم لثلاث أيام فيعشن عيشة الجواري الحقيقية وليس ما أغرقتهن به.. أتفهمين»

هزَّت رأسها برعب تأكيدًا على فهمها لما يقوله وخرجت برفقة الجواري لتبقى (رجينة) تنظر لحشائش الأرض وكأن الأمر لا علاقة لها به.. فهي تعلم جيِّدًا أن توبيخ الجواري أمر معتاد لدى الملوك والأمراء فوالدها وإخوتها كانوا يفعلون ذلك أيضًا، ولكن قطع صمتها بصوته قائلًا:

«ما اسمك؟»

لم ترد فأعاد عليها سؤاله لتقول:

«مرج»

ابتسم واقترب منها وهو يبعد خصلات الشعر عن وجهها وأكمل:

«ولكني سمعت اسمًا غير الذي قلتُه لي»

فعادت ما قالته بصيغه أخرى:

«اسمي (مرج) ابنة خادم الحاكم المغدور»

رفع حاجبيه وقال:

«لم نغدر بل حاربنا بكلِّ قوة فانتصرنا.. لا يسمى غدرًا يا عزيزتي رُجينة»

ابتسمت بسخرية وقالت:

«ما دمت تعلم أني (رجينة ابنه شداد) كيف تتجرأ على فعل ما فعلته بي أنت وذلك الطامع لما ليس له»

فقال:

«وماذا فعلنا؟ هل سلب النساء يعد فعلًا فاسدًا يا عزيزتي؟»

صمتت فكلامه الذي قاله أعادها لواقعها الذي هربت منه بخيالها وذكرياتها. وإن كانت ابنة حاكم في الماضي فهي الآن ليست سوى جارية تم أسرها بعد حرب امتدت لأيام طوال. فقال الآن بعد أن لاحظ صمتها قد طال:

«تعالي معي، فاليوم ستتناولين الطعام برفقتنا»

ذهبت معه بلا أي مقاومة لتجد ثلاث نساء جميلات واحدة منهن قد تعرفت عليها قبلًا فهي أخت (المنذر) والَّتي فعل ما فعله الحارث لأجلها.

قال (المنذر):

«النورية تعلمين من تكون وهذه الفتاة زوجتي (زهور) والأخرى زوجتي الثانية (حسناء)»

لم تبتسم منهن سوى النورية والَّتي طلبت منى الجلوس برفقتهن ففعلت ما قالته وذهب (المنذر) لفعل أمر لا أعلمه فبقينا نحن الأربعة سويًا. عندها قالت (حسناء):

«هل أنتِ سعيدة؟!»

لم تفهم ما تعنيه فقالت:

«بماذا أكون سعيدة يا ترى؟ »

فقالت:

«بإعجاب زوجي بك»

ابتسمت وقالت:

«وهل ذلك يزعجك؟!»

فظهر الغضب على وجهها وقالت:

«صدقيني هو دائمًا هكذا يغرم بالجديد ويعطيه مميزات لا يتوقعها ولكن وبعد أيام يمل ويعيد ذلك الجديد لرف التحف المركونة لديه»

فقالت:

«ولكنني لست جديدة فعمري ثلاث وعشرون سنة ولستُ تحفة فلدي ما لديك من أعين وشفاه ووجه وشعر حريري.. وقلبي لا زال ينبض»

وقفت بكلِّ غرور وقالت:

«لا تقارني نفسك بي أيتها الجارية»

لم تقف (رجينة) ولم تهتم بما تثرثره تلك الزوجة الغيورة ولكنِّها أشاحت وجهها إلى النورية وقالت لها:

«أنتِ جميلة للغاية»

ابتسمت النورية باستحياء وقالت لها:

«كنت كذلك ولكن وبعد رؤيتي لوجهك علمت أن جمالي لا يعد شيئًا بك»

فقالت زهور والَّتي تبدو أكبر قليلًا عن (حسناء) وهذا ما جعل رجينة تعتقد أنها الزوجة الأولى للمنذر:

«أعلم يا رجينة بأن جرح فقدك لم يبرأ بعد ولكن صدقيني ستكون حياتك جميلة هنا بيننا»

لم أقل شيئًا بل ابتسمت لها بانكسار دلالة على أن ما قالته قد لامس جرحي بالفعل فصمتت وغيرت الحديث لتتحدث عن جمال الجو هذا اليوم.

صرخت (حسناء) بغضب وقالت:

«أتعاونونها على تجاهلي، سوف أشكيكم جميعًا للمنذر»

ورحلت وعلى وجهها أثار الغضب، ضحكت (زهور) و(النورية) وقالتا:

«لا تهتمي بها، فهي تظن بأن الحب قد يجعل (المنذر) يغرم بها فيطرد كلِّ الجواري»

ثُمَّ قالت (زهور) بحزن:

«وتظن أنها تستطيع أن تجعله يرميني معهن أيضًا لتمتلكه وحدها»

قلتُ:

«الرجال مخلوقات شريرة للغاية فهم يغرزون الحقد والحزن في قلب من أرادوا إكمال حياتهم معهم».

بعد وقت من الحديث بين الثلاثة حتّى عاد (المنذر) برفقة (حسناء) والَّتي يتضح على وجهها آثار البكاء وقال:

«من أحزن حسنائي »

فقالت النورية:

«صدقني لم يحزنها سوى نفسها يا أخي»

قال بعد تلفته على (حسناء):

«أستطيع أخذ حقك من أي شخص بالعالم سوى نفسك فأنت المسؤولة عنها»

ثُمَّ جلس بالمقعد القريب من (رجينة) وقال لها:

«أتحبين ركوب الخيل؟!»

قالت:

«الخيل دومًا متنفس الأحرار»

فأمسك يدها وقال:

«لنذهب إذًا»

وسحبها معه حيث موضع الخيول الخاصَّة به تاركًا زوجاته وأخته في تلك الحديقة المبهرة للعين، فحديقة وسط صحراء لا بدّ أن تبهر عين أي شخص يراها وإن كان قادمًا من بلاد الغرب.

لاحظت (رجينة) أن هنالك عشرة من الخيول ولكن ما أثار إعجابها خيل أسود اللون في عينه اليمنى شق بسيط باللون الأبيض فقالت:

«ما اسم هذا الخيل؟!»

أجابها بعد أن ربتُّ على الخيل والذي عرف صاحبه جيِّدًا واقترب منه:

(عُجيب)

ابتسمت وقالت:

«عُجيب اسمًا وشكلًا، هل لي بامتطائه؟»

قال لها بعد أن أمسك عجيب جيِّدًا لتهيئته على الراكبة الجديدة:

«بالطبع تستطيعين ووعدٌ منِّي إن تقبلك سيكون هدية منِّي لك»

فرحت بعرض سيدها وحاولت عشرات المرات ركوبه ولكنه يأبى ذلك فيترنح يمينًا ويسارًا لتفشل في مسعاها. عندها ضحك (المنذر) وقال:

«سأجلب لكِ فرسًا جميلة ومطيعة في ذات الوقت وكفي عن أذية نفسك»

ولكنِّها رفضت وقالت:

«أنت وعدتني إن استطعت امتطاءه سيكون ملكًا لي ويجب أن تفي بوعدك»

ثُمَّ همست وكأنَّها تحادث الحصان خلسة:

«ستكون صديقي وإن أبيت»

تركها (المنذر) برفقة إحدى عبيده وذهب لتناول طعامه، وهو في طريقه قال:

«إن يئستِ من عبثك هذا فلتلحقي بي»

مرت الساعات تتلوها ساعات أخرى حتّى أظلم المكان وأصبحت المنطقة بأكملها سواد قاتم سوى بعض الاماكن والَّتي يستطيع الماشي رؤية ملامحها بسبب بعض الأخشاب المتآكلة بسبب النيران. وذلك السكون في المكان لا يقطعه سوى صهيل عجيب وصرخات رجينة.

قال لها العبد والذي يدعى (زمر):

«يكفي، فجراحك ستفتك بكِ لا محالة إن استمريت بما تفعلينه»

أشاحت خصلات شعرها بيديها الممتلئة بالدماء وقالت:

«هذا الحصان سيكون ملكي وإن أبى»

ثُمَّ ركضت بكلِّ قوتها خلفه لتقفز وتصبح فوقه، ركض عجيب بكلِّ ما يستطيع من قوة وحاول إسقاطها مثلما فعل بالمرات الماضية ولكنِّها ظلَّتْ متشبثة به وتربت على ظهره بكلِّ هدوء. بعد وقت طويل ممَّا يفعله توقف من شدِّة التعب وعينه تنظر للأعلى بمحاوله منه أن يشاهدها، بينما يديها ظلَّتْ تربت على جسده بهدوء حتّى شعر بالطمأنينة وسكن أمامها. وضعت شفتيها أمام أذنه وهسمت له وكأنهُ يستطيع فهم كلماتها:

«ألم أخبرك بأنك ستكون صديقي بهذا المكان، انطلق يا عجيب»

حركت يديها بقوة عليه لينطلق كالرِّيح في أرجاء المكان ويقفز العتبات الواحدة تلو الأخرى وصوت ضحكاتها يملئ المكان.

وكأنهم روح واحدة قد قسمت نصفين، نصفٌ أصبح متشكلًا داخل حصان يمتلك من الجمال الكثير ونصف آخر يُحيط حوله جسد أشبه بالملاك النازل من السَّماء السابعة ليُري النَّاس أن الرب قادر على كلِّ شيء.

خطوات ذلك الحاكم تتقدم ناحية (رجينة) وعجيب وبعدها حلت أصوات صفقات وقال:

«ماهرة ورائعة، كم أثرتِ إعجابي»

أمرت (عُجيب) فتوقف بكلِّ خضوع ونزلت بأقدامها إلى الأرض متجهة إليه بشموخ وقالت:

«لتهدني (عجيب) كما قلتُ لي»

فقال:

«هو لك من الآن ولن يركبه أحد سواك»

ظهرت ابتسامة على وجهها وكأنَّها شعاع من نور في كومة من السواد. ظل (المنذر) ينظر إلى وجهها بذهول وشعر بشيء يتحرك في صدره لأول مرة. لم يعلق على ابتسامتها شيئًا بل وجه كلماته إلى (زمر) وقال:

«لتنقش على سرج الحصان اسم (رجينة) بخيوط من ذهب وفضة، فهي تستحق»

شكرته وقالت:

«هذا كثير جدًّا عليَّ»

ربت على كتفها بيديه وعينيه تنظر إليها نظرة مليئة بالعديد من الكلمات الَّتي لا يستطيع الشخص نطقها وقال:

«أنتِ تستحقين»

ثُمَّ رحل بخطوات بطيئة حتّى اختفى عن ناظرها وكأن الظلام قد ابتلعه. أصبحت تنظر لمكان اختفائه وهي تفكر بما قاله وبدلًا من تلك الابتسامة البريئة الَّتي خطتها على شفتيها وضعت ابتسامة مليئة بالخبث على وجهها لتصبح كشيطان محاولًا التشكل بالملائكة فيفشل.

بعد أن أخذت (عُجيب) إلى الإسطبل الخاص به ركضت إلى ذلك المكان المليء بالجواري والذي يقع ضمن (مخصوصات الحاكم).

فور دخولها شاهدت (ملاك) العجوز واقفة أمام بوابة المكان وعند انتباهها لها قالت:

«لقد كنت أنتظرك، هل كلّ شيء على ما يرام»

هزَّت (رجينة) رأسها وقالت:

«بل كلّ شيء أفضل ممَّا تتوقعينه»

ثُمَّ أهدتها قبلة بالهواء وقالت:

«هيَّا يا عزيزتي أخبريني عن مكان نومي فأنا متعبة، تعلمين جيِّدًا أن يومي كان حافلًا وأستحق بعده القليل من الراحة أليس كذلك»

تحركت (ملاك) وحركت يديها كإشارة أن تتبعها فتبعتها وتجاوزتا تجمعات الجواري اللاتي ظللن يحدقن ب (رجينة) وعلى وجوههم حقد وكره والكثير من الحسد. ابتسمت بدورها لهم بكلِّ براءة

ومثلت الغباء على أصوله وهي تحرك يديها أمامهن مودعة وتلقي قبلات في الهواء لكلٍّ واحدة منهن.

وصلت مع (ملاك) إلى إحدى الغرف البعيدة بعض الشيء عن غرف الجواري الأخريات وفتحت لها البوابة لتجد غرفة لا تقل جمالًا عن غرفتها في منزل والدها قبلًا بل قد تكون أجمل بكثير.

ابتسمت وقالت:

«وهل جميع الجواري لديهن مثل هذه الغرفة؟ »

فهمت (ملاك) مقصدها وقالت بنفس النبرة:

«المميزون فقط، وليس هنالك مميز سواك في هذه اللحظة»

استمر تقابل الحاكم (منذر) بالجارية (رجينة) لسبعة أشهر، تبادلا فيها الكثير ممَّا يجوب نفوسهم حتّى شعر الحاكم بأنهُ لا يستطيع الاستغناء عن (رجينة). فعزل نفسه عن نساء القصر أجمع بما فيهن زوجاته منعًا من أن تُصيب محبوبته غيرة النساء.

ذات ليلة وعند تأمله للقمر، ذلك القمر الذي شهد الكثير من القصص المشابهة لقصته قال:

«أخبرني أيها القمر، هل الحب مُحرم في بلاد العرب أم أنني قد غرزت بين أوكار خطيئة لا فرار منها. أخبرني أيها القمر، أيكون حبي لتلك

الحسناء سببًا لضياعي كما يقول الكثير فالنساء لا ينسين الثأر. أم أن حبها لي سيكون كافيًا للقضاء على السواد في قلبها».

سمع صوتًا وراءه فتلفت ليلقى وزيره وصديقه (نمرود) فقال له:

«الحب وإن تلبس رداء الشيطان يظل حبًا طاهرًا لا عيب فيه يا مولاي، انظر إلى قلبك وما يخبرك به افعله ونحن جميعًا معك»

ابتسم له وقال:

«كلماتك هذه كالدواء لقلبي، أنت على حق يا (نمرود) سأفعل ما يخبرني به قلبي وغدًا صباحًا سيكون قراري»

دقت طبول الاجتماع المئة والعشرين لقبيلة البغال والقبائل المجاورة لها وجاء كلِّ ذي شأن للتشاور على الاتفاقات القديمة وتجديدها ليسلم كلِّ شخص منهم هو وشعبه من الآخرين.

في ذلك الاجتماع تحدث الجميع ما عدا (المنذر) والذي ظل صامتًا يستمع لكلِّ شيء يقال ثُمَّ وبعد انتهاء كلِّ شيء نهض وقال:

«سمعتكم جميعًا وسمعت أيضًا تطاولكم على قبيلة شداد، والآن حان دوري بالحديث»

نهض الجميع ليبدوا حسن الإنصات مع الحاكم فقال:

«ابنة شداد ستكون زوجة لي إن وافقت على ذلك، ولأجلها أنا وباسمي (حاكم قبيله البغال وما يجاورها) أُلغي اتفاقي معكم جميعًا وستكون الحرب بيننا قريبًا إلا إن وافقتم وباركتم زواجي منها»

قال حاكم إحدى القبائل والذي كان كبيرًا في العمر ورأسه ممتلئ بالشيب:

«اهدأ أيها الحاكم وخذ الأمور بالعقل، فما تقوله الآن لا يمكن أن يصح.. أن تكون ابنة شداد جارية لك هذا أمر مقبول ولكن أن تكون زوجة لك فأنت بهذا الأمر تعادينا جميعًا».

قال شخص آخر:

«شداد أعلن الحرب علينا وهو العدو الأكبر والأخطر بالنسبة لنا منذُ زمن بعيد وأنت تعلم بأن ما فعلناه به وبشعبه لن يمر على ابنته مرور الكرام.. ستنتقم يومًا ما»

صرخ بطريقة مرعبة على جميع من في المجلس وقال:

«بعد يومين سيكون حفل زفافي على ابنة القائد شداد وابنته لم ولن تكن جارية، أفهمتم؟!»

صمت الجميع وذهب كلٌّ شخص للخارج تاركين الحاكم ووزيره وحيدين في المكان. أراد الوزير التحدث ولكنه قال له:

«أخبر جميع الشعب أني قد قررت الزَّواج للمرة الثالثة، واجعل جميع أهل الاختصاص أن يفعلوا ما فعلوه في زواجاتي السابقة ولكن بصورة أكثر رونقًا وبذخًا».

ابتسم وقال له:

«فهمت يا مولاي، سيكون لك ولسيدتنا ما أردتم»

كانت تتزين في غرفتها الخاصَّة حتّى أتاها الخبر من إحدى الجواري والَّتي تم إجبارها على مناداتها (مولاتي (رُجينة)) فابتسمت بمكر ويدها اليمنى مشغولة بوضع الحجر الأسود على عينها لتكحيلها، وكأن الخبر الذي تتمناه جميع نساء القصر بل نساء المنطقة بأكملها لم يكن يهمها من الأساس.

مرَّ اليومان ولقاء الحاكم بزوجته المستقبلية يزداد وتلك القصائد الَّتي يقصها على القادمين إلى مجلسه تجعلهم يخرجون وأيديهم تتخبط ببعضها ظنًّا منهم أنهُ قد فقد عقله.

بل إن الكثير منهم ظنوا وأطلقوا الشائعات الَّتي تدين (رجينة) بتهمة السحر المكروه بين العرب. لم يعلموا وقتها أن الحب مفعولهُ أقوى مئات المرات من السحر ومردته.

ولكن ورغم أنف جميع الكارهين والحاقدين تم الزفاف وسط بكاء زوجاته وندب الجواري لنفوسهن. تم الزفاف بطريقة لم يشهدها عربي في ذلك المكان قط، فحتّى بنات الحكام والذين يترقبون النساء زفافهن سنوات لم يكن بهذا الجمال الذي كلف الكثير.

فمهر من مئة ألف ناقة وعشرة صناديق من الذهب والمجوهرات الآتية من المناطق الغربية والمصنوعة خصيصًا لها، بل وفستانها الأبيض بتطريز يحوي اسمها واسمه والكثير من الوعود الَّتي يعدها لها بحياة جميلة وزوج محب طوال الدهر كانت مطرزة في ذلك الفستان. فترجم حبه لمن كانت جاريته أمام الملوك والحكام ورجالهم قبل نسائهم.

((المنذر)) عرّفنا معنى الحب وكيف تكون التضحية له، فالكثير ممن تم الاتفاق على هدنة معهم لسنوات قد تخلوا عن ذلك الاتفاق بسبب ما فعله. فحب جارية تم سلبها من معركة لا يمكن أن يجعلها حاكمة على الشعب مهما يكن. ولكن لم يكن هذا هو السبب لإعلان الاختلاف بينهم وبين (المنذر) بل بسبب خوفهم من بطش تلك الفتاة الأشبه بالملائكة، فالنساء لا ينسين الغدر وإن تم إكرامهن عشرات المرات عوضًا عنه. فهم في نظر العرب بذلك الزمان لسن سوى مثال بشري للأفاعي بمكرها وخبثها.

لم يبالِ بكلِّ هذا الأمر بل ترك الأسوأ ليوم آخر بعيد عن هذا اليوم الذي أخذ شرف جمعه مع حبيبته وقرة عينه وعند انتهاء الاحتفال قال لها:

«هل أنتِ سعيدة يا (رجينة)!»

قالت بابتسامة صفراء:

«سعيدة جدًّا يا منذر، ألا يكفي عليَّ أن أكون زوجة لك وأنت الوحيد من أحببت في حياتي بأكملها»

مرَّت السنوات ورزق (المنذر) بابنه العاشر من (رُجينة) والذي أسماه (شداد) تعظيمًا لوالدها. وخلال تلك السنوات تغيرت الكثير من أنظمة الحاكم على الشعب والقصر أيضًا. فقد تم إعدام الجواري بأمر منه وهجر زوجاته ولم يمر عليهم منذُ اقترأنهُ ب(رجينة). بل فصل ابنه عن أبنائه الآخرون خوفًا عليه منهم؛ لأنهُ قد قرر أن الحكم سيكون له من بعده.

أصبح الجميع ساخطًا بقراراته وتغيره عليهم ولكنهم لم يعلموا من وراء كلِّ تلك التغييرات. لقد كانت هي (رجينة) السبب لكلِّ ذلك، فهي الَّتي تصب السم لأذنيه ليلًا فيخرج ذلك السم على الشعب وباقي من في القصر نهارًا.

ذات ليلة سمع صوت بكاء ابنه شداد وعند ذهابه لتفقده وجد (رُجينة) تجبر ابنها على تناول سائل أصفر اللون له رائحة كرائحة العجين المتخمر. فقال لها:

«ما هذا الَّتي تطعمينه إياه قصرًا»

ابتسمت وأشاحت شعرها عن وجهها وقالت:

«حساء يعطي من يتناوله القوة والذكاء مع مرور الوقت»

فقال متعجبًا بعد أخذ الحساء منها:

«لم أشاهد مثله قبلًا، من علمك صنعه»

قالت:

«قبيلتي لديها أسرار وهذا الحساء واحد منها»

ابتسم بينما أصبح يأكل الحساء بدلًا من ابنه وقال:

«وأعظم سر أريد معرفته، كم شهرًا استغرقت والدتك لولادتك، فجمال كجمالك لا يمكن أن يتم الحمل به تسعة أشهر فقط».

لم تجاوب بل تصنعت الحياء والخجل، أراد التحدث ولكن صوت منعه لينظر للوراء فيجد زوجته الأولى ويديها مليئة بالدماء وعينيها تبكي كبكاء المطر على جثث الموتى فصرخ عليها:

«ماذا حدث لكِ يا امرأة تحدُثي»

ركضت إليه وقالت:

«ابنتك، ابنتك الَّتي أحببتها أكثر من نفسك ذهبت، فارقت روحها جسدها وودعتنا بلا وداع يا (منذر)»

امسك بيديها بكلِّ قوته وقال:

«من، ابنتي من.. أخبريني من؟»

فقالت بين شهقات بكائها:

«سارة»

ركض كالمجانين إلى جناحها وهو يصرخ:

«سارة لا تموت، لا يجب على (سارة) أن تموت»

ولكنّها ماتت.. وجدها غارقة في دمائها وعينيها بيضاء بالكامل وجميع إخوتها يبكون على جثتها بكلِّ انكسار.

أصبح كالجبل الذي أقسمته ريح لا قوة بها، فبكى لأول مرة بكلِّ ضعف أمام خدام القصر ونسائه، وعلى عكس ما يتملكه في تلك اللحظة كانت (رجينة) تنظر للمشهد من إحدى أركان القصر وعلى وجهها ابتسامة النصر.. النصر لمن هم تحت التراب ماكثون.

مرَّ أربعون يومًا على موت (سارة) ابنة الحاكم والذي لايزال منعزلًا من شدِّة الحزن عليها ولا يقوى على الحديث مع أي شخص حتّى جاءت الطامة الأخرى ليتعرفوا على ثلاث جثث غارقة في النهر. لقد كان أبناء (المنذر) الثلاث (سُكرة) و(همام) و(عُرف).

تلك المأساة التابعة لما قبلها بينت للجميع أن وراء موت الأربعة شخص حاقد وكاره للمنذر، وبسبب ضعفه فضل الطريق الأرخص وهو الطريق الذي يحوي أطفاله العشرة.

خص وبعد هذه الحادثة أصبح يموت كلِّ يوم من قبيلة البغال قرابة عشرة أطفال بدون سبب. لم يعد (المنذر) فقط الهدف لهذه اللعنة بل جميع أطفال القبيلة يعدون كذلك.

وخلال سبعين يومًا تم القضاء على الأطفال بأكملهم ما عدا (شداد ابن رُجينة). بدأ النَّاس بالتساؤل عن سبب عدم موته كبقية إخوته وأبناء قبيلته وأصبح الاتهام على (رُجينة) قائمًا.

وقرر الجميع صنع احتجاج والمطالبة بقتلها كما قتلت أبناءهم ولكن الحاكم رفض الاستماع لهم بقوله:

«المساس ب(رُجينة) لن يحدث قبل قتلي، أتفهمون؟»

فتحدث شخص بالغ:

«ولكنِّها قتلت أبناءك جميعهم ولم يبقَ لك سوى ابنها، بماذا تفسر ذلك؟»

فقال:

«(رجينة) لا دخل لها لما يحدث، بل هو داء قد حل علينا ولا نعلم الدواء له حتّى الآن.. لا أكثر»

فقال الحارث ذلك الذي أهداه إياها قصرًا:

«وماذا تفسر بقاء ابنها على قيد الحياة بينما أبناء الجميع قد احتضنوا أتربتهم باكرًا »

قال:

«الخالق شاء ذلك، ألا تؤمن بالخالق يا (حارث)!»

ابتسم وقال:

«أؤمن ولكني آخذ بالأسباب قبل الإيمان»

لم يتحدث ولم يجادله بل جلس وأشار ل (نمرود) أن يخرج الجميع من قصره فخرج الجميع والكره يمتلك قلوبهم، عندها قرروا الحرب والخروج على قائدهم وقتله ليكون عبرة لمن يأخذه قلبه بعيدًا عن عقله وشعبه.

بعدها بليلة ظهرت نيران الحرب من الشعب على حاكمهم فخرج برداء الحرب لمقابلة الشعب بأكمله ولم يحمل معه سوى سيفٍ واحدٍ.

واستمرت الحرب يومًا وليلة فقتل منهم مئتين وعشرين شخصًا قبل أن يقتله الحارث بسيفه بعد الهمس له بهذه الجملة:

(سأجعل من أختك جارية لي وابنك عبدًا لسمُوّي)

فقتله والقهر واضحٌ على وجهه لتبقى جثتهم مثالًا على قهر الرجال..

بعد قتل حاكمهم دخلوا القصر أفواجًا باحثين عنها فوجدوها ميتة هي وولدها شداد وبجانبها ورقة كتب عليها:

(خلال أيام ستكون حياتكم وباء عليكم وستموتون لتلحقوا بمن غدرتم بهم.. فالسُم أصبح منتشرًا داخل أجسادكم. أنتم فانون كفناء عائلتي... أنتم أموات منذُ الآن فلتسعدوا).

أقفلت الكتاب بعد تفحص الصفحات الأخرى ولم أجد غير صفحات خاوية لا شيء فيها فأدركت أن هذه هي النهاية الَّتي أراد منى الكتاب معرفتها. نهضت من مكاني مزيلًا لكلِّ الأقمشة الموضوعة بجسدي لافتح الباب وأجد أم (نهر) تصنع شيئًا في مطبخها فقلتُ:

«أين (نهر)؟»

انتبهت إليَّ وإلى صوتي الضعيف وقالت:

«في سطح المنزل، إن لم تستطع الصعود إليها سأجعلها تأتي إليك»

حركت رأسي بمعنى كلّا وقلتُ:

«سأذهب إليها بمفردي، أشكرك»

صعدت الدرجات الواحدة تلو الأخرى والتعب يتملكني حتّى وصلت إليها بعد جهد جهيد. فشاهدتها تتأمل غروب الشمس عن المكان وانعكاسه على ذلك القصر البلوري العائم حولهم فقلتُ:

«أنتِ هنا إذًا»

قالت دون النظر إليَّ:

«اجلس يا (أحمد)، فلدي العديد من الأشياء الَّتي يجب أن أقولها لك قبل رحيلك».

جلست بصعوبة مع بعض المساعدة منها وقلتُ:

«لتتحدثي إذًا فكلي آذان صاغية »

قالت:

«انظر إلى جمال المكان ورونقه الذي يضيف للعين سببًا للرؤية، أتشاهد عيبًا واحدًا في كلِّ ما تراه عيناك يا (أحمد)»

قلتُ لها:

«كلا، بل على العكس تمامًا فأنا لا أجد سوى الجمال والكمال الذي يجعلني أفكر كثيرًا في عظمة خالقه»

ابتسمت وقالت:

«أود أن أقول لك سرًا ولكن يجب عليَّ أخذ الإذن منك بذلك»

تعجبت ممَّا قالته وقلتُ:

«وهل تأخذين الإذن من الشخص الذي تودين إخباره بسركِ؟ لم أسمع بهذا الشيء من قبل. الإذن يؤخذ لمن وضع السر في صدرك وليس من الآخره.»

قالت:

«ولكن الأمر مختلف هذه المرة، وبعيد كلِّ البعد عن الأسرار الَّتي تعرفونها»

أردت النطق وإخبارها بموافقتي على إفصاحها للسر ولكن صوت (المأمون) ظهر لأجده أمامي قائلًا:

«لا توافق على ذلك فأنت أضعف من مواجهة سرها الذي تريد إفصاحة لك»

تملكني الغضب ممَّا قال وقلتُ:

«هل قلتُ إني ضعيف؟! وكيف أكون ضعيفًا وأنا الذي تخطيت كلِّ ما تخطيته بتلك السنوات الماضية، لأخشى سرًا مصنوعًا من كلمات لا أكثر »

أراد الحديث والتبرير ولكني منعته وقلتُ لها:

«إن كنت أريد معرفة السر سابقًا فأنا الآن مصر على معرفته»

قالت:

«لك ما أردت»

أمسكت يدي وقالت:

«أعد النظر لهذا المكان مجدّدًا، هذه السَّماء وذلك البحر والقصر أيضًا، أعد النظر حتّى لي ولمدينتي (مدينة السراديب) بعينك الثالثة، عينك الَّتي في داخلك» و

ضعت يدها الأخرى بين عيني وشعرت عندها بدقات في موضع يدها حتّى تغيرت عندي الرؤية بطريقة مخيفة. المكان أصبح وكأنهُ مصنوع من النيران، وتلك السَّماء الصافية برونقها وجمالها أصبحت سوداء مع بعض الإنارات الحمراء من مكان لآخر. والأدهى من كلِّ ذلك (نهر) لم تكن (نهر) الَّتي أعرفها بل تغير شكلها ليلائم المكان المرعب الذي أراه، عظام وجهها ظاهر نصفها وكأن العظام واللحم قد امتزجا سويًا ليشكلا تقاسيم وجهها هذه. وعينيها بيضاوية الشكل وحادة من الجوانب، لونها أبيض مشع ومليء بالخيوط الحمراء داخلها. جسدها ممتلئ بالأوشام ومن ضمنها وشم أسود اللون يشكل وجها شيطانيًا يرتدي تاجًا وتحته كتب بلغة بعيدة عن لغتي ولكني لا أعلم كيف استطعت قراءته:

(الأرض لي، والسَّماء لي والكون بأكمله هائم تحت قدمي)

وبخط صغير أسفل هذا الكلام كتب:

«من وضع الوشم على جسدي يكون مكروهًا خائنًا مطرودًا من رحمتي.. إلى السراديب مؤبدًا»

ابتعدت عنها والرعب يتملكني وأصبحت أضع يدي على عيني لعل هذا الكابوس يختفي ولكن لا شيء تغير بل أصبحت أشاهد الأشياء

بوضوح أكثر فعلمت في داخلي أن هذه هي الحقيقة لهذا السجن، سجن السراديب وما كنت أراه سابقًا لم يكن سوى وهم محيط بعيني.

نظرت للبحر لأجد الحيتان الَّتي تقفز لا جلد لها ولا لحم بل مجرد هياكل عظمية ضخمة لدرجة أنها إن قفزت على هذه المدينة لأغرقتها. وذلك القصر البلوري لم يكن مصنوعًا من البلور بل كان أسود كلون الفحم وفوقه خمسة من الشياطين ينظرون إليَّ والخبث في أعينهم.

حتّى مدينة (سراديب) لم تكن كالَّتي عرفتها بل تلك البيوت الزجاجية كانت مصنوعة من الطوب الأحمر ووجوه الجميع كوجه (نهر) المرعب. وهنالك العديد من آلات التعذيب والَّتي يدخل إليها شعب نهر طواعية ليضربوا ضربات إن ضرب بشر ضربة واحدة بها لمات قبل نزعها من جسده. وشاهدت حراس كتاب العرين بأحجام كأحجام العمالقة لدرجة أن البحر بعمقه لم يتعد أقدامهم وتلك الحيتان كالبعوضة بالنسبة لهم. لم يكونوا يتحركون بل ظلوا ينظرون إليَّ كالأصنام.

بعد رؤيتي لكلِّ شيء ركضت (نهر) إليَّ وأمسكت يدي ووضعت الأخرى بنفس المكان الذي وضعته قبل رؤيتي لكلِّ هذه الأشياء فشاهدت كلِّ شيء قد عاد كما كان. صرخت عليها برعب:

«ما هذا الذي رأيته، لا تقولي أنهُ حقيقة وأن هذه حقيقتهم.. لا تقولي ذلك»

قالت:

«بل هذه هي الحقيقة وما تراه الآن يكون وهمًا لعينك ورحمة من خالقك، أعينكم الخارجية تشاهد الأشياء من تحت غشاء يمنع عنها كلِّ شيء قد يضرها ويجعل عقلها يتوقَّف. ولكن وبنفس الوقت لديكم عين أخرى داخله بين أعينكم الاثنتين تستطيع رؤية كلِّ شيء نراه نحن ولكنكم لا تستخدمونها. هي المتحكم بالأحلام ورؤية ما هو غريب ومخفي عنكم».

قلتُ لها:

«ولماذا تخبرينني بهذا الأمر والذي تعلمين جيِّدًا أنهُ لا يفيدني بل يزيدني خوفًا وهلعًا منكم»

قالت:

«كل شيء موضوع في جسدك يفيدك بطريقة ما، وأنا أردت منك معرفة المجهول.. ألم تقل في صغرك أنك تحب معرفة ما يجهله النَّاس.. اعتبر السر الذي علمتك إياه قبل قليل هدية منِّي إليك كعربون صداقة بيننا».

وضعت يدي على نفس المكان الذي وضعت يديها فيه وقلتُ:

«إن أردت فعلها في المستقبل كيف أفعلها دون مساعدتك»

فقالت:

«افعل ما فعلته لك فقط وسيظهر لك العالم المخفي عنك وإن أردت العودة لعينك الخارجية أفعل نفس الشيء أيضًا وستعود لطبيعتك»

لم أكن سعيدًا بهذه المعلومات الَّتي قالتها لي بل إن قلبي لايزال يدق من شدِّة الخوف ويدي ترجف ولا تستطيع التوقف عن ارتجافها، ولكني رغم كلِّ ذلك حاولت التحكم بانفعالي والتمثيل على نفسي بأن الأمر ليس مخيفًا إلى هذه الدرجة وأني رأيت الكثير في رحلتي يجعلني أستطيع التحكم بما أشاهده الآن.

بعد يوم ممَّا حدث أخبرت (المأمون) و(نهر) أني أود الرجوع لمدينتي (مدينة السلاطين) ورؤية عائلتي فشعور في داخلي يخبرني أن شيئًا قد حدث.

حزنت كثيرًا فالوداع لا أحد يستطيع تحمله ولكنِّها قالت:

«لك ما أردت، تعال معي»

ذهبت معها إلى مكان قريب من سطح البحر ولا يفصل بينه وبين البحر سوى جدار زجاجي.

وعندما كشفت عن المكان شاهدت سفينة زجاجية صغيرة بالمقارنة بتلك الَّتي تحطمت ولكنِّها كانت أكثر جمالًا منها. لم أنبهر لعلمي أن ما تراه عيني ليس الواقع الذي هي عليه ولكني رغم ذلك كنت سعيدًا فالخروج من المكان والعودة لعائلتي هو كلٌّ ما أردته هذه اللحظة.

تم إنزال السفينة للبحر وصعدنا على متنها أنا و(المأمون)، ثُمَّ تحركت بنا بمفردها فهي لا تحتاج إلى طاقم أيضًا فتتحرك كيفما أراد من يركبها دونما جهد منه.

أصبح الجميع يودعنا بما فيهم (نهر) والَّتي تساقطت منها الدموع كقطرات من اللؤلؤ النادر وقالت لي:

«كن بخير يا (أحمد)، لقد كانت أيامي معك الأجمل طوال حياتي»

لوحت بيدي مودعًا وقلتُ:

«وأنت أيضًا كوني بخير، ولا تيأسي من الفرج فالفرج لا بد أن يأتي مستقبلًا يا (نهر)»

كنت ألوح بيدي إليهم حتّى اختفت آثارهم وأصواتهم وخيم السكون على المكان. لمحت القصر البلوري وكانت هناك فتاه تنظر إليَّ من إحدى نوافده فهمست للمأمون.

«أتتوقع أنها هي نفسها ابنة الحاكم»

فقال:

«لا أتوقع بل هي ابنة الحاكم نفسها».

ظللت أتأمَّلها في صمت حتّى اختفت هي وقصرها عن عيني أيضًا..

مرت ثلاث سنوات وتلك السفينة لا تتوقف وفي داخلها كلٌّ أنواع الأطعمة والمياه العذبة والَّتي تأتي من العدم. لم أفهم السر هذه السفينة ولكني كنت سعيدًا رغم طول الطريق ورغم الزمن الذي طال على ظهرها.

فشوقي لمدينتي كشوق الطفل لحضن والدته، وما أخذته من هذه الرحلة الَّتي كلفتني عمرًا كاملًا كفيلًا لإنهاء شوقي إلى المجهول والقوة الَّتي يطمح إليها كلٌّ بشري على وجه الأرض.

توقفت السفينة بي إلى بحر العرب وبالتحديد أمام مدينة (عدن) فنزلت منها وذهبت عائدة إلى البحر من جديد وسط تعجب البشر والذين ينظرون إليَّ وإلى السفينة الراحلة وعلى رؤوسهم مئات الأسئلة.

المعروف أن الزجاج لا يصلح لأن يتم استخدامه في صناعة السفن فكيف بهذه السفينة المصنوعة كليا من الزجاج. علموا عندها أني لم أكن في رحلة عادية بل إني قادم من بلاد الجن والشياطين.

فزادت الهمسات بينهم:

«هل هو ساحر؟»

«قد يكون كصالح يمتلك من الشياطين الكثير»

«ولكن وجهه وقور»

كنت أمشي متجاهلًا كلِّ تلك الكلمات الَّتي يهمسونها لبعضهم فتأتي إلى أذني بلا جهد مني.

حتّى استوقفني صوت امرأة غاضبة وهي تقول:

«أيها الساحر العجوز هل أتيت لتضع بلاءك علينا»

لم أتوقف بسبب اتهامها لي بل الذي استوقفني هي كلمتها (عجوز) فتلفت إليها وقلتُ لها:

«قد أكون عجوزًا بالنسبة لهذا الشاب أو تلك الطفلة ولكني لست عجوزًا بالنسبة لك أيتها الكهلة»

أصبح الجميع يضحك كالمجانين ممَّا قلتُه فتبسّمت عند رؤيتي لوجهها المحمر وذهبت في طريقي غير آبه بها وبهم. ولكنِّها استوقفتني هذه المرة بيديها وقالت:

«انظر لنفسك أيها العجوز، أتقارن نفسك بي»

وأخرجت من جيبها مرآة ووضعتها أمامي لأشاهد شكلي وكأنني أول مرة أشاهده. تغير شكلي كثيرًا منذُ بدايتي بهذه الرحلة، كيف لم ألحظ ذلك قبل الآن. الشعرات البيضاء تغلبت على السواد في شعري لتكون المسيطرة، والتجاعيد ملأت و وجهي بأكمله. عيناي الذابلتان وانحناء ظهري جميعها جعلتني أهمس بشيء واحد فقط:

«كم لبثت يا (أحمد) برحلتك هذه»

عندها أصبحت تضحك لترد ما فعلته بها وقالت:

«عجوز خرف وساحر في ذات الوقت يجب عليك أن تخجل من نفسك»

لم أقل شيئًا بل وضعت المرآة في يدها وتحركت مبتعدًا عنهم بكلِّ استسلام وأنا أهمس لنفسي:

(هل أخذت الرحلة منِّي كلَّ هذا العمر؟)

(كيف حال عائلتي؟)

(أتمنى لو كانوا على قيد الحياة)

بعض مضي ثلاث أسابيع من المشي إلى مدينة السلاطين وبمساعدة (المأمون) والذي كان يقصر على المسافة كلِّ حين و آخر حتّى وصلت إلى مدينة السلاطين وعند رؤيتي لملامح منازلها والَّتي تغيرت كثيرًا ركضت بكلِّ ما أستطيع من قوة لشخص مثل عمري إلى أن وصلت إلى السوق المركزي وصرخت بسعادة:

«لقد عدت، لقد عدت إليكم»

ظل الجميع ينظر إليَّ ويهمسون لبعضهم البعض بتعجب عن هويتي. فلا يوجد شخص تعرف عليَّ،بل بالأصح وجوه القوم قد تغيرت. لم أهتم بهم بل حاولت المشي باتجاه المنزل الذي اشتقت

إليه ولكن وبسبب سرعتي تعثرت بحجر وسقطت. جاءت طفلة إليَّ وقالت:

«يا عم استند عليَّ وسأذهب بك إلى أي مكان تريده»

شكرتها وقلتُ:

«هل تعرفين منزل (عُريب) أم (أحمد)؟»

قالت:

«أتقصد تلك المرأة العجوز الَّتي ماتت قبل عشرة سنوات»

قلتُ وعيني اغرورقت بالدموع كالأطفال تمامًا:

«أمي ماتت منذُ عشرة سنوات ولم أعلم بذلك»

سمعت صوت امرأة موجهة الكلام للطفلة:

«(رائدة)، ماذا تفعلين هنا، لقد كنت أبحث عنك كثيرًا »

فقالت لها:

«أساعد هذا الرجل يا أمي، يقول إن العجوز زوجة (سالم) الَّتي توفت منذُ عشرة سنوات تكون والدته»

نظرت إليَّ ثُمَّ قالت:

«هل أنت (أحمد بن سالم)؟»

هززتُ رأسي ويداي تحاولان منع الدموع أن تنهمر من عيني فقالت:

«لقد حدثتني والدتي عنك، والدتي تكون ابنة عمتك. قالت إنك اختفيت فجأة والكل بحث عنك ولكن دون جدوى، أين كنت كلَّ هذه المدة؟»

لم أتحدث ولكنني مشيت بخطوات بطيئة إلى منزل والدتي وفتحت الباب لأجد الحال على حاله منذُ رحيلي ولكن الغبار مخيم على المكان والسكون والوحشة تتجمعان فيه.

ركضت تلك المرأة وبقيت الفتاة برفقتي وتنظر لي بكلِّ دهشة وكأنَّها تحاول بنظرها معرفة السر وراء اختفائي فقلتُ لها:

«ما بك تنظرين؟»

قالت:

«الكثير من القصص قيلت عنك وجميع القصص أجمعت على موتك ولكني أراك هنا أمامي ولا شيء قد حدث لك سوى تلك الشعرات البيضاء والتجاعيد في وجهك»

قلتُ لها:

«وما يدريك بما قد يكون حدث لي، فالشكل الخارجي لا يفسّر الكثير عمّا يحدث للشخص يا (رائدة)!»

بعدها تحركت من مكاني وجلست على أول مسند يواجهني، وبدأت أتأمل المكان في صمت، الوسائد الَّتي صنعتها والدتي قديمًا بنفسها، وتلك النقاشات الَّتي تحصل في هذا المكان كلِّ مرة أتمرد على قوانينهم.

والدتي ووالدي رحلا تاركاني وحيدًا لا أحد يأبه بي كأرض قاحلة حولها حشائش الأرض بأكملها. تذكرت إخوتي وقلتُ لها:

«أتعلمين أيتها الطفلة أين يكون أبناؤها؟»

فقالت:

«لا أعلم، في الواقع عند موتها كنت صغيرة جدًّا ولكني لم أسمع شخصًا تحدث عن قريب لها أو ألحظ أحدًا يمر هذا المكان»

جاءت تلك المرأة وبرفقتها امرأة عجوز تحاول إسناد خطواتها بعكازة من الخشب. لا أعلم لماذا شعرت بدقات قلبي تزداد عند سماعي صوتها؟ لقد كانت (رماح). تلك الَّتي تمنيتها عمرًا أن تكون حليلتي فاقترب العمر على الانتهاء ولم يحصل ما تمنيت.

قالت:

«هل أنت (أحمد) حقًا أم أن الكبر فيَّ قد أنساني ملامحك؟ »

فقلتُ وأنا أنظر إليها متأملًا وجهها والذي كان جميلًا رغم أن تجاعيد الزمان صنعت فيه أثرًا:

«لا أتوقع أنك قد نسيتني»

ابتسمت وقالت:

«ما الذي جرى لك؟ كيف اختفيت كلَّ هذه المدة؟ وأين كنت؟»

قلتُ:

«قصَّة طويلة إن قصصتها لك اليوم لن أنتهي منها ولو بعد سنة لذلك دعينا من موضوع اختفائي وأخبريني، أين يكون أخواي، وهل هما بخير؟»

قالت:

«الأصغر مات بلدغة أفعى بعد رحيلك بسنتين، والأكبر أخذ عائلته قبل موت والدتك بعدة أشهر لطلب الرزق في المدن المجاورة ولم يعد حتّى الآن خصوصًا عند إرسالنا مرسولًا له يخبره بأن والدته قد ماتت، جاء لعدة أيام ثُمَّ رحل بلا عودة»

أصابني الحزن فوق الحزن الذي يتملكني وبلا شعور دمعة في عيني قد نزلت لتركض إليَّ (رماح) وتقول:

«أرجوك لا تبكِ، لم أتخيل يومًا أني قد أراك مكسورًا هكذا. أنت تعلم بأن هذه هي الحياة، قادمون وراحلون لا نستطيع البقاء فيها مؤبدًا. لقد جاء وقتهم، ووقتنا في طريقه إلينا يا (أحمد)»

سألتها وعيني بالأرض:

«هل كانت والدتي راضية عني على الأقل؟ بل هل كانت سعيدة في حياتها بدوني؟»

صمتت لوقت طويل ثُمَّ قالت:

«لم تعش حياة هانئة منذُ رحيلك، هي أم في نهاية المطاف والولد لا يمكن تعويضه»

نظرت إليها وقلتُ:

«أين يكون قبرها خذيني إليه؟»

هزَّت رأسها وقالت:

«اتبعني»

ذهبت بي رغم تعب أقدامها إلى نهاية المدينة بالتحديد نحو ذلك المكان الذي دفنَّا به والدي عندما كنت صغيرًا وشاهدتُ قبرها بجانب قبره لا يفصل بينهما شيء.

ظللت أتأمل القبرين بصمت يقتلني فقالت لكسر الصمت بيننا:

«لقد طلبت من والدتي إن ماتت أن يتم دفنها بالقرب من قبر زوجها (سالم) وهذا ما حققناه لها»

ابتسمت بانكسار وجلست أمام قبريهما وقلتُ لها:

«(رماح)، هل أستطيع الانعزال معهما لبعض الوقت»

فربتت على كتفي وقالت:

«لك ما أردت»

ثُمَّ رحلت برفقة ابنتها وحفيدتها وتركوني مع قبرين لأعز الخلق لدي..

ظللت ألمس الأتربة الَّتي تغطيهم وعيني لا تتوقف عن البكاء، و لعنت مئات المرات (ملائك) وظهورها لي فهي بالنسبة لي السبب بكلِّ شيء حصل لي. قلتُ بصوت عالي بدون شعور:

«لعنة الله عليك يا (ملائك) إلى يوم الدين»

ظهر صوت من خلفي أعرفه جيِّدًا قائلًا:

«وما دخلي لتلعنني بسبب بلائك المقدر لك يا (أحمد)»

فتحت عيني على مصراعيها دون الالتفات ثُمَّ استجمعت كلِّ قوتي والتفت لأجدها تنظر لي بحقد العالم أجمع وضحكت ضحكات مليئة بالخبث ثُمَّ قالت:

«ظننتني مُت أليس كذلك أيها الخائن»

تمتمت بصوت خافت:

«كيف يحدث ما أراه؟»

اختفت من المكان لأراها واقفة أمامي وعينها تحولت للون من الأحمر بالكامل وقالت:

«سيكون الحساب بيننا عسيرًا يا (أحمد)»

ابتسمت رغم الخوف في داخلي وقلتُ متصنعًا القوة:

«ارحلي من أمامي فأنا لا أخاف منك، وإن كنت حية أم ميتة فهذا الأمر لا يهمني»

قالت والغضب يملأ وجهها:

«ستتمنّى موتي في المستقبل بسبب ما سأفعله بك»

ثُمَّ اختفت بلمح البصر ليعم السكون المكان وكأن لا شيء ممَّا حصل قبل قليل قد حصل. لم أهتم كثيرًا بتهديداتها لي فأنا لا أمتلك ما أخشى أن أخسره، فهل يخشى الوحيد أن يبقى وحيدًا،هو وحيد من الأساس.. وهل يخشى الحزين أن يكون حزينًا مادام الحزن متملكًا قلبه؟

عدت إلى واقعي بعيدًا عن تلك المخلوقة ونظري بين القبرين أتأملهم بصمت. كم تمنيت لو أستطيع لمرة واحدة التحدث معهم والاعتذار عن كلِّ شيء بدر منِّي في حياتهم.

وددت لو أعتذر من والدي على عصيأنهُ في صغري ومن والدتي على تركها وحيدة والذهاب في رحلة لم تضف لي سوى الخوف والتعاسة.

شعرت بصوت يدور في رأسي وعلمت أنهُ (المأمون) والذي قال:

«لن ينهضوا وإن بقيت العمر بأكمله أمام قبورهم»

ابتسمت وقلتُ:

«ولكنهم يشعرون بي وبوجودي وهذا الأمر يريحني بعض الشيء»

ثُمَّ صمت قليلًا وبعدها قلتُ:

«مأمون، ألا تريد الحياة؟!»

فقال:

«أنا فيها أساسًا»

قلتُ:

«الأمر ليس هكذا، أقصد أن تعيش حرًا طليقًا مبتعدًا عن إمرتي وعبوديتك لي»

قال معترضًا:

«خدمتك شرف لي ما دمت على قيد الحياة»

قلتُ بسخرية:

«وعند مماتي ماذا ستفعل؟»

قال:

«سأنتقل لخدمة شخص من أبنائك»

ضحكت وقلتُ:

«ولكن ليس لدي أبناء!»

صمت قليلًا ثُمَّ قال:

«ما دمت على قيد الحياة فلا تستطيع معرفة ما سوف يحدث قبل أن يحدث»

لم أكمل الحديث معه بل ظللت أتأمل القبرين ثُمَّ نهضت ومشيت باتجاه ذلك المكان الذي لطالما كنتُ اعتكفه في صغري.

الشّجرة الكبيرة والَّتي يخيل لك أنها أم لمن يتظلل تحت ظلها. تلك الَّتي كنت أجتمع مع (يوسف) و(هزيم) فيها كلِّ مرة نخطط على فعل شيء جديد. وكأنَّها تعلم أسرارنا أجمع فتخبئهم داخل صدرها ولا تبوح به لأي مخلوق.

وصلت إلى المكان الذي من المفترض وجودها فيه ولكني لم أرها، بل كلِّ ما شاهدته عوضًا عنها شجرة ميتة توشك على السقوط.

مشيت ببطء حتّى تلامست يداي بجثتها الساكنة، وما إن أمسكت ورقه ذابلة منها حتّى سقطت لتعلن انتهاء تماسكها أمامي.

لا أعلم كيف أصف شعوري وقتها، وكأن كلِّ شيء يخبرني بأنّ ما يربطني بهذه الدُّنيا من أشخاص وأشياء قد انتهى، وأن مكاني هنا بهذا الوقت والزمان لا أثر له. شعرت بأني قد نُبذت من الآخرين سواء كانوا أرواحًا ساكنة أم متحركة كقول الشَّيخ (سالم) لنا قبلًا.

وحيد، كسير وينتابني الكبر وتجمعات الذنوب في داخلي بأن مكاني في نار جهنم ينتظرني بفارغ الصبر. جميع هذه الأفكار والتصورات جاءت في عقلي للحظات كانت بالنسبة لي كدهر من الألم.

سمعت صوت خطوات لأنظر باتجاه الصوت فأشاهد رجلين في نهاية عمرهما يرتكز كلّ واحد منهما على الآخر فيتساعدان على تخطي عقبات الطريق سويًا.

ظللت أتأملهما حتّى اقتربا منِّي بالحد الذي أستطيع سماع كلماتهم بلا أي مجهود. كنتُ أتوقع بأنهم سيتحدثان وسيسألان عن هويتي ولكنهم لم يعطياني أي اهتمام وكأنني غير مرئي أمامهم أبدًا.

قال شخص منهم للأخير:

«انظر إليها يا (يوسف)، لقد تركتنا ورحلت إلى عالم الخلود»

قال الآخر بصوت متعب نتيجة الطريق:

«ولكني كلّ ما أراها أتذكر أيامنا الماضية أنا وأنت و.. ذكرني باسمه»

قال:

«(أحمد)، على ما أذكر اسمه (أحمد)»

ضحك (يوسف) وقال:

«لقد كان شخصًا جيِّدًا رغم أوهامه الَّتي خلقت منه شخصًا آخر»

علمتُ وقتها من يكونان وبلا شعور منِّي صرختُ:

«هل أنتما (هزيم)و (يوسف) حقًا»

التفتا إليَّ بتعجب وقال شخص منهم:

«ومن تكون؟»

قلتُ بسعادة:

«(أحمد)، الذي تتحدثان عنه الآن»

نظرا إلى بعضهما البعض ثُمَّ قالا لي:

«لا تكذب علينا، (أحمد) مات منذُ زمن بعيد»

قلتُ محاولًا برهان ما أقوله:

«لم أمت بل ذهبت في رحلة طويلة وعدتُ الآن، سأريكم الدليل على هويتي»

وأبعدت ردائي عن ساقي اليمنى لتظهر وحمة سوداء اللون كبيرة. فهذه العلامة موجودة منذُ ولادتي وكنت أخجل منها كثيرًا ولكن (يوسف) و(هزيم) وقتها شجعاني على الثقة بالنفس وعدم الخجل من شيء خلقه الخالق فينا.

اقترب (هزيم) من قدمي وقال ل (يوسف):

«انظر، نفس العلامة هل يعقل أن يكون هو نفسه (أحمد) الضائع منذُ زمن بعيد؟»

لم يرد (يوسف) عليه بل اقترب منِّي وحضنني بكلِّ قوته وقال بعد وقت طويل من حضنه لي والدموع تتساقط من عينيه:

«لقد اشتقت إليك كثيرًا »

فقلتُ ممازحًا:

«واضح جدًّا، عندما سألته عن اسمي ليذكرك بي هو برهان على اشتياقك»

قال (هزيم):

«لا تقل ذلك ف (يوسف) يعاني من النسيان الحاد بين حين وآخر ولكنه رغم ذلك لم ينسَ الكثير من ذكرياته معك، وكان يطلب منِّي دومًا تذكيره بك كلما يوشك على نسيانك»

قلتُ معتذرا:

«أعتذر على سوء الظن يا (يوسف)، ولكن أخبرني ما سبب نسيانك؟»

فقال بحزن:

«الكبر، فالكبر يجعلنا ننسلخ من كلِّ شيء نعتز به حتّى لا يبقى لنا شيء سوى كومة من الأمراض والعجز والوهن».

أصبحنا نتحدث عن كلِّ ما حدث لنا عند افتراقنا فبدأ (يوسف) ذكرياته قائلًا:

«كنت أتمنى أن أكون شيخًا وقورًا في المستقبل وبحثث عن العلم المحمود في كلِّ مكان. ولكني توقفت عند معرفتي بأن العلم شيء لا حدود له وإن جاريته وركضت وراءه لقضيتُ العمر كله سائرًا لا مستقر لي. قررتُ الزَّواج من إحدى نساء مدينة مررتُ بها وقد تزوجتها خلال ثلاثة أيام. أتعلمون أنني ظننت أن هذه السَّعادة الَّتي أتمناها طوال حياتي وأنني قد بلغت منها حد الامتلاء. ولكن لا شيء يمشي مثلما نريد تلك الحسناء بعد شهرين من زواجي بها بدأت تتضح حقيقتها أمامي شيئًا فشيئًا.

في يوم أتيت من زراعة الأرض الَّتي حصلت عليها بكلِّ ما أملك مبكرًا على غير العادة وعند عودتي شاهدت زوجتي في ظلمة الليل تسحب كيسًا داخله شيء يتحرك. لا أعلم السبب الذي دفعني للتسلل خلسة دون أن تراني رغم أني كنت واثقًا منها كثقة الشخص في نفسه.

توجهت إلى المنزل وذهبت وراءها حتّى دخلت وتركت الباب مردودًا فأصبحت أنظر من فتحته إلى ماذا تريد فعله. أخرجت طفلة والَّتي أعرفها جيِّدًا فهي تكون ابنة جارنا (عمرو) وبدأت بحرفية تقطيعها ويديها تضغط على فم الطفلة محاولة منعها من الصراخ.

أتعلمون أنني لم أستطع التحرك ومنعها بأي طريقة كانت، لقد كنتُ متفاجئًا وخائفًا والكثير من الأشياء في داخلي منعتني من أن أفعل أي ردة فعل لردع الجرم الذي تفعله، كنت جبانًا يا أصدقائي.

وبعد قطعها لتلك الطفلة كقطعنا للخراف في صباح العيد حتّى وضعتها داخل قدر لتصنع من لحمها حساء. أتعلمون أن نفس الحساء كانت تصنعه لي دومًا عند مجيئي من عملي فأتناوله بكلِّ شراهة وأن أسألها عن مصدر اللحم فتقول:

«أعطوني إياه جيراننا»

ولكني علمت أن كلِّ ما نتناوله أنا وهي لم يكن سوى لحوم الأطفال المختفين طوال استقرارنا هنا»

قال (هزيم) بدهشة بعد صمته:

«ماذا فعلت بعد رؤيتك لها بذلك المنظر؟»

ابتسم وقال:

«تركتها وتركت كلِّ شيء ووليت هاربًا بعد تركي رسالة لأكبر شخص في المدينة أخبره كلِّ شيء عن زوجتي وأولئك الضائعين»

قال (هزيم):

«أعلم يا (يوسف) أنك عانيت الكثير وقد يكون ما فعلته هو السبب الرئيسي لبقائك على قيد الحياة»

قلتُ لهم:

«قد تكون هذه الفتاة وعائلتها من نفس سلالة بنو القوقاع أتذكرون قصتهم، من أكلوا سكان مدينة باقار بكلِّ نهم، أكلوا اللحوم»

قال بحزن:

«لا أعلم ولكن زوجتي، كانت جميلة جدًّا وطيبة القلب لم أتصور يومًا أن تكون بهذه الوحشية القاتلة»

حاولت تغيير الموضوع عند رؤيتي لدموعه الَّتي بدأت بالسقوط ونظرت إلى (هزيم) وقلتُ له:

«وماذا عنك أنت يا (هزيم) أخبرني ب بما فعلته عند افتراقنا»

قال وعيناه تنظر للسماء محاولًا تذكر ما يستطيع على تذكره:

«تلك الأيام كانت الأسوأ في حياتي يا (أحمد)، كنت تعلم أن والدتي كانت تعاني من مس شيطاني وداخلها العديد من الشياطين. ذهبنا لمعالجتها في الكثير من المدن وعند أكثر الشيوخ صيتًا ولكن لم تتحسّن بل تزداد سوءًا كلّ ليلة حتّى قتلت الشياطين والدتي انتقامًا لمحاولتنا التخلص منهم.

كنت أراها أمامي تصرخ من شدِّة الألم الوقت وتضحك في ذات الوقت وعظام جسدها تتكسر الواحدة تلو الأخرى حتّى ماتت. لم أستطع تخطي الأمر وظللت أعيش صراعًا داخليًا بين الحزن والرغبة باللحاق بها وبين الحياة والرغبة بالنسيان.

ولكن القدر لم يدع لعقلي الاختيار بل اختار لي الأسوأ، فشياطين والدتي أصبحوا متلبسين بي. ومعاناتها الّتي كانت تعانيها طوال تلك المدة انتقلتُ إليَّ. لقد كنت أراهم بأبشع صورة يستطيع تحملها بشري وعند النَّوم أسمع صوت صرخات وضحكات وأيادي تضربني بكلِّ قوتها ثُمَّ تصرخ قائلة:

«انهض وإلا ستلحق بمن رحلت إلى الجحيم»

عانيتُ لسبع سنوات العذاب النفسي والجسدي والأحلام والكوابيس بلا أي توقف. حتّى قرر والدي الذهاب بي إلى شيخ يدعى (رُمير). هنالك العديد من الأقاويل قيلت عنه، منها أنهُ ساحر وليس

بشيخ ومنها أنهُ من أم جنية. والكثير من الأقاويل الَّتي لم نهتم لها فكل ما كنا نريده منه أن يخلصني من هؤلاء الشياطين ولا شيء آخر.

ذهبتُ إليه مع والدي في رحلة طويلة أخذت منا سنة ونصف بالتمام وعند وصولنا إلى منزله الذي كان في وادي لا بيت فيه سوى بيته قال لنا قبل أن ننطق بحرف واحد:

«علتكم كبيرة ولكن حلها موجود لدي»

فرح والدي بما قال ووعده أن يعطيه كلَّ ما يملك إن عالجني وتخلصت منهم.

ابتسم وقال:

«ومن قال لكم بأن المال مطمعي، أنا لستُ سوى عبد فقير أعطاني الخالق علماُ لأفيد الآخرين به، وبلا مقابل سوى شيء واحد»

قال والدي له:

«كل شيء تريده سأعطيك أضعافه»

قال متجاهلًا كلام والدي وموجهًا الكلام لي:

«أتريد التخلص ممن قتلوا والدتك يا (هزيم)؟ »

هززتُ رأسي بالإيجاب، عندها قال:

«لكم ما أردتم ولكن طلبي المتواضع أن تأخذوا هذا الصندوق معكم إلى منزلكم، لا تفتحوه مطلقًا فإن فتحتموه سيكون العقاب مؤلمًا جدًّا »

وافق والدي على ذلك رغم خوفه ممَّا قاله له وقال:

«فقط أنقذ ابني ولك ما أردت»

بدأ معي رحلة العلاج لأسبوع كامل والَّتي كانت كمواجهة الموت لطلب الحياة. كوابيس، أحلام، رسائل ووجوه تراقبني، جميعها كنت أشعر بها ولكني صمدت حتّى عدت لطبيعتي واختفت جميع الأعراض الَّتي كنت أشعر بها بلا أي رجعة. ودعناه وأخذنا الصندوق والذي كان مقفلًا جيِّدًا والكثير من غبرة الرمال لموجودة حوله.

في بداية الأمر لم أكن مهتمًا بالصندوق ولكن ومع مرور الوقت ورؤيتي للصندوق في وجهي كلِّ مرة تغلب عليَّ فضولي وحاولت فتحه والغريب أنهُ فتح من أول مرة فتحته فيها لأجد الصندوق خاليًا سوى ورقة صفراء اللون متآكلة منقوشًا في وسطها كلمة (إيريس).

عند قراءتي للكلمة بصوت عال محاولًا فهم ما تعنيه سمعت صوت صرخة والدي فركضت بكلِّ سرعتي إليه لأجده ميتًا وفمه مفتوح بأكمله ونظراته كنظرات من شاهد منظرًا مرعبًا قبل رحيله.

لقد انكسر قلبي أضعاف انكساره عند وفاة والدتي، فعقلي أدرك في تلك اللحظة أنني وحيد ولا أحد معي غير الرب. وبعدها بت وحيدًا منطويًا على نفسي حتّى كبرت وظهر الشيب في رأسي وأصبحت لا

أقوى على خدمة نفسي بالشكل المطلوب إلى أن قابلت (يوسف) من جديد وعادت إليَّ بهجتي قليلًا بمساعدة بعضنا بعضًا على مصاعب هذه الحياة».

قال (يوسف):

«وماذا عنك يا (أحمد)؟»

أيده (هزيم) وقال:

«كم أنا متشوق لمعرفة قصتك؟»

تنهدت وصمت قليلًا ثُمَّ قصصت عليهم كلّ شيء حصل لي منذُ موت والدي حتّى مقابلتي لهم.

قال (يوسف):

«قصتك من أغرب القصص الَّتي مرت عليَّ في حياتي كلها»

وظل (هزيم) ينظر إليَّ بلا أي تعليق فقلتُ:

«وأنت ما رأيك يا (هزيم)؟ »

قال:

«هذه الحياة غريبة حقًا، ألم تلحظ شيئًا! نحن الثلاثة لم نعش حياة هانئة وجميعنا عانينا المرار بهذه الدُّنيا»

قلتُ له بصوت خافت:

«من المعروف أن سيئي الحظ تجمعهم الصدفة سويًا ليصبحوا كحالنا»

ودعنا بعضنا عند انسدال الظلام وسماعي لصوت الطفلة (رائدة) وهي تقول:

«هل انتهيت من عزلتك يا جدي؟ لقد طلبت منِّي والدتيأن أعيدك إلى منزلك»

نهضت بتثاقل بمساعدتها ورحلت إلى منزل والداي كالسابق ولكن بدون وجودهما. قلتُ لرائدة:

«هل لديك إخوة؟»

هزَّت رأسها نفيًا وقالت:

«أنا وحيدة والداي»

فقلتُ:

«أتمنى أن يجلبا لك إخوة لتمتلئ حياتك بهم، فالوحدة لا جمال فيها»

قالت متسائلة:

«أتقصد كوحدة جدتي (رماح)؟!»

فسألتها بفضول:

«وهل الجدة (رماح) وحيدة »

قالت:

«نعم، تعيش بمفردها رغم زيارة والدتي كلِّ حين لها، فوالدتي تعدها كأمها»

توقفت وأدرت وجهي إليها وقلتُ:

«كأمها، أو ليست أمها حقًا»

هزَّت رأسها بطفوله وقالت:

«جدتي (رماح) لم تتزوج، أمي تكون ابنة أختها (سمية) الَّتي قتلها مرض لا نعلم له علاج فتولت (رماح) أمر العناية بوالدتي سُهيلة»

لم أصدق أنها لم تتزوج قط فأصبح قلبي يدق بقوة وعقلي شارد نحو مكان بعيد، حيث الأحلام والأمنيات والسَّعادة المسلوبة منِّي غدرًا. كنت مبتسمًا بلا أي شعور منِّي فقالت (سمية) لي:

«ما بك؟ هل أنت بخير يا جدِّي؟»

قلتُ لها:

«بأحسن حال، والآن أخبريني أين منزلك لأوصلك إليه فالمكان أظلم وأنا خائف عليك ممن يتجوَّلون فيه»

قالت:

«ولكن والدتي قالت لي أن أوصلك لا أن توصلني»

ربتُّ على كتفها وقلتُ:

«لا يهم من يوصل الثاني المهم أن يكون كلانا بخير، فأنا كما تعلمين رجل كبير بالعمر قد شارف وقتي على الانتهاء. من الذي يريد واحدًا مثلي يا (رائدة) أما أنت فطفلة في بداية حياتك والكثير يهوى تدمير حياة الآخرين لتصبح سوداء خالية من أي شيء في المستقبل»

أوصلتها إلى منزلها ومشيت بخطى بطيئة نحو منزلي، عندها سمعت صوتها، ذلك الصوت الذي أصبحت أشعر بالكره والحقد كلما سمعته، قالت:

«أنت تمشي في طريق يؤلمك عند موتك يا (أحمد)»

مشيت وتجاهلت ما سمعته، وكأنني لا أسمع ولا أرى شيئًا سوى الظلمات وبعض التهيؤات التافهة. مشت بجانبي رغم تجاهلي لها وقالت:

«إن اعتذرت لي وفعلت ما آمرك به سأتنازل عما أريد فعله»

لم أرد عليها بأي كلمة بل مشيتُ حتّى وصلت إلى منزلي وفتحت الباب ودخلتُ وأقفلته بكلِّ قوتي في وجهها.

سمعت ضربات الباب تُضرب بكلِّ قوة فقال (المأمون) لي:

«أتريد منِّي قتلها»

قلتُ:

«كلا، هي حزينة مثلي تمامًا وقتلها لا يشكل أي فارق لها. دعها تائهة بهذه الدُّنيا حتّى يتولى الله أمرها، فأمر الخلق لرب الخلق يا مأمون»

مرت الأيام وحياتي بدأت بالاستقرار مجدّدًا، تجمعات أصدقائي (هزيم) و(يوسف) ورؤيتي ل (رماح) في الشوق والكثير من الأماكن مصادفة.

وإلقائي للقصص والدروس لأبناء المدينة ومن ضمنهم رائدة والَّتي أصرت أن تزاحم الأولاد للتعلم فسمحت لها ذلك.

ذات ليلة بينما أنا جالس تحت تلك الشجرة الخالية من الروح قلتُ ل (يوسف) الجالس بجانبي:

«هل تتوقع أني أستطيع الزَّواج بعد هذا العمر يا (يوسف)؟»

قال رغم محاولته منع ضحكاته من الخروج:

«نعم ما دمت حيًا»

قلتُ وعيني إلى مباني المدينة وبالتحديد منزل (رماح):

«أتذكر ابنة عمتي (رماح)!، لم تتزوج قط رغم أن الجميع ود لو كانت من نصيبه في ذلك الوقت»

قال لي:

«أنت لم تفهم شيئًا،أخبرني لماذا تعتكف المرأة الوحدة عوضًا عن الزَّواج وبناء عائلة؟»

قلتُ:

«الكثير من الأسباب قد تكون سببًا لما فعلته»

قال:

«بل هو سبب واحد لا غيره، الحب يا (أحمد). الحب يجعلنا نبتعد عن كلِّ مغريات الدُّنيا لأجل شخص واحد فنرتجي العيش على هوامش الحياة بلا أي فائدة على أمل أن نجتمع به سويا، إن لم يكن بهذه الحياة سيكون بحياة أخرى»

قلت بتفكُّر :

«أتقصد أن (رماح) واقعة بالحب؟»

قال:

«أخبرني كيف وجدت وجهها عند رؤيتها لك؟!»

قلت:

«كانت سعيدة جدًّا وكأنَّ سعادة العالم أجمع باتت على وجهها بذلك اليوم»

فقال وهو يبتسم:

«أتعلم أن (رماح) مريضة ولا تستطيع المشي كثيرًا إن مشيت يتضح على وجهها الألم والإرهاق»

سألته:

«مريضة! أي مرض أخبرني؟»

قال:

«مرض الكبر يا (أحمد)، جميعنا معرضين لكثير من الأمراض بسبب الكبر، هذا الشيء لا يهم ولكن لتفهم شيئًا واحدًا وسأقوله لك بكلمات صريحة لعلك تستوعبه، (رماح) لم تحب يومًا سواك»

عادت دقات قلبي بالقرع وكأنها طبول لا تتوقف وصمتُّ بسبب الخجل والسّعادة التي أشعر بها.

قال عند رؤيته لتغيير ملامحي:

«أنت أيضاً تحبها»

هززتُ رأسي إيجاباً وتلك الابتسامة لا تفارقني.

عندها قال:

«تزوجها يا (أحمد)، فلم يبقَ الكثير بالعمر ولا ضير إن عشتما حياتكما الباقية بسعادة. فكلٌّ شخص منكما لم يَسْعَدْ في شبابه».

ضحكتُ بمجرد التفكير أني قد أتزوَّجها وبهذا العمر وقلتُ:

«ولكن وإن تزوجنا لن نستطيع بناء عائلة ثُمَّ ما يدريك قد ترفضني بعد كل هذا العمر»

قال:

«أوّلاً، الأطفال ليسوا مهمِّين كثيراً وتكوين عائلة لا يعنس إلزاماً أن يكون لك طفل. أنت ورماح إن تزوجتما ستكونان عائلة لبعضكما البعض. ثُمَّ لا تقل ترفضني وأنت لم تفعل شيئاً، افعل كل ما تستطيع فعله قبل الاستسلام يا (أحمد)»

أصبحتُ مبتسماً وأضحك كل دقيقة كالمجانين ثُمَّ ضممتُ (يوسف) بكل قوتي وقلت له:

«أشكرك، أنت و(هزيم) كالإخوة لي»

بعد يومين ذهبتُ برفقة (هزيم) و(يوسف) و(رائدة) كانت بمنتصفنا لطلب الزَّواج من (رماح)، استقبلنا زوج سهيلة (خالد) دون علمه بطلبنا.

بعد الضيافة وكل أصول العرب فيها قال لنا:

«قالت لي (سهيلة) أنكم قادمون لأمر هام فأخبراني»

فقال (يوسف):

«في الحقيقة، نحن نعلم جيِّدًا أن (رماح) لا تملك أحداً سوى زوجتك (سهيلة) وأنت تكون بذلك الأقرب لطلب هذا الطلب منك، (أحمد) يريد الزَّواج من (رماح)»

أصابته الدَّهشة ممَّا قاله (يوسف) وظل صامتاً يتأمَّلني ثُمَّ ما لبث أن ضحك فقالت ابنته:

«وهل الزَّواج عيب لتضحك يا والدي؟»

خجل من كلام ابنته وقال لها:

«اذهبي من هنا ولا تتدخَّلي في أمور الكبار، وفي طريقك نادي على والدتك»

ظلَّتْ واقفة كالصنم فصرخ عليها:

«هيَّا يا (رائدة)»

ثُمَّ رحلت لتأتي بعدها بلحظات (سهيلة) فقال لها:

«أخبري العمة (رماح) أن العم (أحمد) ابن خالها قد جاء لخطبتها»

اتضح الفرح على وجهها وقالت :

«حسناً سأخبرها»

ثُمَّ ركضت للداخل وبعد وقت ليس بالطويل قالت :

«أمي تريد رؤيتك يا (أحمد) وحدك»

توترت من كلماتها وظننت أنها تريد الرفض بعيداً عن إحراجي أمام الجميع فمشيت ببطء خلف (سهيلة) حتى وصلت إلى غرفة (رماح) والتي كانت جالسة في الأرض ويظهر على وجهها التعب.

قالت لي:

«لماذا تريد الزَّواج منِّي بعد كل هذا العمر يا (أحمد)؟»

نظرت إليها متفحِّصاً ثُمَّ ابتسمتُ بدون شعور وقلتُ:

«الحب لا يعرف العمر ولا الشكل ولا حتى نهاية الحياة، تعلمين أنني لم أحب أحدًا سواك منذ طفولتي. والحياة برفقتك أشبه بالجنة التي أحلم بها كل ليلة. تمنيت لو أتزوجك في شبابنا وأمسك بيدك متوجهاً بك إلى عالم السعادة ولكن أنت تعلمين الظروف وكيف جبرتنا على الابتعاد يا (رماح).

أنا فقط أريد إجابتك إن كانت نفياً أو إيجاباً لا يهم، المهم فقط أن أعرف إجابتك التابعة من داخلك دون الاكتراث بأي شيء آخر».

سقطت دمعة من عينيها وقالت:

«كنت مثلك تماماً، لم أتمنَّ من الرجال غيرك وظللت أنتظر حتى يئس قلبي. انعزالك في كبرك نتيجة موت والدك واختفائك بعد طلبك يدي بنفس الليلة. أتعلم أن والدتي قد وافقت في نهاية الأمر وبحثت عنك والدتك لتبشيرك ولكنك لم تكن موجوداً. لقد جننت وجنت والدتك معي، أصبحنا نبحث كل ليلة ولكن لا أثر لك. أتى الكثير لخطبتي ولكني لم أستطع الموافقة أملًا بعودتك حتى أصابني الكبر وأصبحتُ وحيدة لا أحد لي سوى ابنة أختي الراحلة الآن. كما ترى وعائلتها».

قلت لها:

«اليوم قد عدت طالباً قربك فهل تُعطيني فرصة واحدة لإعطائك الحياة التي حلمها كل واحد منا على حدة».

ابتسمت وقالت:

«موافقة، فالعيش معك لحظات يعادل كل السنوات التي قضيتها بعيداً عنك يا (أحمد)».

بدأ التحضير لزفافي أنا و(رماح) والذي كان ينافس أعراس الشباب في المدينة، لسبب واحد فقط أننا أردنا أن نصنع كل ما وددنا صنعه في شبابنا.

وقد زُفت لي برداء أحمر مليء بالجنيهات الذهبية وتم وضع المساحيق التجميلية في وجهها لتكون كملاك أمامي. في الواقع، هي جميلة في عيني وإن أخذ العمر منها جمالها وولى هارباً. فعيناي تنظر إليها فتراها خالية من العيوب وتتفوق على شابات هذا الزمان بكل شيء وإن لم تكن كذلك في الواقع.

قلت لها:

«وأخيراً صف القدر إلى جانبي وجلبك لي يا (رماح)»

ابتسمت وقالت في خجل:

«القدر لم يستطع مقاومة حبنا لبعضنا البعض طوال تلك السنوات الماضية فأهدانا آخر العمر لنكون سوياً»

قلتُ لها :

«آخر العمر معك يا (رماح) يعادل العمر بأكمله»

مرت الأيام والسنوات ورُزقنا وسط استغراب الجميع بطفلة، أسميناها (بيسان). كنا أسعد الخلق بعائلتنا الصغيرة ورغم كبر سننا

وصغر طفلتنا الوحيدة إلا أننا فعلنا المستحيل لنجعلها كقريناتها ممن هن في عمرها بالتربية وقربنا لها.

بعد أن بلغ عمرها خمسة سنوات ماتت (رماح) نتيجة الكبر والمرض فحزنت عليها حزناً لو قُسم على المدينة بأكملها لزاد ولم ينقص. ظللت وحيداً برفقة (بيسان) التي تزورها (رائدة) كل فترة لتلبية متطلباتها والعناية بها معي.

في الواقع، ابتعدت كثيراً عن ابنتي بسبب أنها تشبه والدتها كثيراً فتذكرني بها كلما نظرت إليها فينفطر قلبي.

ابتعدت وتحاشيتُ النّظر إليها بعدما كنتُ لا أرى في حياتي غير طفلتي طفلة. دائماً ما يقولا لي (يوسف) و(هزيم) أن لا ذنب لها، ولا تحرمها منك بعدما حرمها القدر من والدتها. ولكني لم أستطع فكلما أقول اليوم سأفعل لها وسأفعل أجدني أعود متحاشياً وجهها بكل ضعف وانكسار.

بعد مضي سنتين أصبحت منعزلاً تماماً عن الجميع والكثير من الكوابيس تفتك بي كل ليلة ولكن في هذه الليلة شعرت بشعور غريب، وكأنّها النهاية. شعرتُ بقربي من (رماح) وبعدي عن ابنتي كبعد السّماء عن الأرض.

وددتُ رؤيتها بشدة ففتحت باب غرفتها لأجدها نائمة والدموع لم تجف في خديها. قبّلتُها على رأسها بهدوء ومسحت دموعها بيدي ثُمَّ خرجت بعد أن ألقيت نظرة أخيرة عليها وذهبت إلى غرفتي

استعداداً لكابوس آخر. فالكوابيس أصبحت تفترش بجانبي كل ليلة حتى اعتاد بعضنا على بعض.

وجدت (المأمون) يتأمَّلني بهدوء فقلتُ له:

«منذ زمن لم تظهر لي واليوم ظهرت»

قال بحزن:

«لأنك لم تكن محتاجاً إليَّ في حياتك»

ابتسمت وقلتُ له:

«وما سبب ظهورك اليوم إذاً»

قال:

«أن أودعك»

لم أفهم معنى الوداع الذي نطقه ولكنني قلتُ:

«سأطلب منك شيئاً أتمنى أن تفعله لأجلي»

قال:

«قل ما تريد فأنا سأفعل كل شيء لك»

قلت له:

«ابنتي بيسان لا تمتلك بهذه الدنيا أحداً سواي فكن معها كعين الأب لابنته، أريد أن تحميها بوجودي أو عدمه»

قال:

«قلت لك سابقاً وسأقول اليوم أيضاً، ما دامت من نسلك سأكون بجانبها ولكن إن لم تكن كذلك، فاعذرني»

لم أركِّز كثيراً على جملته بسبب التّعب الواضح على وجهي وقلتُ:

«أحتاج إلى النَّوم»

وعند انتهاء جملتي ذهبتُ في سبات قذف بي إلى عالم غريب، إلى الماضي...!

وجدتني واقفاً في ركن بيتي عند طفولتي وجميع عائلتي موجودون في المكان بما فيهم نسخة أخرى مني. شاهدتُ والدي يعنفني بسبب ذهابي إلى منزل الشيخ (سالم) فتذكرت الليلة هذه جيِّدًا، الليلة الأخيرة له قبل انتحاره.

حاولت الاقتراب منه ومن والدتي بل ومن نفسي ولكني كنت مخفياً لا أحد يراني ولا أستطيع لمس أحد منهم. أشاهد المنظر بلا أي تحكم لتغيير أي شيء.

بعد ذهاب النسخة الماضية منِّي إلى غرفتي جلس والدي على كرسي متهالك موجود لدينا ووضع يديه على رأسه. قالت له والدتي

«لا تهتم بما قال سوف يكبر ويفهم أن ما تفعله لمصلحته يا (سالم)»

قال لها:

«هذا الاسم يخنقني، أتساءل لماذا سماني والدي باسم ذلك السّاحر الوغد، لولا خوفي من غضب والدي علي لصرخت للناس باسم جديد ينادونني به»

حاولت والدتي تهدئته وعند يأسها قالت:

«سأذهب للنوم وبمجرد أن تهدأ تعال لتنم أيضاً وغداً ستراه قادماً إليك يطلب الصفح»

رحلت والدتي ليبقى والدي في المكان وحيداً ويديه على وجهه. بعد وقت قليل لمحت شيئاً قادماً من خلفه. لقد كانت (ملائك)، تنظر إليه بعين خبيثة ثُمَّ همست في أذنه:

«هل أنت حزين؟»

قفز من مكانه ونظر إليها بهلع وقال:

«من تكونين؟ وكيف دخلت إلى هنا أيتها المرأة»

وضعت يدها على فمها وقالت:

«بهدوء يا (سالم) بهدوء، فاليوم يوم موتك ويجب عليك أن تكون هادئاً».

عرف وقتها من تكون فقال:

«إذاً شيطانة، أرسلك ذلك الساحر إليَّ، أليس كذلك؟ أعوذ بالخالق من*»

وضعت يدها على رقبته قبل أن يكمل جملته وقالت :

«اليوم سيكون يوم موتك شئت أم أبيت».

بدأت بخنقه رغم مقاومته ولكن وبعد عدة دقائق مات بين يديها. حاولت بدوري منعها والصراخ فيها وفعل المستحيل لتغيير ما أشاهده ولكنني لم أستطع.

بعد سقوطه سحبته من قدمه وخرجت به إلى السوق المركزي لتضع جثته على مشنقة صنعتها ثُمَّ اختفت من المكان.

ظللت أنظر لجثة والدي وأنا أبكي وأقول:

«أنت لم تنتحر بل هي من فعلت بك ذلك»

وأصرخ في كل مكان:

«تلك الشيطانة قتلت والدي، تلك الشيطانة قتلت والدي»

ولكني نهضت من نومي لأجد (ملائك) واقفه أمامي ونفس الابتسامة الخبيثة على وجهها وهمست لي:

«ظننتني اكذب عندما اخبرتك على ظهر تلك السفينة انني قتلته وها أنا اثبت لك ذلك والآن.. جاء دورك يااحمد»

أردت النهوض ولكني لم أستطع وكأن مئات السلاسل تكبل جسدي. ولمحت بيدها اليمنى كتاب العرين وفتحت بالأخرى صفحات الكتاب لتُريني كلاماً بدأ الكتاب بكتابته

(وقد كان (أحمد ابنُ سالم) طفلاً شغوفاً يهوى كل ما هو جديد...).

علمت أن القصة عني وأني مودِّع هذه الدنيا بكل شيء فيها. ولم تمر سوى لحظات من وضع يديها عليَّ حتى ذهبتُ في سُبات لانهاية له.

سمعتُ صوتاً غريب من غرفة والدي ففتحتُ عيني ومشيت بخطوات مترنحة نتيجة النعاس. كنت أعلم أنه لا يُحبني ولكني خشيت عليه من احتياجي فلا يجدني. فتحت الباب بهدوء ولكن صوته كان عالياً. فوجدت والدي مسدوحًا وعينه بيضاء بالكامل وبجانبه امرأة ترتدي السّواد. عند رؤيتها لي ابتسمت وقالت..

(وقد كان النَّسلُ خاطئًا)





لأجل المجهول نفعل كل شيء.

دعاء الجدعاني

jm_y77
jm_y77
jm_y1977







دار صفحات كتاب للنشر والتوزيع